

مرآة دمشق
سورية تاريخنا

جان بيير فيليو

ترجمة: ديمة الشكر

مرآة دمشق

سورية تاريخنا

جان بيير فيليو

ترجمة

ديمة الشكر



الفهرسة في أثناء النشر - مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر
مرآة دمشق. سورية، تاريخنا / جان بيير فيليو
ترجمة: ديمة الشكر
192 ص.؛ 24 سم.
يشتمل على فهرس عام.



Printed Book ISBN: 978-605-7964-06-9
E-Book ISBN: 978-605-7964-05-2

العنوان بالفرنسية:

Le miroir de Damas. Syrie, notre histoire

By Jean-Pierre Filiu

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات معتمدة لدى
مؤسسة ميسلون للثقافة والترجمة والنشر



هاتف
باريس، فرنسا : 0033 6 25 77 62 61
إسطنبول، تركيا: 0090 531 245 0871

البريد الإلكتروني: info@maysaloon.fr

الطبعة الأولى
إسطنبول، تركيا - كانون الثاني / يناير 2019

المحتويات

ما كان ممكنًا لهذا الكتاب أن يرى النور لولا الثقة التي أولانيها هوغ جالون، ولولا إعادة القراءة الدقيقة لفرانسوا - كزافييه آدم ودييغو فيليو ومانون — نور طنوس. أتوجه بشكري إلى أربعتهم.

أهدي هذا الكتاب إلى رزان زيتونة وإلى باولو دلليليو وإلى عشرات آلاف المدنيين (المختفين) في سورية إبّان قمع الانتفاضة الشعبية منذ عام 2011.

((هل جئتُ إلى دمشق مقاتلًا أم عالمًا؟ هل جئتُ كي أحمل السيف أم كي أسجل الأحداث وأستصفي زبدتها وعبرتها؟))

سعد الله ونوس

منمنات تاريخية، 1996

مدخل

تخلى عالمنا عن سورية وعن شعبها لرعب لا يمكن تخيّله، ويبدو أن رعبًا مماثلًا لا يمسنا إلا حين تحتشد موجات اللاجئين على أبواب أوروبا، أو حين تضرب الاعتداءات قارتنا. ولكي تصير لا مبالاة مثل هذه ممكنة، وجب إخفاء كل ما في تاريخ سورية يدوّي في ذاكرتنا، وتصديق أن كارثة مثل هذه يمكن أن تستمر فوق أرض قريبة منّا إلى هذا الحد؛ يعني أننا عاجزون عن استباق مآس أخرى على أرضنا. لهذا السبب، من الملحّ إعادة الرابط مع جزء من التاريخ العالمي الذي حدث هناك؛ على الضفة الأخرى من المتوسط.

سواء شئنا أم لم نشأ، فإن دمشق تقدّم لنا اليوم مرآتها.

تعود إقامتي الأولى في سورية إلى عام 1980 . عشت فيها سنوات طويلات، وزرتها في أوقات منتظمة، ولا سيما في أثناء النزاع الجاري. تجولتُ في سورية من حوران إلى الجزيرة، من جبال العلويين إلى حوض الفرات.

فيها التقيتُ الأسد الأب والابن، والتقيت كذلك، لحسن حظي، مجموعة من السوريات والسوريين ذوي أصول متنوعة. هذا الكتاب ثمرة تجارب كثيرة متراكمة، كما هو حصيلة تأملات ناضجة خلال سنين نضجي. وهو بمنزلة تحية لهذا الشعب المضياف إلى هذا الحد مع الغريب، والمرتبط جدًا بتاريخه.

ما كنت لأتخيل مطلقًا أن ملايين النساء والرجال من سورية يؤثرون المنفى على الرعب؛ ولا سيما في مخيم اللاجئين حيث درّست، فقد أعادوا بناء النماذج الأجمل من تراثهم بالوسائل المتوافرة في قلب الصحراء الأردنية، من قلب حلب المخربة؛ وكنت رأيتُ سابقًا مسلمًا تقيًّا متدينًا يبكي أمام حطام فسيفساء بيزنطي.

لا يقترح هذا الكتاب إلا مسارًا من بين مسارات بغية العثور على تراث مهمل. وتجري أحداثه بتسلسل زمني من اثني عشر فصلًا؛ منذ بدايات عصرنا إلى أيامنا هذه. ويلتقي شخصيات نظن أننا نألفها مثل: القديس بولص، وصلاح الدين (الأيوبي) أو

عبد القادر (الجزائري)، ويكشف حتمًا عن شخصيات أخرى، من (طريق دمشق) حتى (الشرق المعقد). سورية على الرغم من الاضطهادات التي طبعتها، تظهر بذلك ملاذًا للأقليات، بل إلى درجة توفير ملجأ للناجين من أولى مذابح القرن العشرين؛ مذبحة الأرمن.

في كل مرة بحثتُ بطيب خاطر عن التوافق بين الأزمنة. لا يتعلق الأمر بلعبة فكرية وهمية بعض الشيء، بل هو سؤال مفتوح عن هذه التوازيات التي يمكن أن تضيء حاضرنا. كذا نبصر الخليفة الأموي الأول وحافظ الأسد يتوسلان مِكرًا مشابهًا من أجل تأسيس سلالتيهما، من دون الأخذ بالحسبان العقيدة التي نصّبتهما ملكيْن. أما بالنسبة إلى الدبلوماسيين المعاصرين، فبإمكانهم -ربما- استخلاص دروس الفشل من ابن خلدون لثني تيمورلنك أمام دمشق.

فضاءات سورية، ومدنها، ووديانها، وقلاعها وواحاتها، مشبعة بتاريخ معقد، نجهد، من دون ادعاء بلوغ الكمال، أن نذكر الطبقات المكونة لهذا التاريخ. سنذكر إذًا دمشق وحلب وحمص والرقة أكثر مما نذكر حماة واللاذقية، وتدمر أو أفاميا؛ فالكتابة مسألة خيار بقدر ما هي مسألة تأويل.

النزول إلى جحيم سورية وجحيم شعبها ليس قضية العرب ولا هو وضع حد لنزاعات سحيقة، إنما هو هبوط عصري بصورة مريعة، لأنّ جلادي هذا الزمن لا يستدعون الماضي المجيد إلا من أجل تعزيز سلطتهم المطلقة. فلنحذر من أن نمنحهم أهمية تاريخية كبيرة، خشية أن نسهم في تقديم ضحايا مقبلين، فوسائل ترويج الموت تتصارع أيضًا في عمل الذاكرة.

لدينا كلنا في أعماقنا جزء من سورية. من المؤكد أن الاعتراف بذلك مؤلم، بينما تحترق سورية. وسيكون من الجنون إنكاره، خشية أن نبصر هذا الفعل البغيض الماثل أمامنا. في مرآة دمشق سنرى إذًا، ما أصبح عليه عالمنا، لأن هذا هو تاريخنا، هنا كما هناك، وهناك كما هنا.

1. القديس بولص وولادة المسيحية

تنسب حلب إلى نفسها، أكثر من دمشق، هذا اللقب المرموق؛ أقدم مدينة مأهولة في تاريخ الإنسانية. وتدعي المدينتان ست ألفيات بل سبعًا أو ثماني ألفيات من الإقامة المستمرة فيهما. وتدعمان طموحهما باستدعاء الأساطير المؤسسة. يقال إن هضبة بالقرب من دمشق اختارها قابيل كي يدفن فيها أخاه هابيل بعد أولى الجرائم في تاريخ الإنسانية، ويمكن لحلب أن تفتخر بأنها استقبلت سيدنا إبراهيم.

ويعود الفضل إلى المؤرخين الإغريق في أنهم حددوا تحت اسم (سوريا) المقاطعات الغربية من الإمبراطورية الأشورية. ومن بعد الأشوريين انتقلت سوريا، 605 قبل عصرنا (قبل الميلاد) إلى هيمنة البابليين، ومن ثم في 539 إلى حكم الفرس الأخمينيين الذين هزمهم الإسكندر الكبير عام 333. وبموت الفاتح تنازع جنرالاته مناطقه الواسعة، وساد في النهاية سلوقس على شمالي سوريا، وطور فيها المراكز الحضرية في أنطاكية وأفاميا ولاأوديسا؛ اللاذقية حاليًا.

ويجب الانتظار حتى عام 189 قبل الميلاد، حتى يستولي خلفاء سلوقس[1] أي (السلوقيين) على سوريا الجنوبية التي كانت حتى ذلك الوقت تحت سيطرة مصر. تهديدٌ آخر من الجنوب أتى من مملكة الأنباط العربية أي من المعبد الطبيعي (المعبد الكبير) في البتراء. انطبعت هذه المرحلة السلوقية بـ (هلنسة) مكثفة، على الرغم من الضعف النسبي للعامل الإغريقي لدى السكان. هزمت (الجمهورية الرومانية) آخر السلوقيين، وأنشأت عام 64 قبل الميلاد الولاية الرومانية السورية.

أنطاكية هي العاصمة المتألقة لهذه الولاية الرومانية السورية، وما لبثت أن أصبحت المدينة الثالثة في إمبراطورية أغسطس بعد روما والإسكندرية. إذًا، تمركزت أربعة فيالق في سوريا، وقلصت تدريجيًا من الحكم الذاتي لكل من إيميزا وإيرادوس (حمص وأرواد

---

(1) سلوقس الأول المنصور (نيكاتور) (358 ق.م - 281 ق.م) حيث نيكاتور بمعنى (المنتصر) لقب استحقه بسبب انتصاراته وقد كان أحد قادة جيش الإسكندر المقدوني ومؤسس الأسرة السلوقية الحاكمة. (م).

حاليًا)، ثم من حلف الديكابولس[2] (المدن العشر) الذي كانت دمشق جزءًا منه. وكانت مرحلة السلم الروماني (باكس رومانا)[3] مفيدة للمراكز التجارية لبيروا (حلب) ودمشق، وبالطبع تدمر.

من طرسوس إلى دمشق مرورًا بأورشليم القدس

ليس في سوريا لكن في طرسوس[4] عاصمة الولاية الرومانية لقيليقية المجاورة، وُلد صول (شاوول) في بداية عصرنا. وينتسب من جهة أبيه، المواطن الروماني، إلى القبيلة اليهودية بنيامين. ومن المرجح بقوة أنه، كما لدى كثير من أسر مساكن وجهاء الشتات، يترافق الاسم اليهودي لشاوول منذ الأصل مع اسم روماني آخر، وفي هذه الحالة مع بولص[5]. تلقى الشاب شاوول/ بولص تعليماً هلنستيًا متقدمًا، ولا سيما في علم البلاغة، والدراسات التلمودية التي أكملها في أورشليم.

في المدينة المقدسة في مطلع الثلاثينيات، تورط بولص في الاضطهاد الذي حصل ضد كنيسة أورشليم الناشئة[6]. كذلك تورط في إعدام إسطفانوس[7]، الشهيد الأول، حيث زاد أتباعه المدعوين بـ (الهلنستيين) من الاستفزازات ضد المعبد اليهودي (الهيكل) في أورشليم. وقد ركزت أعمال الرسل التي نشرها حوالى 80 للميلاد لوقا/ أحد الإنجيليين

(2) المدن العشر أو الديكابولسهو: تحالف روماني أنشأه الإمبراطور الروماني بومبي عام 64 ق.م، ضم عشر مدن من أهم مدن منطقة بلاد الشام للوقوف ضد نفوذ الأنباط في الجنوب. ووقعت هذه المدن وسط بلاد الشام وجنوبيها، داخل حدود كل من هذه الدول المعاصرة: سورية والأردن وفلسطين. (م).

(3) باكس رومانا ومعناها السلم الروماني، تعبير عن مرحلة السلام الطويلة من القرن الأول وحتى الثاني قبل الميلاد، وفرضته الإمبراطورية الرومانية على المناطق الخاضعة لها. (م).

(4) كانت طرسوس وقتها مرفأ يصب النهر فيه، واليوم أصبحت تجمعًا ثانويًا لمحافظة مرسين التركية.

(5) هذه هي الفرضية التي وضعها بهذا الخصوص إيتيين ترومية، الأستاذ الفخري لمادة العهد الجديد في جامعة ستراسبورغ؛ وماري فرانسوا باليز، أستاذة التاريخ الإغريقي في جامعة باريس الرابعة، السوربون.

(6) يبقى الشك في التسلسل الزمني صارمًا في المدة كلها، والنقاش الذي ما يزال مفتوحًا حول عام صلب المسيح بين 30 و33 للميلاد.

(7) أول الشمامسة؛ هو أول شهيد في المسيحية، معنى اسمه: (تاج أو 'كليل من الزهور) وهو مكرم في المسيحية. (م).

الأربعة -من دون شك- على النشاط القمعي لبولص، بغية تضخيم قيمة اعتناقه المسيحية.

مع ذلك فما لا جدل فيه أن بولص كان مناضلًا يهوديًا راديكاليًا متطرفًا على وجه الخصوص تجاه مجموعة المسيحيين الذين حاولوا نزع القدسية عن المعبد. بل إن حماسته[8] كانت إلى درجة أنه حصل على مهمة السلطات التلمودية في القدس لتوسيع الحملة ضد المسيحيين في كنس دمشق؛ إذ عبر ما سيسمى مثالًا عن ذلك (طريق دمشق)، سيعرف بولص التجربة الروحية الواردة في الإصحاح 22 من أعمال الرسل.

((فحدث لي وأنا ذاهب ومتقرب إلى دمشق أنه نحو نصف النهار، بغتة أبرق حولي من السماء نور عظيم. فسقطت على الأرض، وسمعت صوتًا قائلًا لي: شاول شاول لماذا تضطهدني. فأجبت: من أنت يا سيد؟ فقال لي: أنا يسوع الناصري الذي أنت تضطهده)).

((والذين كانوا معي نظروا النور وارتعبوا، ولكنهم لم يسمعوا صوت الذي كلمني، فقلت: ماذا أفعل يا رب؟ فقال لي الرب: قم واذهب إلى دمشق، وهناك يقال لك عن جميع ما ترتب لك أن تفعل. وإذ كنت لا أبصر من أجل بهاء ذلك النور، اقتادني بيدي الذين كانوا معي، فجئت إلى دمشق)).

((ثم إن حنانيا، رجل تقي حسب الناموس، ومشهود له من جميع اليهود السكان، أتى إلي، ووقف وقال لي: أيها الأخ شاول، أبصر ففي تلك الساعة نظرت إليه. فقال: إله آبائنا انتخبك لتعلم مشيئته، وتبصر البار، وتسمع صوتًا من فمه، لأنك ستكون له شاهدًا لجميع الناس بما رأيت وسمعت)).[9]

---

(8) هذا تعبير بولص بنفسه الوارد في رسائله إلى أهل فيلبي وإلى أهل غلاطية.

(9) أعمال الرسل، الإصحاح 22.

ثلاث روايات لطريق واحدة

من المرجح بقوة أن بولص قد تلفظ بهذه الكلمات، كما وردت في الإصحاح 22 من أعمال الرسل. نحن من ثمّ، حوالى عام 57، أي عشرين عامًا بعد الرؤيا الخارقة على (طريق دمشق). بولص الذي وشى به الحجاج اليهود الذين تجادل معهم في أفسس[10]، هوجم بعنف داخل معبد القدس، واتهم بتدنيس أرفع المقدسات، عبر إدخال المشركين إلى الفناء المقدس. ولا يدين بولص بسلامته إلا إلى تدخل الجنود الرومان الذين اقتادوه وسجنوه في القلعة القريبة.

بصعوبة نرى بولص يعرض –في اضطراب مماثل– السرد الذي سيصير حرفيًا إشراقًا. لكن لوقا الممسك بقلم أعمال الرسل، يتوصل عبر هذا السرد المصطنع إلى المصالحة بين الروايتين لـ (طريق دمشق)؛ تلك الخاصة بالإصحاح 9، الخصبة بالتفاصيل الدرامية التي تغذي وإلى اليوم التقوى الشعبية؛ والرواية الخاصة بالإصحاح 26، وهي أكثر اتزانًا لأنها مرتكزة حول الرؤيا نفسها: ((فقلت أنا: من أنت يا سيد؟ فقال: أنا يسوع الذي أنت تضطهده. ولكن قم وقف على رجليك لأني لهذا ظهرت لك، لأنتخبك خادمًا وشاهدًا بما رأيت وبما سأظهر لك به. منقذًا إياك من الشعب ومن الأمم الذين أنا الآن أرسلك إليهم. لتفتح عيونهم كي يرجعوا من ظلمات إلى نور، ومن سلطان الشيطان إلى الله، حتى ينالوا بالإيمان بي غفران الخطايا ونصيبًا مع المقدسين)).[11]

تثبت هذه الرواية في دعوة بولص التبشيرية. وستتيح له لاحقًا، بعد ردح من الزمن، أن يتموضع كنبي على غرار رفاق يسوع الاثني عشر. وستخدم في إضفاء الشرعية على حملته المقبلة لوعظ (الوثنيين)، عندما يتردد بطرس وكنيسة أورشليم في قطع الجسور مع اليهودية. ولكن لنحرص على عدم تسريع هذه المرحلة: (شاول طرسوس) الذي سيستعيد البصر في دمشق، يعمّد فيها (رجلًا تقيًا وفق القانون). إشراقة بولص أقنعته بوصفه يهوديًا، أن يسوع هو المسيح. وفي ضمن هذا المعنى سيذهب ليبشّر في كنس دمشق.

---

(10) أفسس أو إفسوس، وهي من أعظم المدن الإغريقية القديمة في الأناضول، وتقع في منطقة ليديا -منطقة تاريخية في غرب الاناضول- عند نهر كيستر الذي يصب في بحر إيجه (في تركيا الحالية). أسست في القرن العاشر قبل الميلاد من الإغريق القدامى. (م).

(11) أعمال الرسل، الإصحاح 26.

تلقين حنانيا

يمنح الإصحاح التاسع من أعمال الرسل مساحة كبرى لشخصية حنانيا الذي نفرنِسه بـ (أناني)، وهو الذي تنسب إليه أيضًا رؤية خارقة: ((فقال له الرب: قم واذهب إلى الزقاق الذي يقال له المستقيم، واطلب في بيت يهوذا رجلًا طرسوسيًا اسمه شاول، لأنه هو ذا يصلي)).[12]

هذا (الزقاق الذي يقال له المستقيم) هو الـ Via Recta الذي نظّمه الرومان-الورثة الشرعيون للتخطيط العمراني الإغريقي- على طول أكثر من كيلومتر؛ قاطعًا دمشق من الغرب إلى الشرق، وقد عرفت هذه الطريق في الواقع انعطافين ممهورين بأقواس على امتداديهما، من هنا الحذر واستخدام كاتب أعمال الرسل جملة ((يقال له)).[13]

وفي الإصحاح التاسع نفسه يضيف أن حنانيا سيلقى بعد ذلك بولص شاوول الذي ما زال مبهور البصر نتيجة تجربته الصوفية. سيضع يديه عليه و((فللوقت وقع من عينيه شيء كأنه قشور، فأبصر في الحال، وقام واعتمد))[14].هنا تحيد هذه الرواية من أعمال الرسل عمّا يرويه بولص نفسه في (رسالة بولص الرسول) (الرسالة إلى أهل غلاطية)/ وروى أنه ذهب إذًا إلى (العربية)/ أي إلى مملكة الأنباط التي عاصمتها البتراء التي تبعد ثلاثة أيام مسير من دمشق. نشاط تبشيري، لم يبق منه أي أثر، يبدو في الواقع أقل ترجيحًا من العزلة الروحية بعد صدمة (طريق دمشق).

الواقع أن بولص عاد بسرعة إلى دمشق، حيث سيبشر هناك من دون شك مدة عام أو عامين. يصمت الإصحاح التاسع من أعمال الرسل، عن المدة الفاصلة النبطية، ويتكلم عن (مؤامرة) لا تصدق، وكذلك الأمر بالنسبة لحلها: ((وأما شاول فكان يزداد قوة، ويحير اليهود الساكنين في دمشق محققًا: أن هذا هو المسيح. ولما تمت أيام كثيرة تشاور اليهود ليقتلوه. فعلم شاول بمكيدتهم. وكانوا يراقبون الأبواب أيضًا نهارًا وليلًا ليقتلوه. فأخذه التلاميذ ليلًا وأنزلوه من السور مدلين إياه في سل)).[15]

(12) أعمال الرسل، الإصحاح 9.

(13) لم يمنع هذا التحوط مارك توين من السخرية بشدة في أحد كتب الرحلة، فيها بين مدن أخرى رحلة إلى دمشق، المنشور عام 1869: ((هذه الطريق المسماة بالمستقيم أكثر استقامة من أداة نزع السدادات، وأقل استقامة من قوس فزح)).

(14) أعمال الرسل، الإصحاح 9.

(15) أعمال الرسل، الإصحاح 9.

كنيستان جديدتان عصريتان

بالنسبة إلى بولص فإنه لم يصادق أبدًا على رواية (مؤامرة) اليهود في دمشق. ويصرح في رسائله للكورنثيين (الرسالة إلى أهل كورنثوس) أنه ممثل الحاكم النبطي الذي أجبره على الهرب. لا ننسى أن بولص بعد إشراقه بمدة قليلة، قد ترك دمشق كي يلجأ في المملكة العربية. وسواء أبشّر هناك أم مارس التجارة، فقد نشأ خلاف غذى تدخّل الأنباط لدى السلطات الرومانية في دمشق.

امتنع بولص عن تفصيل أحوال رحيل مستعجل مثل هذا. وكانت الحدود وقتئذ، أبعد من أن تكون ثابتة على الأطراف العربية للإمبراطورية الرومانية، ومن الممكن أن تكون الفرق الأنباطية قد حاصرت دمشق، بل قد امتلكت موقتًا زمام الأمور (يشكل التوقف عن صك العملة الإمبراطورية في دمشق أحد العناصر النادرة التي تدعم هذه الأطروحة). هذا يفسر في حالة وفي أخرى، إغلاق بوابات المدينة لسبب آخر مختلف كلية عن الملاحقات التي أُخضِع لها بولص.

للمؤرخ أن يختار بين هذه التأويلات المختلفة؛ الأمر الجوهري والمهم هو أن نعلم بأنه هناك حيث وضع لوقا يهود دمشق موضع اتهام، فإن بولص نفسه يشير إلى مسؤولية الأنباط في تركهم للمدينة السورية. بينما في ما يخص مكان إنزال (السلة) في أعمال الرسل، فسيكون داهيةً من يستطيع تحديد المكان عند نقطة أكثر من غيرها على طول الكيلومترات الخمسة للسور الروماني.

يجب الانتظار حتى القرن المنصرم، ليبني الكاثوليك (كنيسة القديس بولص) غير البعيدة من باب كيسان، إحدى الأبواب الجنوبية لمدينة دمشق القديمة. تسمى هذه الكنيسة المعاصرة أحيانًا بـ (القديس بولص فوق الأسوار) من أجل تمييزها من الكاتدرائية الرومانية للقديس بولص خارج الأسوار (في الفاتيكان). ويقع الصرح الدمشقي عند مفترق محور شمالي جنوبي، وهو ناشط منذ الحقبة الرومانية، وعلى حافة الحي التاريخي لليهود في المدينة القديمة.

وما هو بالكاد أقل تلفيقًا، إنما هو بالتأكيد (منزل القديس حنانيا)، نصل إليه عبر زقاق متعامد مع أقصى جزء من الـ (فيا ريكتا) (الطريق المستقيم)، تمامًا قبل ما كان يسمى في ما مضى باب الشمس (اليوم باب شرقي). بنى هذا المنزل (المرسلون الفرانسيسكان لخدمة الأرض المقدسة)، فوق بقايا أرض مشتراة عام 1814 . وكُرّست كنيسة تحت الأرض للقديس حنانيا الذي طُوّب قديسًا لأنه عمّد بولص، ويرجح أنه مات شهيدًا في فلسطين عام 60 .

في الواقع، تعود الآثار الأقدم لسكن هذا الموقع، لمعبد وثني من القرن الثاني أو الثالث. يجيب الفرنسيسكان، مع مؤمنين آخرين، بأن التقوى الحارة لحنانيا هي بالتحديد ما دفع الرومان إلى (توثين) (إضفاء الوثنية) المسكن. في الواقع تم تعيين معالم كنيسة، إلا أنها تعود إلى القرنين الرابع والخامس. ثم تحول البناء بعدها جزئيًا أو كليًا إلى مسجد، على الرغم من أن الحوليات القروسطية وروايات الرحالّة تتفرع كثيرًا بغية تفضيل رواية عن أخرى.

مطهر أنطاكية

عاد بولص إلى أورشليم بعد هروبه من دمشق في ظروف مهينة جدًا. مكث فيها قليلًا، من دون شك، من أجل التفلت من انتقام زملائه القدامى في سنين (حماسته) ضد المسيحية. سيزعم لاحقًا أن بطرس استقبله جيدًا، وهو الألمع بين حواريي يسوع الاثني عشر، الذي يرأس من دون منازع كنيسة أورشليم. تشير أعمال الرسل إلى أن بولص استفاد من رعاية برناباس/ برنابا، وهو عضو قبرصي من حلقة المؤمنين الأولى.

من المهم، ولا سيما بالنسبة إلى بولص، أن ينهل من منبع العقيدة التي لم يجد لها منفذًا حتى الآن إلا ضمن مجموعة حنانيا الدمشقية. وقد أبلى بلاء حسنًا وفي وقت قصير، إلى درجة أنه كلّف بمهمة التبشير بالمسيحية في قيليقية، وشمالي سوريا. أدّى تبشير بولص الناجح في دمشق على الأرجح دورًا في هذا الاندماج السريع مع كنيسة أورشليم. وبوصفه داعية مجتهدًا لعقيدة بطرس، ولا سيما ختان المهتدين إلى الدين، استطاع بولص نشر طاقته خلال سبعة أو ثمانية أعوام.

نعرف قليلًا جدًا من الأمور عن هذه المدة الطويلة من مهمة بولص التبشيرية التي بدأها من مسقط رأسه في طرسوس، لتنتهي هذه المهمة حوالى عام 43 عندما يُرسل برنابا من أورشليم لإدارة الطائفة في أنطاكية، ويطلب من بولص أن يؤازره. يقص (أعمال الرسل) هذا الفصل مضيفًا تفصيلًا جوهريًا: ((ثم خرج برنابا إلى طرسوس ليطلب شاول. ولما وجده جاء به إلى أنطاكية. فحدث أنهما اجتمعا في الكنيسة سنة كاملة وعلما جمعًا غفيرًا. ودعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولًا))[16]. المصطلح الأصلي

(16) أعمال الرسل، الإصحاح 11.

للمسيحية (كريستيانوس) مشتق من اللفظ الإغريقي (كريستوس) وoint (مسح بزيت) ويمكن ترجمته حرفيًا مثل –المسيحين؛ وهو لفظ مرخمٌ وقليل البلاغة، من أجل الإشارة للمخلصين للمؤمنين بالمسح.

يتطابق هذا الترقيع اللغوي مع بزوغ واقعة جديدة، أكثر فأكثر تحللًا من الكنيس. فقد عيّنت مجموعة أنطاكية برنابا وبولص، كي يذهبا ويحملا الرسالة الإنجيلية أبعد. وبعد مهمة في قبرص التي ينحدر منها برنابا سيذهب الداعيان إلى الأناضول. في أنطاكية بيسيديا (القريبة من مدينة يالفاك حاليًا) بشّرا أولًا في كنيس يوم السبت.

وهذا سرد الواقعة في أعمال الرسل: ((ولما انفضت الجماعة، تبع كثيرون من اليهود والدخلاء المتعبدين بولص وبرنابا، اللذين كانا يكلمانهم ويقنعانهم أن يثبتوا في نعمة الله. وفي السبت التالي اجتمعت كل المدينة تقريبًا لتسمع كلمة الله. فلما رأى اليهود الجموع امتلأوا غيرة، وجعلوا يقاومون ما قاله بولص مناقضين ومجدفين [...].

وانتشرت كلمة الرب في كل الكورة. ولكن اليهود حركوا النساء المتعبدات الشريفات ووجوه المدينة، وأثاروا اضطهادًا على بولص وبرنابا، وأخرجوهما من تخومهم. أما هما فنفضا غبار أرجلهما عليهم، وأتيا إلى إيقونية. وأما التلاميذ فكانوا يمتلئون من الفرح والروح القدس))[17].

وفي إيقونيوم (قونية المعاصرة) جذب برنابا وبولص كثيرًا من المؤمنين، إلى درجة أن جموع اليهود الزاخرة بالوثنيين، قد انقلبت عليهما أيضًا. وفضلًا عن هذه النزاعات التي كانت أحيانًا عنيفة، فإن المبشريْن، ضحيتا نجاحهما إن جاز القول، احتفظا لنفسيهما بدءً من الآن فصاعدًا بطلب ختان المهتدين الجدد للدين، وأوكلا لأعيان محليين إدارة الجماعات الجديدة. نشرت هذه الحريات –الأكثر فأكثر خطورة مع العقيدة– البلبلة في رأس كنيسة أورشليم، فاستدعى بطرس برنابا وبولص، وتلقيا حكمًا محابيًا نوعًا ما، مع إعفاء إلزامية الختان.

وبالعودة إلى أنطاكية، عدّ بولص نفسه مطمئنًا في ما يخص تبشيره المتكيّف جدًا مع الطابع الكوزموبوليتي لعاصمة سوريا. وأدارت الطائفة المسيحية المحلية بترتيبات توافقية التضخم في صفوفها؛ فأقام بعض المؤمنين الميسورين أكثر الشعائر في بيوتهم

---

(17) أعمال الرسل، الإصحاح 12.

الخاصة. وفي ما يخص وجبات الطعام كان من المتعارف عليه أن على المشركين المدعووين لدى اليهود احترام المحرّمات في الأكل وفقًا للقانون الموسوي، وألا يقدموا إلى مضيفيهم اليهود إلا وجبات متطابقة مع قانون الشرائع عندما يستقبلونهم بدورهم. سيختل هذا التوازن العملي عند قدوم بطرس إلى أنطاكية.

في البداية، وافق أوّل مريد ليسوع على أن يتشارك الطعام مع المسيحيين ذوي الأصل الوثني. بيد أنه لم يلبث أن تصلّب وقرر ألا يتناول طعامه، ومن ثم ألا يحتفل بالقربان المقدس إلا مع اليهود المتشددين.

ووافق برنابا على مضض ربما على هذا الاستثناء الذي قدمه بطرس إلى الوثنيين المهتدين دينيًا، لكن بولص عارض هذا الحرمان من ميزة الخلاص في المعمودية، وأدان مؤسسة الكنيستين المنفصلتين في صلب المسيحية؛ الأولى مرتبطة بالكنيس والأخرى مفتوحة أمام (الوثنيين).

سنتذكر إذًا أن أنطاكية المدينة التي طالب فيها المسيحيون للمرة الأولى بهذه التسمية، ترى أن هذه الكنيسة الوليدة تفرّق بين من كانوا دومًا يهودًا ومن صاروا الآن مسيحيين. وتمثّل سوريا المسرح الذي طالما اتصف بالمأسوية نتيجة هذا الطلاق المؤسِس الذي جرى حوالى عام 48. بعد ذلك، تجيء الرسالة إلى أهل غلاطية، ورسائل أخرى لافتة من بولص الذي لا يهاب شيئًا. وسيذهب إلى حدّ تصوّر (مؤتمر يالطا) مسيحي، حيث يفصل بحر إيجه غربًا بين موطن تبشيره وبين الأرض المعترف بها لبطرس شرقًا.

ثبت أن هذه الجيوسياسية التبشيرية غير قابلة للتطبيق، وبعد إقامة طويلة في اليونان، وعودة إلى إنطاكية لا شك في أنها لم تكن مقنعة، استقر بولص في إفسس عاصمة ولاية آسيا الرومانية. ومن هنا، ولمدة ثلاث سنوات، سينشّط شبكة كنائس، تستلهم رسالته. يستمد هذا التبشير نجاحه من القوة الكامنة للبيان الذي أطلقه في وجه بطرس في عاصمة سوريا: نحن فخورون بأننا مسيحيون ولن نقبل أن نكون مسيحيين أقل من الشعب المختار.

بولص وبطرس في روما

لن يستطيع بولص الذي عارض التقسيم في قلب الكنائس في إنطاكية أن يساند لوقت طويل نزاعًا مع نموذج القدس. وقد شجّعته في إرادته بالتهدئة حقيقة أن جاك خلّف بطرس الذي ذهب في مهمة طويلة المدة أخذته حتى روما. مرت حوالى اثنتي عشرة سنة منذ صدمة أنطاكية، ولا بدّ من أن الزمن قد فعل فعله. وإذًا، ضمن روحية المصالحة عاد بولص إلى القدس حوالى عام 57، واعتقله عساكر الرومان في الظروف المذكورة أعلاه.

احتجز بول بعدها مدة عامين في مرفأ قيسارية الفلسطيني. وأدى طلبه تحكيمًا إمبراطوريًا إلى نقله عبر البحر صوب العاصمة الرومانية، حيث مكث تحت المراقبة. وعند تاريخ غير محدد من عقد الستينيات استشهد بولص في روما. سمحت عدم دقة التسلسل الزمني هذه أن يرتبط بولص ببطرس عبر الاستشهاد الروماني نفسه الذي أرّخ له خطأً بدوره[18]. لذا سيكون مشكوكًا فيه أن بولص وبطرس قد سويا خلافهما العميق قبل موتهما المأسوي.

أصبح بطرس رسولًا إلى جانب يسوع، بينما ولدت موهبة بولص على (طريق دمشق). وكان هذا كافيًا بالنسبة لإرنست رينان[19] المندفع كي ينزل بولص رتبة إلى الصف الأدنى، لأن (المسيح الذي كشف له بشكل شخصي، هو طيفه الخاص، إذ يسمع نفسه معتقدًا أنه يسمع يسوع)[20]. في حين كان التقليد المسيحي أكثر عقلانية، إذ يحتفل معًا ببطرس باعتباره رسول الشعب المختار، وببولص (رسول الأمم). بل إن التاريخ المشترك للتاسع والعشرين من حزيران/ يونيو سيخصص لكليهما عام 259 في تقويم القديسين.

---

(18) لا شيء يمنع في الواقع أن يعزى استشهاد بطرس أو بولص إلى الاضطهادات ضد المسيحيين التي أمر بها الإمبراطور نيرون عام 64 بعد حريق روما.

(19) إرنست رينان مؤرخ وكاتب فرنسي اشتهر بترجمته ليسوع التي دعا فيها إلى نقد المصادر الدينية نقدًا تاريخيًا علميًا وإلى التمييز بين العناصر التاريخية والعناصر الأسطورية الموجودة في الكتاب المقدس.

(20) Ernest Renan, Saint –Paul, (Calmann-Lévy, Paris, 1893), p.563.

وستشهد نهاية القرن الثاني الميلادي تأسيس (العهد الجديد) الذي –فضلًا عن أعمال الرسل– يتضمن رسائل بولص. وسيعرف الفكر المكنى منذ ذاك بـ (البولصية) انتشارًا غير مسبوق، وسيؤدي دورًا حاسمًا، من بين أدوار أخرى، في مسار أوغسطينوس[21]. لن ننتبه كثيرًا لتأثير القديس بولص في الإصلاح البروتستانتي، بقدر ما سننتبه إلى تأثيره في الينسينية[22] في القرن اللاحق. وسيسلط كتاب معاصرون ومتنوعون وأقرب إلى زمننا مثل كارل بارت[23] Karl Barth، غاستون فيسارد[24] Gaston Fessard أو ألان باديو[25] Alain Badiou، الضوء على شخصية بولص.

بادر البابا بنديكتوس السادس عشر إلى إقامة (سنة بولصية) تمتد من 28 حزيران/ يونيو 2008 حتى 29 حزيران/ يونيو 2009 (سمح عدم التأكد من التاريخ الفعلي لولادة بولص بهامش مريح للمناورة وتقويم القديسين ساد بصورة منطقية)، تفتتح هذه السنة اليوبلية رسميًا في روما في كنيسة (القديس بولص فوق الأسوار)، بحضور الحبر الأعظم وكبير أساقفة الأرثوذوكس في القسطنطينية وبطريرك الروم الكاثوليك القادم من دمشق من أجل المناسبة. يجد هذا المسار المسكوني صداه في العاصمة السورية عبر زياح في طريق (الفيا ريكتا) (الطريق المستقيم) يجمع الأرثوذوكس والكاثوليك وصولًا إلى كنيسة القديس بولص على الأسوار.

---

(21) القديس أوغسطينوس (354 - 430) كاتب وفيلسوف من أصل نوميدي-لاتيني، ولد في طاغاست (حاليا سوق أهراس، الجزائر). يعد أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية. تعتبره الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديسًا وأحد آباء الكنيسة البارزين وشفيع المسلك الرهباني الأوغسطيني. يعتبره كثير من البروتستانت، ولا سيما الكالفنيون أحد المنابع اللاهوتية لتعاليم الإصلاح البروتستانتي حول النعمة والخلاص. وتعتبره بعض الكنائس الأورثوذكسية مثل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية قديسًا. (م).

(22) الينسينية هي حركة دينية وسياسية، نشأت في قرن 17 وقرن 18، بصفة خاصة في فرنسا، بوصفها رد فعل على بعض التغييرات في الكنيسة الكاثوليكية والاستبداد الملكي. (م).

(23) كارل بارت (-1886 1968) عالم لاهوت كالفيني سويسري يعده كثير من العلماء من أهم مفكري القرن العشرين، وقد وصفه البابا بيوس الثاني عشر بأنه أهم عالم لاهوت ظهر منذ توماس الأكويني. وقد تخطى تأثير بارت الساحة الأكاديمية إلى الثقافة العامة، ليصل به إلى الظهور على غلاف مجلة التايم في 20 نيسان/ أبريل 1962. (م).

(24) غاستون فيسارد (1897–1978) فرنسي يسوعي ولاهوتي. (م).

(25) ألان باديو فيلسوف وروائي ومسرحي فرنسي ولد عام 1937، له كثير من المؤلفات. (م).

ستصاغ الأناجيل في أرض فلسطين المقدسة، بينما ستبدأ في سوريا المسيحية بالتحرر من اليهودية بوصفها عبادة دينية وممارسة اجتماعية. سيمتد هذا المسار المعقد على عقود عدة، لكننا نستطيع من الآن تتبع طوره الأول في مسار بولص وتعليمه في دمشق وحتى أنطاكية. نعم، لقد شهدت سوريا فعلًا اتساع مسيحية واعية لنفسها إلى حد أنها تغذي طموحًا كونيًا.

2. انشقاقات الشرق

يعود إلى الإمبراطور تراجان Trajan[26] عام 106 ضم مملكة الأنباط كي تدمج بالولاية الرومانية العربية. عاصمة هذه الولاية الجديدة بصرى، ذات المسرح الذي يتسع أكثر من 6 آلاف مقعد الذي بقي إلى اليوم أحد أقل الأماكن تعرضًا إلى الخراب بفعل الزمن في العالم المتوسطي. بدأت الفيالق بشق الطريق (فيا نوفا ترايانا) الذي انتهى عام 114، ويربط بصرى بالبحر الأحمر. وأمر تراجان كذلك بإعادة بناء أفاميا التي ضربها زلزال مدمّر، على الرغم من أن بناء صفوف الأعمدة الهائلة لم يكتمل إلا تحت حكم ماركو أوريلو (161– 180)[27].

كان على سيبتيموس سيفيروس Septime Sèvére[28] الذي أعلن إمبراطورًا في روما عام 193، أن يواجه معارضة ممثل البابا في سوريا. ليس بعيدًا عن أنطاكية، في إيسوس، سيسحق سيفيروس المتمردين عام 194. وعبر زواجه بجوليا دومنا[29] وهي من أعيان حمص، سيفتتح سيبتيموس سيفيروس سلالة أباطرة (سوريين) كاراكلا (211– 217)[30]

(26) الإمبراطور تراجان وهو ماركوس أليبيوس نيرفا ترابنوس (-53 117) ثاني الأباطرة الأنطونيين الرومان، والإمبراطور الروماني الثالث عشر، وبلغ بالإمبراطورية الرومانية أوج اتساعها. الإمبراطور الروماني كان ثاني (خمسة أباطرة جيدين) حكموا الإمبراطورية الرومانية من 96 إلى 180. (م).

(27) ماركوس أوريليوس أنطونينوس -121 180 الإمبراطور الروماني السادس عشر وخامس الأباطرة الأنطونيين الرومان. الإمبراطور الروماني الفيلسوف وهو أبو الإمبراطور كومودوس. كان آخر (خمسة أباطرة جيدين) حكموا الإمبراطورية الرومانية من 96 إلى 180، كما أنه يعتبر من أهم الفلاسفة الرواقيين. (م).

(28) الإمبراطور لوشيوس سيبتموس سيفيروس أو (سيفروس الأول)، وهو لوسيوس سيبتيموس سيفيروس أوغسطس (-145 211) الإمبراطور الروماني الحادي والعشرون (-193 211)، ولد في مدينة لبدة الكبرى عاصمة إقليم طرابلس آنذاك الذي كان يعد وقتها من ضمن مقاطعة أفريكا الرومانية. (م).

(29) جوليا دومنا: سورية من مدينة حمص، وهي زوجة القيصر الروماني سيبتيموس سيفيروس، ووالدة القيصر كاراكلا (-211 217) فارقت الحياة في أنطاكية عام 217م. (م).

(30) كاراكلا (-188 217) الإمبراطور الروماني من الأصول البونيقية من أبيه سيبتيموس سيفيروس والسورية من أمه جوليا دومنا الشهيرة ابنة مدينة حمص التي كانت ذات نفوذ وقوة وسلطة في الإمبراطورية الرومانية، ولد في لوغدنوم (الآن ليون، فرنسا) سمي لوسيوس سبتيموس باسيانوس. وفي سن السابعة تم تغيير اسمه إلى ماركوس أوريليوس أنطونيوس أوغسطس لتأكيد الانتماء إلى أسرة

كاتب المرسوم الشهير المسمى باسمه الذي وسّع المواطنة لتشمل سكان الإمبراطورية كلهم؛ هليو غاد (إيل جبل) (218–222)[31] المولود في حمص الذي حول أنطونان أرتو[32] شخصيته ليجعله (فوضويًا متوجًا)؛ إسكندر سيفير (222–235)[33] المولود في عرقا غير بعيد عن المرفأ اللبناني الحالي لطرابلس الذي أطيح به بانقلاب عسكري وضع حدًا لسلالة السيفيروس.

ومن مرحلة الفوضى التي تلت، سينبثق فيليب[34] (العربي في المدونات بعد وفاته). سيحكم الإمبراطور الجديد المولود في جنوب دمشق من عام 244 وإلى 246. وقد أغدق في الحقيقة بسخاء على العاصمة العربية بصرى، وأسس بتكاليف مرتفعة، ليس بعيدًا من هنا، مدينة فيليبوبوليس؛ شهباء الحالية. لا شيء يثبت أن فيليب كان مسيحيًا، على الرغم من أن ديانة يسوع بدأت بإيجاد أتباع في الإمبراطورية. وفي الأحوال كلها، ففي عام 250 بعد انتهاء حكمه تفجّر الاضطهاد المعمم الأول للمسيحيين. وكانوا وقتها يمثلون

ماركوس أوريليوس. اتخذ لقب كاراكلا، نسبة إلى إزاره المميز كالبرنس الذي كان يرتديه وأصبح موضة. (م).

(31) إيل جبل حوالى (-203 222م) أو ماركوس أورليوس أنطونيوس هو إمبراطور روماني من أسرة سيفيروس، وحكم من 218م إلى م222 واسمه عند الولادة كان فاريوس أفيتوس باسينوس. هو سوري من ناحية والدته جوليا سوميا وقد قضى شبابه كاهنًا أعظم لإله الشمس الحمصي إيل جبل، وأبوه روماني هو سكتوس فاريوس مارسيليوس. وقد دعي باسم إيل جبل بعد مدة طويلة من وفاته. (م).

(32) أنطونان أرتو ولد في مرسيليا في 1896 وتوفي في باريس 1948) هو شاعر سريالي وممثل، كما أنه ناقد وكاتب ومخرج مسرحي فرنسي. أسهم في بلورة ما يعرف بمسرح القسوة في كتابة الخاص (المسرح وقرينه) الذي يعد المرجع الأول لتوجهه المسرحي. ويعد أرتو امتدادًا طبيعيًا لاتجاهات رفض الواقعية والتمرد عليها، ولكنه ذهب إلى مدى أبعد من الذي ذهب إليه أصحاب اتجاهات مناهضة الواقعية. لقد التقت أفكار أرتو مع كثير من آراء شعراء العرض المسرحي (كريج وأبيا) ولكنه امتاز عنهما في قدرته على صياغة نظرية قائمة بذاتها، بل تستند إلى أسس فلسفية راسخة وهي ما يطلق نظرية القسوة وقد أثرت في كثير من مخرجي ما بعد الحرب العالمية الثانية. (م).

(33) الإمبراطور ماركوس أوريليوس ساويرس إلكسندر (-208 238)، ويعرف باسم إلكسندر سيفيروس، وهو آخر إمبراطور روماني من سلالة سيبتيموس سيفيروس. خلف إلكسندر سيفيروس قريبه إيل جبل على العرش بعد اغتيال الأخير عام 222م ووالدته من قبل الحرس البريتوري ورمي جثتيهما في نهر التيبر. والد إلكسندر يدعي ماركوس يوليوس غايوس باسيناوس إلكيسناوس وكان حاكمًا إقليميًا لسوريا، ووالدته جوليا أفيتا ماما‌يا الابنة الثانية لجوليا ميزا. (م).

(34) فيليب العربي أو ماركوس يوليوس فيلبس (-204 249) إمبراطور روماني. مسقط رأس فيليب كان في مستوطنة شهبا السورية بالقرب من مدينة بصرى التي تحول اسمها لاحقًا إلى فيليبوبولس نسبة إليه. وهو ابن مواطن روماني يدعى جوليوس مارينوس الذي أعلنه فيليب إلهًا في مدة حكمه. لقب بالعربي نسبة إلى مسقط رأسه في الولاية العربية الرومانية، وليس لكونه عربيًا. تزوج فيليب من مارتيا أوتا سيلا سيفيرا وأنجبت له مولودًا عرف باسم فيليب الثاني. (م).

4 في المئة من سكان روما، ومن دون شك نسبة أقل من سكان الإمبراطورية[35]. احتوت أنطاكية سوريا كما الإسكندرية، أقطاب رئيسة من هذه المسيحية، المهلنسة وفقًا لنماذج الطوائف التي بشّرها بولص.

بيد أن مسيحية أخرى، شرقية بطقوسها وفنها، قد تطورت على طول طرق القوافل. وأكثر مثال روعة وجد في دورا أوروبوس[36]، في حوض الفرات، في الآثار التي تركها غزو الفرس عام 256.

صليب قسطنطين

من بعد الاضطهادات التي مارستها الدولة عام 250-251 ومن ثم 257-260، راعت السلطة الإمبراطورية الكنيسة المسيحية، فنظّمت الكنيسة هيكليتها ومجالسها والسنودس والأسقف. هكذا أدان السنودس حوالى عام 268 أسقف أنطاكية اللامع بولص المسمى (السمياطي). وإذ رفض الأسقف المعزول ترك منصبه وشى خصومه لروما ليس بميوله (اليهودية) فحسب، بل بطريقته الباذخة في العيش أيضًا. كذا حازوا أخيرًا هزيمة بولص. لنتذكر من هذا الجدال الشعور بالطمأنينة الذي ساد هؤلاء وأولئك في إطار الإمبراطورية.

---

(35) Marie –Francoise Baslez, Comment notre monde est devenu chrétien, CDL, Paris, 2008, p.13.

(36) دورا أوروبوس -الصالحية مدينة أثرية سورية تقع في بادية الشام قرب دير الزور. وتضم أول كنيسة منزلية في العالم، ورسومات كنيس يهودي تعد الأجمل. كانت (دورا أوربوس) مدينة بابلية، ولكن مع سقوط بابل عام 538 ق.م بيد الفرس بقيادة كورش تشكلت إمبراطورية فارسية على أنقاض إمبراطورية بابل شاملة الهلال الخصيب، أعيد بناء دورا أوروبوس من قبل السلوقيين عام 300 ق.م وسموها (أوروبوس) نسبة إلى مدينة في مقدونيا تحمل الاسم نفسه، ومن ثم ضمها الرومان إلى دولتهم عام 165م وقاموا بتحصينها، قبل أن يحتلها الساسانيون ويدمروها عام 256م. (م).

كان الاضطهاد الذي أعاده ديوكليتانوس[37] في 303–304 من طراز عنيف جدًا. وحصل في مرحلة مضطربة من نزاعات على الخلافةخرج فيها قسطنطين[38] منتصًرا عام 312، في معركة جسر ميلفيوس على نهر التيبر في شمال روما الكبرى الحالية. وكان يوسابيوس القيصري[39] الذي أصله من هذا المرفأ الفلسطيني وكان أسقفًا فيه منذ مدة قصيرة هو المصدر الرئيس لمعركة عام 213 التي أضفى عليها أبعادًا روحانية: رأى قسطنطين في الحلم ميرون (أي زيت مقدس)[40] (ترافقه رسالة: عبر هذه العلامة ستنتصر)، كذا حازت فرقه ذات الدروع المزينة بهذا الرمز على النصر.

لا يمكن أن ننكر اعتناق قسطنطين المسيحية، على الرغم من أن الإمبراطور لن يحظى بالعمادة إلا على سرير موته. لكن ليس للنصر المؤسس لعام 312 طابع التحول المفاجئ الذي طالما نُسب إليه. سنجرؤ في هذا الصدد على الموازاة مع (طريق دمشق) لبولص الذي لزمه خمسة عشر عامًا من أجل استخلاص نتائج إشراقه. وليس المسار الذي عرفه قسطنطين أقل تدرجًا: مع مرسوم ميلانو للتسامح عام 313، وتقديم يوم الأحد عام 320 بوصفه يوم الرب، وزوال آخر رموز الوثنية عن قطع نقد الإمبراطورية عام 323.

وبعدما أبعد منافسه النهائي من العرش الإمبراطوري، استطاع قسطنطين أن يرعى عام 325 مجمع الدعوة الأول ذا المهمة العالمية. وقد جرى في نيقية، مدينة إزنيق الحالية في

(37) ديوكلتيانوس كان إمبراطور روماني حكم في المدة من 284 إلى 305. سُمِّي على اسمه قصر ديوكلتيانوس في كرواتيا، وحمّامات ديوكلتيانوس في روما. (م).

(38) قسطنطين العظيم يُعرف أيضًا باسم قسطنطين الأول أوالقديس قسطنطين، وفي الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية يُعرف بـالقديس قسطنطين العظيم، مُساوي للرسل. وُلد في 272 وتوفي في 337. كان إمبراطورًا رومانيًا من أصل إيليريوني حكم من 306 إلى 337. أبوه قسطنطيوس كلوروس، ضابط في الجيش الروماني، وزوجته هيلانة. أصبح والده قيصرًا ونائب الإمبراطور في الغرب. في 293، أُرسل قسطنطين شرقًا، حيث أنه تدرج خلال الرتب حتى أصبح المتحدث عن الجيش تحت حكم الإمبراطور ديوكلتيانوس وغاليريوس. في 305، قسطنطين رفع نفسه إلى رتبة أغسطس، الإمبراطور الغربي الأكبر، واستُدعي مجددًا إلى الغرب ليحارب تحت إمرة أبيه في بريطانيا الرومانية. قُلّد إمبراطورًا من جيش إبريكوم (حديثًا يورك) بعد وفاة والده في 306، وخرج منتصرًا من سلسلة من الحروب الأهلية ضد الإمبراطور ليسينيوس ومكسنتيوس لكي يصبح الحاكم الأوحد لكل من المنطقة الشرقية والغربية في 324م. (م).

(39) يوسابيوس القيصري (263—339؟) أصبح أسقف القيصرية في 314. وكثيًرا ما يشار إليه أنه (أبو التاريخ الكنسي) بسبب عمله في تسجيل تاريخ الكنيسة المسيحية في وقت مبكر، ولا سيما وقائع التاريخ الكنسي. (م).

(40) الميرون رمز ذو دلالة طيبة، حيث الـx من الحرف الإغريقي من chi يمحو الـp من الحرف الإغريقي rho أي الأحرف الاولى من لفظ المسيح.

تركيا، وافتتحه بخطاب مدحي ليوسابوس القيصري الذي توطد تقاربه مع الإمبراطور. هذا المجمع المسمى (مسكوني) بسبب واقع طموحه العالمي، اعترف بالسلطات الدينية الثلاث لروما وأنطاكية والإسكندرية. واختتم بإعلان يسوع: ((إله حقيقي من إله ابن إله حقيقي مخلق وليس مخلوق بجوهر والده نفسه)).[41]

رأى قسطنطين أن (سلام الكنيسة) هذا يتوج إنجازه إمبراطورًا مسيحيًا. وكان اكتشاف هيلانة والدة الحاكم عام 326 في القدس للصليب الحقيقي الذي جاء في وقته يعني أنه يستحق التقديس. لكن الجدالات العقائدية المذهبية استمرت بتقويض الكنيسة على الرغم من قرارات نيقية، وعلينا انتظار تيودور عام 391 من أجل منع الوثنية نهائيًا في الإمبراطورية. لن تبقى هذه المسيحية الإمبراطورية موحدة مع ذلك، إلا بضع سنوات: عام 395 قسّم ابنا تيودور الإمبراطورية بين شرقها (في القسطنطينية) وغربها (في ميلانو ثم رافينا).

نزاعات وبدع

قبل مدة وجيزة من تشظي الإمبراطورية المسيحية، كانت الكنيسة تتصف بتعدديتها من ناحية طقوسها وتقويمها، فتاريخ السادس من كانون الثاني/ يناير هو في الشرق عيد الظهور الإلهي تيوفانيا أو إيوفانيا[42]، المرتبطين منذ ذاك بميلاد السيد المسيح. وبالمقابل، تأخذ روما قسطنطين بما يتبناه المسيحيون، أي العيد المكرس للشمس منذ عام 274 الذي ثبّت بالخامس والعشرين من شهر كانون الأوّل/ ديسمبر (يعود إلى البابا ليبيريوس عام 354 هذا التقليد باختيار رسمي لعيد الميلاد - نويل، حتى لو كان ذلك من دون شك، ترسيمًا لممارسة طالما كانت رائجة).

لكن النزاعات حول طبيعة المسيح، هي التي -في أثناء تمزيقها لمسيحية الشرق-

---

(41) (من الجوهر نفسه) أو (من الطبيعة ذاتها) يقال بالإغريقية homoousios في حين أن المنشقين، المستنكرين بوصفهم من أصحاب البدع، يؤكدون أن الابن والأب كانا (من طبيعة متشابهة) (homoiusios). هذا الاختلاف (حول حرف إغريقي) أصبح من وقتها مضرب أمثال.

(42) عيد الغطاس. (م).

عمّقت الحفرة الفاغرة أصلًا بين الإمبراطوريتين، إذ غالبًا ما تم تسفيه المواقف الخاصة بهؤلاء وأولئك في جدالات حادة، حيث يحشد كل طرف مؤيديه. وقد سرّعت المشاركة في لعبة حشود المؤمنين هذه في اتهام المعسكر المضاد بـ (البدع)، الأمر الذي فاقم من البلبلة والضغينة.

هكذا أرغم مجمع أفسس، نسطور[43] بطريرك القسطنطينية عام 431، على القبول بأن مريم هي (والدة الله) وليس مطلقًا والدة المسيح فحسب؛ فسعت السلطة الإمبراطورية ضد نسطور الذي انتهى به الأمر منفيًا في واحة في مصر العليا. وما زال رفض مجمع أفسس يشكّل إلى اليوم أساس الانشقاق (النسطوري) لكنيسة الفرس[44] ونواياها التبشيرية.

وقد سعى مجمع خلقيدونية[45] إلى اقتراح صيغة توافقية، حيث يسوع في الوقت ذاته الرب وبشر (إله وبشر) (في شخص واحد ذي طبيعتين). وبعد لأي تطور رد فعل ميافيزي (أي «ذو طبيعة» واحدة([46] ضد قوة إمبراطورية احتشدت لمصلحة هذه العقيدة الجديدة. أما بالنسبة لكنيسة أرمينيا فقد كانت أرمينيا مملكة مسيحية منذ بداية القرن الرابع، وبذا عنت النزاعات حول العقيدة رفضًا للسلطة البيزنطية.

تمحورت معارضة خلقدونية في المشرق حول سيفروس، بطريرك أنطاكية من عام 512 وحتى 518. سيفروس الكاتب ذو الإنتاج الغزير باللغة الإغريقية، تُرجمت أعماله كاملة إلى اللغة الأرمنية لأن الميافيزية تتغذى أيضًا من عداء لغوي وثقافي للهلنستية

---

(43) نسطورس عاش (386م - 451م) بطريرك القسطنطينة من 428م إلى 431م. (م).

(44) كنيسة المشرق كما عرفت بأسماء عدة مثل كنيسة فارس والكنيسة النسطورية (ويقال لأتباعها نساطرة) هي كنيسة مسيحية وجزء تاريخي من تقليد المسيحية السريانية ضمن المسيحية الشرقية. تستعمل تسمية كنيسة المشرق في وصف تاريخ الكنائس السريانية الشرقية التي ورثت عنها تقليدها الكنسي المميز لها، وتشمل هذه الكنائس حاليًا بحسب هذا التعريف كلًا من كنيسة المشرق الأشورية وكنيسة المشرق القديمة والكنيسة الكلدانية الكاثوليكية في الشرق الأوسط بالإضافة إلى مجموعة من الكنائس في الهند أبرزها كنيسة السريان الملبار الكاثوليك. (م).

(45) مجمع خلقيدونية انعقد سنة 451م ويُعتبر من أهمّ المجامع، إذ نجم عن هذا المجمع انشقاقٌ أدّى إلى ابتعاد الكنائس الشرقيّة: القبطيّة والأرمنيّة والسريانيّة عن الشراكة مع الكنيستين الرومانيّة والبيزنطيّة التين يرون أن مجمع خلقيدونية المجمع المسكوني الرابع. (م).

(46) مصطلح الميافيزية استعمل مطولا، لكن اليوم ينظر إليه باعتباره مبتسرا، إذ إنه يحيل إلى (طبيعة واحدة).

(للهلنسة)؛ فقد بشّر يعقوب البرادعي[47] الذي يعني اسمه بالآرامية (خرق البرادع)، تحت غطاء من الفقر المدقع بالآراء المتشددة في سوريا وما بعدها. وإذ سمي أسقفًا في عام 543، فقد توصل بعد خمسة عشر عامًا إلى إنشاء بطريركية ميافيزية في أنطاكية نفسها.

هذه الكنيسة (اليعقوبية) تسمى كذلك السريانية الأرثوذكسية وهي مستقلة عن روما وكذلك عن القسطنطينية، ويديرها (بطريرك أنطاكية وسائر المشرق)، وقد أنشئت في سوريا منذ عام 1924. حتى لو كان البطريرك يستقبل بطيبة خاطر في كاتدرائية القديس جورج في دمشق الواقعة شمالي الطريق المستقيم فإن المقر البطركي موجود في دير مار إفرام[48] في صيدنايا، البعيد ثلاثين كيلومترًا عن العاصمة السورية.

حول القديس سمعان

تزيد الخلافات الخاصة بالتأريخ المسيحي من أهمية الشخصيات الزاهدة التي يلجأ إليها المؤمنون والزعماء في أوقات الشك هذه. ويسم سمعان[49] عصره بالمزية الصارمة لهذه التجارب التي فرضها على نفسه: منعزلًا ثلاث سنوات في صومعة الرهبانية، ثم مقيدًا خمس سنوات على قمة هضبة قبل أن يخوض تجربة الركائز الأربع التي كانت أعلى فأعلى، وليختار أخيرًا عمودًا بارتفاع سبعة عشر مترًا (من هنا لقبه العمودي) حيث تنسّك ثلاثين عامًا حتى وفاته عام 459.

---

(47) يعقوب البرادعي قديس سرياني مكرم في الكنائس الأرثوذكسية المشرقية، اسمه الحقيقي يعقوب بار (ابن) ثيوفيلوس. سمي البرادعي بسبب لباس الشحاذين المهترئ الذي كان يلبسه (براذع) من أجل إخفاء مكانته عن أعين السلطات في مرحلة اضطهاد المسيحيين الذين رفضوا مجمع خلقيدونية، حيث كان يقوم برحلات سرية في سوريا وبلاد الرافدين. (م).

(48) الملفان مار أفرام السرياني (نصيبين 306م ـ الرها 373م)، وراهب سرياني من رواد كتاب وشعراء المسيحية ويعده بعض المؤرخين واللاهوتيين أعظم من كتب القصيدة والترنيمة الدينية في الشرق المسيحي، ولفصاحة لسانه وبلاغة أدبه وطهارة سيرة حياته لقب بألقاب عدة من مثل قيثارة الروح القدس وشمس السريان، وهو على كل حال أحد آباء ومعلمي الكنيسة الذي تُجمع على قداسته الطوائف المسيحية الرسولية جميعها. (م).

(49) سمعان العامودي (389-459): قديس وناسك سوري سرياني، ولد في قرية سيسان بين سوريا وقيليقية في الربع الأخير من القرن الرابع. عاش في منطقة حلب في سوريا وهو أول من ابتكر طريقة التنسك على عمود حجري، وهي طريقة انتشرت بعده في مدن ومناطق الشمال السوري كافة، ومنها إلى أوروبا. (م).

الحماسة الشعبية حول سمعان العمودي هائلة إلى درجة أنها تحتاج مئات من الحرس الإمبراطوري كي تنتشل من الحشود رفات الناسك (دفن أولًا في أنطاكية، ثم نقل جثمانه إلى القسطنطينية). وأطلقت أعمال من أجل تشييد معبد هائل حول عمود القديس سمعان. والمجمّع المعروف باللغة العربية بقلعة سمعان[50]، لا يقل عن أربع كاتدرائيات تم بناؤها حوالى عام 491.

بيد أن صورة القديس سمعان الطاغية والموقع المكرس له، لن ينسيانا عشرات من مواقع كتلة بيلوس هذه (المسماة أحيانًا ركاكة الكتلة الكلسية). تمتد هذه الهضبة على ارتفاع من ستمئة إلى ألف متر بين وادي العاصي في الجنوب، وهضبة حلب في الشمال. وبدءًا من عام 330 ترافق التوطن فيها ضمن شبكة مكثفة من القرى المرتبطة بزراعة الزيتون مع تنصّر من الأسفل حيث نجد كثافة مهمة للكنائس البيزنطية.

نذكر من بين كثير منها مواقع سرجيلا[51]، بحماماتها المؤرخة بعام 473، أي بعد قرن من إنشاء الكنيسة المحلية؛ بارة ذات التوابيت الهرمية المسيّجة بميرون الزيت المقدس، وكنائسها الخمس المزدانة بازدهار معاصر الزيتون؛ رويحة حيث (كنيسة بيزوس) المحاطة بضريح مانحها الكريم؛ أو مثلًا قلب لوزة التي لا شك أن كاتدرائيتها ألهمت بنّائي قلعة القديس سمعان وهي معروفة اليوم باسمها العربي (قلب لوزة).

تؤلف قرى الكتلة الكلسية شبكة من البلدات الحرة، حيث لا يملك ثلاثة أرباع سكانها بيوتًا من أكثر من ثلاث غرف تؤوي إذًا عائلة صغيرة أو موسعة[52]. على النقيض من ذلك، فإن الأديرة تمتد على مساحة واسعة، وتستغلها فئة مخصصة من الرهبان غالبًا وليس عمال من الخارج. وبدءًا من منتصف القرن الخامس، أدت الزلازل المدمرة والنزاعات المتكررة مع الفرس إلى هجرة جماعية لأغلبية سكان بيلوس التي من

---

(50) دير سمعان أو دير ثلانيسوس هو دير في سوريا بالقرب من مدينة حلب السورية، وقد سمي دير سمعان نسبة إلى القديس والناسك السوري - سمعان العامودي الذي ولد عام 389م ببلدة (سيسان) جنوبي جبل سمعان (جزء من جبل الزاوية) ولجأ إلى دير ثلانيسوس الذي عرف لاحقًا باسم دير وقلعة سمعان وكان ذلك في عام 412م. (م).

(51) القرية السورية الأثرية التاريخية سرجيلا في جبل الزاوية إلى الجنوب الغربي لمدينة إدلب في سورية؛ تبعد عنها مسافة 3 كم، و20 كم عن مدينة أريحا (سورية). تعطي هذه القرية صورة صادقة عن وضع الأرياف في سورية الشمالية في المرحلتين الرومانية والبيزنطية وتدل آثارها على نمط متكامل ذي طبيعة خاصة من الحياة والنشاط البشري. (م).

(52) انظر في هذا الخصوص:

Georges Tate, Les Campagnes de la Syrie du Nord, Presses de l IFPO, Damas, 1992.

الآن فصاعدًا أصبح يشار إليها، ولا سيما من قبل اليونيسكو، تحت المصطلح الجامع (المدن الميتة).

مارون وموسى

لا شك في أن النشاط الرهباني لمارون كان سابقًا لنشاط سمعان العمودي. عاش هذا (الكاهن والناسك)[53] حياة صلاة وتوبة في الهواء الطلق في وادي العاصي. إذ على الضفة اليمنى لهذا النهر بين حماة وأفاميا أنشئ دير للقديس مارون في منتصف القرن الخامس؛ مكانٌ محصنٌ لعقيدة قدّمت بوصفها (أرثوذكسية) باطراد، وقد دفع ثمن ذلك حين تحاربت تلك (الأرثوذكسية) في بلاط بيزنطة نفسها: هكذا قتل مئات الرهبان من قبل (الكفار) في عام 517، ليس بعيدًا من القديس مارون.

الالتباس شائعٌ مع مار مارون على الرغم من أنه التحق بعد قرن بدير القديس مارون، وبعد ذلك غادر وادي العاصي كي يبشّر بعقيدة معادية –في الوقت نفسه– للنسطورية وللميافيزية، أي الاعتقاد بالطبيعة الواحدة للمسيح. مات مار مارون ودفن في شمال لبنان حيث تطورت بعد زمن متأخر –كما سنرى في الفصل الخاص بالحروب الصليبية– كنيسة (مارونية) خالصة. لكن فعلًا، فإنه في سوريا وضع المارونان: القديس مارون ومار مارون، أسس كنيسة مبتكرة كهذه.

ثمة ظلال كثيرة تحيط بالذاكرة المثقلة بسير القديسين لـ (موسى الأثيوبي)، وبالعربية موسى الحبشي[54]؛ إذ تحت هذا الاسم انعزل ناسكٌ أثيوبي في الصحراء، على بعد عشرات الكيلومترات شرقي النبك، المدينة الواقعة في منتصف الطريق بين دمشق وحمص. ووجود صومعة مار موسى مؤكدٌ منذ عام 575، وثمة دير يعود تاريخه إلى القرن الحادي عشر، أبوابه واطئة، من أجل ردع الدخول على الجياد، على غرار أبواب الأديرة القروسطية. لكن

---

(53) هكذا يصفه جان كريسوستوم أحد آباء الكنيسة الإغريقية في رسالة وجهت إليه على الأرجح.

(54) القديس موسى الذي ترك الحبشة وهاجر إلى سوريا، وقد عاش أولًا في دير مار يعقوب التاريخي الشهير بالقرب من بلدة قارة شمالي مدينة النبك ثم أتى وادي الدير وأقام في إحدى المغر متنسكًا، حيث يقوم اليوم دير مار موسى. يمتاز الدير بموقعه المهيب المشرف على وادٍ سحيق وفيه كهوف وآثار. (م).

المكان دخل بعد ذلك في غياهب النسيان، وصار خارج الحج على شرف القديس الشفيع في الثامن والعشرين من شهر آب/ أغسطس.

يصف الدليل الأزرق، سورية وفلسطين، الصادر عام 1932 ديرًا (مهجورًا ومهلهلًا). بعد نصف قرن، وبهذه الحالة سيجده يسوعي إيطالي شاب، باولو دالليلو[55] الذي أهديه وغيره هذا الكتاب. وإذ وُسم كاهنًا وفقًا للطقس الشرقي، فقد تعلّقت هذا الشخصية الكاريزمية المحببة بترميم دير مار موسى، حيث أنشأ الأب باولو عام 1992 مجموعة مختصة للحوار الإسلامي – المسيحي. وحين توفي حافظ الأسد عام 2000، بعد ثلاثين عامًا من الحكم المطلق، وضع (الأب باولو) لافتة سوداء حدادًا، عند مدخل الدير. وذهب رفقة مفتي النبك إلى مراسم دفن الديكتاتور، في منطقة نفوذ آل الأسد، وناشد ابنه بشار، وريث العرش الرئاسي قائلاً: ((لديكم هنا مسلم ومسيحي يريدان مساعدتكم في خدمة سورية، من أجل التجديد والمصالحة))[56].

وكانت الآمال المعقودة على الرئيس الشاب كبيرة في سورية كما في العالم. وقد أتم البابا جان بول الثاني في أيار/ مايو 2001 زيارة استثنائية لدمشق، حيث شجب (العنف الذي يهدم صورة الخالق في مخلوقاته). والقول بأن الرئيس السوري خيّب الأمل لا يكفي، إذ أطلق جوابًا في تهجم لاذع ضد اليهود، ضد الذين (خانوا يسوع وحاولوا قتل النبي محمد) (ادعى بعدها بشار الأسد أنه كان يقصد الإسرائيليين لا اليهود).

بعد ذلك بعشر سنوات ستزلزل التظاهرات السلمية سورية، وستُقمع بقسوة. أعلن الأب باولو عن اختياره مقاومة غير عنفية، قبل أن يدعو إلى (حق الناس في الدفاع عن النفس، والحصول على الأسلحة وكذلك واجب المجتمع الدولي للتدخل لإنقاذهم)[57]. وإذ أصدر نظام الأسد الأمر بترحيله من سورية في حزيران/ يونيو 2012، فقد تسلل عبر إقليم كردستان العراقي إلى مناطق الثوار في شباط/ فبراير 2013 واجتاز شمال البلاد وصولًا إلى إدلب.

(55) بعد أن طاف في أماكن مقدسة في سورية قام المستشرق الإيطالي باولو ديل أوغليو اليسوعي وسمي لاحقًا (الراهب بولص)؛ بزيارة الدير صيف عام 1982، لقضاء بضعة أيام في التأمل في هذا المكان المقدس، لكنه بعد ذلك قرر البقاء فيه وبدأ عملية ترميمه عام 1984. تطوع بعض الشباب للمساعدة في الترميم الذي استمر حتى صيف عام 1991، حيث بدأ الأب بولص بإعادة الحياة الرهبانية إلى المكان بمساعدة الشماس الحلبي يعقوب مراد. (م).

(56) Paolo Dall Oglio, La Rage et la lumière, L Atelier, Paris, 2013, p.49.

(57) المصدر نفسه، ص 111.

بلا هوادة كرّس دالليلو نفسه من أجل تحرير أشخاص مختطفين لدى ميليشيات مختلفة. وضمن هذه الروحية ذهب في تموز/ يوليو 2013 إلى الرقة، حيث أعلنت وقتها (الدولة الإسلامية في العراق والشام) المشار إليها باسمها العربي (داعش). ومنذ ذاك الوقت (اختفى) أثر الأب باولو، وادعى جهادي تائب في عام 2015 التفاوض على شريط فيديو للراهب الإيطالي الأسير، من دون أن يتسنى التأكد من أقواله. والجملة التي يخلص إليها الكتاب الأخير للأب باولو تبقى بذاتها شعارًا: ((من أجيال إلى أجيال، ستصبح سورية مرادفة للقيامة))[58].

آلهة تحولات (الصليب الحقيقي)

ارتقى هرقل[59] عرش القسطنطينية في الوقت نفسه الذي كان فيه الفرس يهاجمون بيزنطة في كل مكان، واستولوا على أنطاكية ثم أفاميا. لم يستطع الإمبراطور المهان منع سقوط حمص بعد سقوط دمشق. وازداد الغزو الدامي للقدس عام 614 سوءًا بنقل ذخائر الصليب الحقيقي نحو عاصمة الفرس التي كانت هيلانة والدة الإمبراطور القسطنطيني من المفترض أنها اكتشفتها عام 326.

كان يجب الانتظار ثمانية أعوام طويلة كي يذهب الإمبراطور هرقل بحملة ضد الفرس، وكان دافع حملة عام 622 هذه حقيقة خسارة الأهرامات المصرية أكثر من الرغبة بمحو إهانة القدس. وتمت مجازاة انتصار البيزنطيين أخيرًا بمعاهدة سلام وُقع عليها في عام 628. ولم تسترد الذخائر المسروقة إلا في عام 630، وأعيدت رسميًا إلى القدس، واحتفي بهذه (العودة) في الرابع عشر من شهر أيلول/ سبتمبر بوصفها عيد (تمجيد الصليب).

---

(58) المصدر نفسه، ص 191.

(59) هرقل، واسمه الكامل فلافيوس أغسطس هرقل (575 - 641)، هو إمبراطورالإمبراطورية البيزنطية، بدأ صعوده إلى السلطة عام 608، قاد ثورة ناجحة ضد الإمبراطور فوقاس الذي تسلّم السلطة بعد خلع الإمبراطور موريس، ودون شعبية تذكر في ظل القلاقل التي عانت منها الإمبراطورية. (م).

بلدة معلولا المحصورة بين خاصرات جبلية، على بعد ستين كيلومترًا من شمال غرب دمشق، هي واحدة من ثلاث أمكنة لهذه الهضبة المرتفعة، حيث تستعمل اللغة الآرامية إلى اليوم (يتحدث السكان الأشوريون في شمال شرق سورية أيضًا الآرامية، لكن بصورة مختلفة إلى حد ما، بما أن اللهجات تفرعت على مر العصور). معلولا مشهورة أيضًا بمواكبها الرائعة وقت عيد الصليب الذي يربط المسيحيين ذوي التقاليد اللاتينية والشرقية في ليل الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر وحتى الرابع عشر.

يُجعل موكبان اثنان على طرفي المدينة، ولا ينسى الموكب تحية الأقلية المسلمة في معلولا، وشكر (رب الإنجيل والقرآن). الصليب مرفوع بتباهٍ على الشرفات وفي زوايا الطرق، بينما تدق الأجراس عشوائيًا. وعند غروب الشمس، يصعد أكثر المؤمنين تصميمًا إلى قمتين تحرسان مداخل المدينة وكل قمة يعلوها صليبٌ من خشب.

يترافق حرق هذين الصليبين مع نار أخرى، بينما تُدحرج الإطارات المشتعلة على طول المنحدر بشرارات قوية. ويستمر الجو الاحتفالي بالرقصات الجماعية وشرب كثير من الكحول. يزعم هذا الطقس أنه صدى لإعلان اكتشاف هيلانة الصليب الحقيقي، ونقل هذا الخبر من هضبة إلى هضبة من القدس وحتى بيزنطة من خلال الصلبان المشتعلة.

ظلت معلولا إلى وقت طويل بمنأى عن الاضطرابات الناتجة منذ 11 آذار/ مارس، وعن القمع العنيف للاحتجاجات على نظام بشار الأسد. لكن الوضع تبدل في نهاية صيف 2013، بعد مدة قصيرة من القصف بالأسلحة الكيماوية لضواحي دمشق الواقعة تحت سيطرة الثوار. طغى الجهاديون من جبهة النصرة –الفرع السوري لتنظيم القاعدة– على أغلبية ثوار الجيش السوري الحر، وشنوا هجومًا على معلولا في أيلول/ سبتمبر 2013.

صارت البلدة المفرغة من سكانها مسرحًا لمعارك عنيفة. من دون شك يجهل الجهاديون الذين دحرجوا إطارات معبئة بالمتفجرات من القمم المحيطة –ليعيثوا دمارًا بصورة أفضل– أنهم يعيدون إنتاج أحد طقوس عيد الصليب. في نيسان/ أبريل 2014، أعلن الجيش الموالي للأسد والميليشيا اللبنانية لحزب الله استعادتهم السيطرة على المدينة. وعاد السكان تدريجيًا إلى منازلهم، ولكن منذ ذاك الوقت صار الاحتفاء بالرابع عشر من أيلول/ سبتمبر مفتقدًا البهجة.

تحمل المدن كلها المذكورة في هذا الفصل ندوب النزاع السوري. مأساة تدمر التي دمّرها داعش من أيار/ مايو 2015 وحتى آذار/ مارس 2016، أثارت عواطف العالم كله،

لكن أفاميا بدورها دفعت أيضًا ثمنًا باهظًا نتيجة النهب والقصف. استعملت القوات الموالية للأسد قلعة بصرى من أجل ضرب التجمعات الثورية، إلى أن استولت على المدينة في آذار/ مارس 2015. وقعت دورا أوروبوس في بدايات صيف 2014 بأيدي داعش التي أولت التنقيب الهمجي عن الآثار إلى عصابات من مهربي الآثار.

وضربت غارة جوية مجمع القديس سمعان في أيار/ مايو 2016، ودانت ذلك اليونيسكو من دون أن تستطيع أن تنسب المسؤولية عن ذلك إلى نظام الأسد أو روسيا. بالمقابل لا يوجد أدنى شك حول مسؤولية موسكو في قصف سرجيلا، في تشرين الأول/ أكتوبر 2015. قبل القصف المدمر، ضاعف جهاديو داعش (المطرودين من المنطقة في كانون الثاني/ يناير 2015) أو النصرة (القوة المهيمنة في المنطقة محليًا بدءًا من ربيع 2015) من الأضرار المباشرة أو الجانبية في (المدن الميتة).

ابتداءًا من العصور الوسطى، ستصبح الميافيزية المتجذرة بعمق في سوريا في القرنين الرابع والخامس، مقتصرةً على ليس أكثر من مكوّن صغير في المسيحية المحلية. وهذه الأخيرة، هي اليوم ومنذ زمن طويل يطغى عليها (الغريك أرثوذكس) المسمون في اللغة العربية بـ(الروم)، لكن ليس تيمنًا بالرومان بل بالبيزنطيين الذين حافظوا على الطقوس.

هذه الكنائس كلها مسماة (الأوتكيفاليك)، لأن رأسًا واحدًا يديرها هو (بطريرك أنطاكية وسائر المشرق). بطريرك الروم يعمل في دمشق منذ عام 1342، لكن مقرّ إقامته الحالي حديث. إذ يحاذي كنيسة مكرسة للعذراء: المريمية، الواقعة فقط بعد أحد القوسين الرومانيين اللذين يظهران إنحناء (الطريق المساة بالمستقيم).

يذكّر تركيز مجمّعات (بطريركية أنطاكية) في هذا الحي من دمشق الذي شهد وعظ بولص، بمركزية سورية في نشر الرسالة المسيحية، والتعريف بعائلاتها المختلفة[60]. أرسلت روما البابا إلى دمشق عام 2001. يرنّ صدى روما القسطنطنية الثانية في طقس القربان المقدس للطقس البيزنطي، أما في ما يخص روما الثالثة التي هي موسكو، فقد قامت بعودة مدوّية عبر دعم غير مشروط لنظام الأسد، ومن ثم، عبر الدخول بحرب مباشرة إلى جانبه في أيلول/ سبتمبر 2015. وقد ضربت هذه الحملة الجوية بعض أجمل مواقع سورية التي تعود إلى ما قبل الإسلام والكنائس البيزنطية لـ (المدن الميتة)، ولم يثر هذا حماسة لدى مؤيدي هذه الحرب الصليبية المعاصرة.

---

(60) توجد اليوم في سورية 11 كنيسة ناشطة؛ أربع أرثوذكسية وسبع كاثوليكية، من دون حساب التسميات البروتستانتية.

3 . إمبراطورية الإسلام الأولى

ولد النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب في مكة حوالى 570، لعائلة مختصة بالتجارة التي تستخدم القوافل. توفي جده لأبيه، هاشم، في غزة خلال إحدى رحلات قوافل الجمال. واحة مكة الواقعة عند مفترق طرق في شبه الجزيرة العربية هي موضع مهم للحج الوثني حول الكعبة[61] و(الحجر الأسود) الموجود فيها مع الأصنام المرتبطة به. ينحدر النبي محمد وعشيرته من القريشيين أي قبيلة قريش المهيمنة في المدينة.

لكن سيكون من الخطأ الاعتقاد أن القريشييين كلهم يتشاركون الثروة المرتبطة بالحج والتجارة. هكذا كان على هاشم أن ينحني أمام أخيه عبد شمس، ويدعه يفرض على القريشيين سلطة ابنه أمية. لهذا السبب فإن محمدًا وعشيرته المسماة (هاشمية) (بالإشارة إلى هاشم) عاشوا حياة أكثر خطورة من أولاد عمهم البعيدين عن النسب الأموي (بالإشارة إلى أمية).

توفي والد محمد في المدينة حيث كان يرافق قافلة، في حين كانت زوجته أمينة حاملًا بابنهما الوحيد. لم يعرف محمد والدته إلا قليلًا جدًا، فقد توفيت بعد ست سنوات من ولادته. وُضع اليتيم الصغير لدى عمه أبي طالب الذي سرعان ما سيرافقه في رحلاته التجارية. هذه الطرق، ما بعد واحة شبه الجزيرة، الممتدة من اليمن وحتى سوريا، أي بلاد الشام (الشام تعني في العربية دمشق وسوريا كلها بالمعنى الأوسع).

ختم النبوة

حين كان محمد بين التاسعة والثانية عشرة من عمره –وفقًا للمصادر– فقد عاش تجربة غير عادية في بصرى، المدينة الواقعة في جنوب سوريا، والغنية جدًا منذ أيام الإمبراطور الروماني فيليب المسمى (العربي). كانت المنطقة وقتها واقعة تحت تأثير التوابع العربية

(61) الكعبة تعني في اللغة العربية المكعب.

لبيزنطة، المنضوية من دون شك تحت بدعة الميافيزية. في الواقع، يقدّم الراهب بحيرى[62] الذي سيلتقيه محمد، دائمًا بوصفه انشقاقيًا، أي إنه إما ميافيزي أو نسطوري. والأمر الجوهري أن هذا اللقاء المؤسس سيتم مع فرد من المسيحية المنشقة بالتأكيد التي يعني اسمها بالآرامية (المصطفى).

ها هنا الوصف الذي يقدمه ابن هشام[63]: ((بحيرى، وكان إليه علم أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها فيما يزعمون، يتوارثونه كابرًا عن كابر. فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى وكانوا كثيرًا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام. فلما نزلوا به قريبًا من صومعته صنع لهم طعامًا كثيرًا))[64]. ترك أبو طالب محمدًا يحرس الجِمال، لكن بحيرى أصّر أن يأتي الولد الصغير إلى مائدته. ولم تفارقه عيناه في أثناء العشاء، قبل أن يعرّضه إلى استجواب حقيقي: ((فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره؛ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده. قال ابن هشام: وكان مثل أثر المحجم))[65]. أعلم بحيرى أبا طالب أن (شأنًا عظيمًا) ينتظر ابن أخيه، وحذره من الـ (يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرًا)[66]، وأمره أن يأخذه أسرع ما يمكن إلى مكة.

من المدهش أن الدفوعات المسيحية والإسلامية تتفق حول حقيقية بشارة بصرى. بالنسبة إلى المسلمين، فإن يسوعًا ومحمدًا هما الاثنان آخر الأنبياء، إذ إن بحيرى يؤكد

(62) الراهب بحيرى كان راهبًا في منطقة بصرى الواقعة في جنوب سوريا، كانت لديه مؤشرات مما عنده من كتب ومأثورات على قرب ظهورِ نبي في الجزيرة العربية، وبحسب رواية الترمذي فإن رسول الإسلام محمد بن عبد الله عندما كان مسافرًا ضمن قافلة تجارية مع عمه أبي طالب وهو في التاسعة أو في الثانية عشرة من عمره وعندما توقفت القافلة في بصرى فإن الراهب بحيرى الذي كان يعيش في صومعة قريبة من مكان توقف القافلة قد شاهد بحسب الترمذي أن ((كل شجرة وصخرة قد ركعت له، وأن ذلك لم يحدث إلا للأنبياء)). (م).

(63) توفي ابن هشام حوالى عام 830، وهو مؤلف أكثر سيرة شعبية إلى اليوم، وهي نفسها مستلهمة من كتابات ابن إسحاق المتوفى حوالى 767.

(64) Ibn Hicham, Mahomet, Fayard, Paris, 2004, p.56.

(65) المصدر نفسه، ص 57.

(66) المصدر نفسه، ص 58.

انتقال النبوة من أحدهما إلى الآخر. على العكس من ذلك، ينسب المجادلون الكاثوليك في أوروبا القرون الوسطى عن طيب خاطر للراهب المنشق أبوة قرآن دنّسه منذ ذلك الوقت المسيح الدجال. ونستطيع دومًا زيارة أطلال كاتدرائية ومسكن يُنسبان لبحيرى في بصرى. ونستخلص أنه في سوريا، رأى محمد نفسه، وكان طفلًا، للمرة الأولى، يعزى له (خاتم النبوة).

أسوأ أعداء الإسلام

بعد لقاء بصرى بثلاثة عقود، بدأ محمد بالتبشير بديانة توحيدية دقيقة على نقيض الطوائف الوثنية التي تشكل رأس مال مكة. وسيبذر هذا الوحي المنسوب إلى الملاك جبريل الاضطراب ومن ثم الغضب لدى القريشيين، وسينتفضون ضد أتباع محمد تحت قيادة الأمويين: ((بدؤوا بالتجسس على المؤمنين، ثم بإساءة معاملتهم. واضطُهد الأضعف منهم، وضُغط عليهم لأنهم لا يستطيعون الاعتماد على حماية أية جماعة))[67].

أما محمد الذي صار منذ وقتها يقدّم نفسه (رسول الله)، فيستطيع خلافًا لأتباعه (الأكثر ضعفًا) التمتع بحماية عمه أبي طالب. وقد تصرّف هذا الأخير على هذا النحو، مستندًا إلى تضامن قَبَلي صلب، إذ رفض حتى وفاته عام 619 أن يتبع دين الإسلام. أضعف موت أبو طالب مكانة محمد بصورة كبيرة في مكة، لدرجة أنه قرر ترك مسقط رأسه كي يلتحق بمؤيديه في المدينة (المدينة المنورة) التي تبعد 400 كيلومترًا شمالًا. هذه (الهجرة) هي الوثيقة التأسيسية في التقويم الإسلامي.

امتد التهديد الذي يمثله محمد للحج إلى مكة الآن إلى الطرق الخاصة التي تستخدمها باتجاه الشمال قوافل الأمويين والجماعات المكية الأخرى. وستندلع، في صالح مناورات معقدة حول قافلة قادمة من سوريا لأبي سفيان، سيد الأمويين، معركة عام 624 في بدر[68]. هُزم المكيون وأمرهم أبو سفيان بكتم آلامهم: ((لو أقمنا الحداد على موتانا

(67) Mahmoud Hussein, Al-Sira, tome 1, Hachette-Pluriel, Paris, 2007, p.348.

(68) محافظة بدر في المملكة العربية السعودية هي إحدى محافظات منطقة المدينة المنورة وهي غنية بكثير من المعالم والشواهد والقيم التاريخية ومن المناطق الزراعية والسياحية، وتحقق على أرضها في غزوة بدر، أول غزوة في الإسلام، وقد حدثت في يوم 17

ويكينا عليهم وندبناهم فإن هذا ينهك غضبنا ويخفف كراهتنا التي يجب أن نحملها لمحمد وأصحابه))[69]. [70]

أخذ المكيون بثأرهم في العام القادم في أُحد[71]. لكن التحالف الذي جمعهم على أبواب المدينة عام 627، فشل في الاستيلاء على المدينة. ظهر علي بن أبي طالب خلال المواجهة عبر مواهبه بوصفه فارسًا. ابن عم محمد، هو أيضًا صهره إذ تزوج ابنته فاطمة، وهو أخيرًا أحد كتَبته المفضلين، سواء أكان ذلك في أثناء الكشوفات الروحانية أم من أجل أعمال أكثر دنيوية. ولم يكن علي أقل احترامًا في المدينة، سواء أكان لدى الأنصار، المدينيين الذين استقبلوا محمدًا أم لدى المهاجرين الذين تركوا مكة معه.

استخلص أبو سفيان نتائج فشله أمام المدينة (المنورة)، عبر هدنة عقدها مع محمد عام 628. بيد أنه لم يتوصل إلى صدّ موجة الحشود في المدينة، بما فيها أنصاره، مع ارتداد خالد بن الوليد قائد فرسان مكة. وفي عام 630، وضع أبو سفيان نفسه تحت حماية عبّاس أحد أعمام النبي، كي يحاول الحصول على تجديد للهدنة من محمد، لكن رسول الله بقي صعب المراس.

تنازل أبو سفيان أمام خصم رائع مثل هذا، وفتح تحوّل موقفه أمام محمد أبواب مكة من دون قتال. إنه الفتح الذي سيغدو مذ ذاك مرادفًا للنصر وللغزو. حطم النبي الأصنام

رمضان 2 هـ الموافق 17 آذار/ مارس 624 م، وانتصر فيها المسلمون انتصارًا كبيرًا وحاسمًا. ويوجد في البلدة منطقة مخصصة لمقابر الشهداء في تلك الغزوة وأغلب سكانها اليوم قبيلة صبح وقد كانت زمن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم من ديار بني غفار بن مليل بن ضمرة من قبيلة كنانة. (م).

(69) Mahmoud Hussein, Al-Sira, tome 2, Hachette-Pluriel, Paris, 2007, p.171.

(70) ترجمة بتصرف لأن مرجع محمود حسين (السيرة) باللغة الفرنسية مستقى من مصادر عدة، ومحمود حسين ليس كاتبًا بل هو الاسم المستعار للمؤلفين والمترجمين المصريين بهجت النادي وعادل رفعت. الجزء الثاني، ص 171. (النسخة الفرنسية) وربما جاءت الترجمة الفرنسية عن هذا الأصل الوارد في سيرة ابن هشام: ((لا تفعلوا يبلغ محمدًا وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنسوا بهم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء)). (م).

(71) غزوة أُحُد هي معركة وقعت بين المسلمين وقبيلة قريش في يوم السبت السابع من شهر شوال في العام الثالث للهجرة. وكان جيش المسلمين بقيادة رسول الإسلام محمد، أما قبيلة قريش فكانت بقيادة أبي سفيان بن حرب. وغزوة أحد هي ثاني غزوة كبيرة يخوضها المسلمون، حيث حصلت بعد عام واحد من غزوة بدر. وسميت الغزوة بهذا الاسم نسبة إلى جبل أحد بالقرب من المدينة المنورة الذي وقعت الغزوة في أحد السفوح الجنوبية له. (م).

المحيطة بالكعبة واحدًا تلو الآخر، وعفا عن أبي سفيان المتوسل[72]. ودخل الأمويون، تابعين قائدهم، أفواجًا في الإسلام. وفي أثناء اقتسام غنائم المعارك اللاحقة، راح محمد (يكافئ مسلمي مكة الذين كان إيمانهم أكثر ترددًا)[73].

استفاد من هذا الكرم الانتقائي بالدرجة الأولى أبو سفيان وولداه يزيد ومعاوية، مما أثار انزعاجًا لدى أوائل الذين اعتنقوا الإسلام، ولا سيما المدنيين (من المدينة المنورة). لكن حسابًا مماثلًا أتاح لمحمد القضاء على عبادة الأصنام في مكة، ومن ثم إرسال أبي سفيان لمحاربة المشركين في الطائف. صار الأمويون الذين كانوا بالأمس أشد أعداء الإسلام أحد أعمدته. لم يخشَ أبو سفيان من التباهي بعد ذلك أمام محمد: ((في الحقيقة فإنه عندما توقفت عن قتالك، توقفت العرب بدورها))[74].

سيف الله

جمع محمد في عام 630 قوة ذات حجم غير مسبوق، وقاد حملته الأخيرة حتى تبوك على بعد 600 كيلومتر شمالي المدينة، وعبّر بوضوح عن إرادته في بسط رسالته أبعد من شبه الجزيرة العربية. وفي العام نفسه كان الإمبراطور البيزنطي هرقل، يعيد بتباهٍ (الصليب الحقيقي) إلى القدس. لكن الحروب ضد الفرس أنهكت القسطنطينية، وكظم المسيحيون الموصومون بـ (أصحاب البدع) غيظهم، مع أنهم من دون شك أغلبية سكان سوريا.

ترك الغياب القاسي لمحمد المسلمين في حالة ذهول، واجتمع الأعيان من أجل اختيار (خليفة) على الطريقة القبلية، والمعنى الحرفي للخليفة يقابله بالفرنسية (كاليف). لذلك لا يوجد بعد ديني صرف في (البيعة) التي صارت إلى أبي بكر؛ حمو النبي. ومن ناحية أخرى، فإن رفض عليّ قسم الولاء عنى إنكارًا سياسيًا: فقد كان علي يفضل خلافةً من النوع العائلي على القرار الجماعي، إذ لطالما كان مقتنعًا أنه أحق بها في غياب أي وريث ذكر لمحمد.

---

(72) المصدر نفسه: السيرة، ص 549.

(73) المصدر نفسه، السيرة، ص 588.

(74) المصدر نفسه، السيرة، ص 667.

لم يبق أبو بكر خليفةً إلا لسنتين، وسحق خلالهما محاولات تمرد القبائل العربية التي تنكرت للإسلام بعد وفاة النبي. وكان خالد بن الوليد هو الذي قاد (حروب الردة) تلك؛ عديمة الرحمة، فاستحق لقبه (سيف الله المسلول). لكن أبا بكر تابع مشروعه للاختراق صوب الشمال بوحي من محمد. وبعد سلسلة من الغارات المظفرة غالبًا ألحق هزيمة قاسية بالبيزنطيين عام 634 في أجنادين[75] في وسط فلسطين.

وكان خيرة الأمويين: يزيد ومعاوية، ابنا أبي سفيان، يقودان جيش المسلمين. ورأى هرقل أنه من الحكمة ترك حمص والانسحاب إلى أنطاكية. استدعي خالد بن الوليد من العراق كي يشارك في الحملة على سوريا فاستولى على تدمر ثم البصرة. والتقت الفرق الإسلامية المختلفة في مرج الصفر على أبواب دمشق، حيث حازوا نصرًا جديدًا على البيزنطيين. يصور المؤرخ الكلاسيكي البلاذري[76] دخول خالد بن الوليد إلى دمشق عند الفجر، بعدما ضمن أمان (الحياة والأملاك والكنائس)[77].

توفي أبو بكر بعدها بوقت قصير، وخلفه عمر بن الخطاب أحد (المهاجرين) الذين رافقوا النبي من مكة إلى المدينة عام 622. انتقل عمر بصورة شرعية إلى الأجيال القادمة بوصفه (خليفة الجهاد)، لأن الحملات التي ألهم بها كانت لامعة. في حين كانت علاقته متوترة مع خالد بن الوليد، إلى حد أنه نحّاه عن القيادة في خضم المعارك مع البيزنطيين في حوض اليرموك عام 636، فانتقل فضل هذا النصر الساطع، جزئيًا من (سيف الله المسلول)، كي يحط لدى أبي عبيدة بن الجراح[78]، القائد الميداني الجديد، ويحط لدى يزيد بن أبي سفيان الذي كان على رأس الجناح الأيسر لجيش المسلمين.

استطاع البيزنطيون استعادة السيطرة على دمشق، لكن أبا عبيدة وبمساعدة خالد بن الوليد استولى عليها بصورة نهائية. وفوّض حكم دمشق ليزيد كي يتمكن بصورة أفضل من إرسال خالد بن الوليد في فتوحات جديدة. تلقى أبو عبيدة بعدها استسلام

(75) أجنادين قرب مدينة الرملة في فلسطين. (م).

(76) أحمد بن يحيى البلاذري، توفي عام 892 في بغداد، كتب (فتوح البلدان) المنتظم حول المناطق الجغرافية للفتح أيام الخلفاء الأوائل.

(77) Baladhuri, The Origins of the Islamic State, Columbia University, New York, 1916, tome 1, p.187.

(78) أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري القرشي (40 ق. هـ/584م - 18هـ/639م) صحابي وقائد مسلم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، لقَّبَهُ النّبيُّ محمدٌ بأمين الأمة. (م).

حمص، حيث ضمن (أمان الحياة، والأملاك وجدران المدينة والكنائس والآبار)[79]. ومن ناحية أخرى، ذبح خالد بن الوليد المدافعين عن قنسرين[80]، نظرًا إلى أنهم رفضوا الاستسلام. وأمر (سيف الله المسلول) بمحو المدينة التي لم يبقَ منها أثر كبير، وتقع حوالى 30 كيلومتر جنوبي غربي حلب.

يبقى أهم إنجاز قتالي لخالد بن الوليد، رد فعله الجريء حيال الهجوم المضاد للبيزنطيين على حمص الذين هزمهم، وبهذا أنقذ أبو عبيدة المحاصر في المدينة. لكن الخليفة عمر قرر معاقبة قائده اللامع، وسحبه مرة وإلى الأبد من الجبهات كلها. يذكر مؤرخ القرون الوسطى الطبري[81] هذا التعليق المنسوب إلى (خليفة الجهاد): ((إني لم أعزل خالدًا من سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فُتنوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع))[82].

ربما أراد عمر من خلال ضربه خالد المميز أن يذكّر قادة الحروب كلهم بتفوق المدينة عندما كانت بلاد فارس ومصر، بعد سوريا، في طريقهما لتصبحا هما أيضًا فتحًا أمام الإسلام. أثمر الدرس، لكنه لم يقلل من احترام (الثائرين) للجهاد لخالد بن الوليد. وسيكون عددهم كبيرًا للاستقرار في حمص حول الضريح الذي يحوي بقايا (سيف الله). أنشأت السلطة العثمانية في بداية القرن المنصرم (مسجد خالد بن الوليد) الفخم، ودمّر القصف الحكومي في تموز/ يوليو 2013، الضريح في إطار استعادة نظام الأسد (عاصمة الثورة) التي تمت بعد عام.

---

(79) المصدر نفسه، ص 201.

(80) قنسرين موقع أثري سوري في هضبة حلب الجنوبية عبارة عن مدينة أثرية، يبعد الموقع حوالى 40 كم عن مدينة حلب، وتاريخيًا كانت قنسرين ذات أهمية كبيرة بالنسبة للكنيسة السريانية الأرثوذكسية فكانت تحتوي على مدرسة لاهوتية ضاهت مدرستي الرها ونصيبين. كما أصبحت بعد الفتوحات الإسلامية موقعًا عسكريًا مهمًا في هذه المنطقة من سوريا. (م).

(81) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (839-923) هو مؤلف الكتاب الهائل (تاريخ الرسل والملوك) الذي انتهى منه عام 862، ويمثل إلى جانب البلاذري أحد المصادر الرئيسة للفتح الإسلامي.

(82) Tabari, les Quatres Premiers Califes, Sindbad, Paris, 1980, p.179.

محور دمشق – المدينة

كان الخليفة عمر حريصًا على الذهاب إلى سوريا كي يؤكد سلطته الشخصية فيها. وكان عليه إرجاء تلك الحملة مرتين بسبب جائحة الطاعون التي ضربت البلد. أودى الطاعون بحياة أبي عبيدة وبحياة يزيد الابن البكر لأبي سفيان كذلك، الأمر الذي ترك حكم سوريا بين يدي أخيه معاوية. انتقل عمر أخيرًا إلى دمشق حوالى عام 640، وعلى الرغم من عدائه لأبي سفيان والأمويين إلا أنه أكد تفويض السلطة لمعاوية على عموم سوريا.

قتل عبدٌ حاقدٌ عمر في المدينة عام 644. عثمان الذي جاء خليفةً بعده هو ابن عفان ابن عم أبي سفيان. هكذا استلم الأمويون قيادة الإسلام العليا لمدة 15 عامًا على الأقل، بل إنهم حصلوا على تأييد علي للخليفة الجديد. لم يعد ثمة شيء يحول من وقتها دون تحويل سوريا إلى إقطاعة للعشيرة المهيمنة. أطلق معاوية حوالى عام 648 حملة مدمرة باتجاه جزيرة قبرص حيث أرغم السلطات البيزنطية على دفع الجزية له.

وبذلك، استطاع محور دمشق– المدينة أن ينظّم أراضي الإسلام. وجدتْ أبهة بلاط معاوية نفسها أكثر فأكثر في محيط الخليفة، بينما لم تتطور حاميات المدن المنشأة في العراق (في الكوفة والبصرة) وفي مصر (في الفسطاط غير بعيد من القاهرة اليوم). تعمقت الهوة بين معاقل المجاهدين الثلاثة هذه من جهة، وبين العاصمتين الأمويتين من جهة أخرى، إلى حد أن الخليفة كان يسمي بصورة منهجية أفرادًا من أقربائه في قيادات الولايات.

دوّت الثورة، إلى درجة أن معاوية ذهب إلى المدينة، وفقًا للطبري، كي يعطي توجيهات لعثمان: ((يا أمير المؤمنين، انطلق معي إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به، فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا))[83]. لكن الخليفة رفض أن يهجر (قبر الرسول وبيت الهجرة)[84]. أمرٌ سيء له، إذ ما إن غادر معاوية حتى احتشد متمردون قادمون من مصر والعراق واتجهوا إلى المدينة. حوصرت الواحة، وذُبح الخليفة. نحن في عام 656، حيث انفتح أمام المسلمين عصر الفتنة.

---

(83) Tabari, ibid p. 304.

(84) المصدر السابق.

علي ضدّ معاوية

طبعت الجريمة المدنسة بالدم مقام الخليفة، وتردّد علي الذي كان لوقت طويل مرشحًا لخلافة النبي، إذ هو صهره وابن عمه، لأسبوع طويل قبل أن يعلن نفسه (أميرًا للمؤمنين). نتيجة مماطلات كهذه، قوّض الأساس السياسي الذي كان ممكنًا أن يكسب تدعيمه مبكرًا في هذا الوضع السريع التقلب. وفي الواقع، فقد دُمغت السنون الخمس لعلي خليفةً بالحرب الأهلية.

ومن ناحية أخرى، اصطف الأمويون صفًا منيعًا خلف معاوية الذي ترك عليًا يتعثر بحروب أهلية في العراق ضد مؤيدي عائشة؛ زوجة محمد الأثيرة. ثم رمى حاكم دمشق بذور الشقاق بين علي وحلفائه من مصر، موحيًا أنه عقد تفاهمًا سريًا معهم، ولا سيما أن معاوية تشبّث بمطلب العقاب المطلق لقاتلي عثمان، وحشد (بلاد الشام) لمشروع الانتقام هذا.

ويورد الطبري رسالة على صورة إنذار أخير من معاوية لعلي: ((ورائي أني تركت قومًا لا يرضون إلا بالقود، قال: ممن؟ قال: من خيط نفسك، وتركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم، قد ألبسوه منبر دمشق. فقال: منّي يطلبون دم عثمان! ألست موتورًا كترة عثمان! اللهمّ إني أبرأ إليك من دم عثمان؛ نجا والله قتلة عثمان إلّا أن يشاء الله، فإنّه إذا أراد أمرًا أصابه؛ اخرج؛ قال: وأنا آمن؟ قال: وأنت آمن))[85].

جاء معاوية كي يهيّج بقوة الأمويين وأتباعهم كل يوم جمعة في المسجد الكبير بدمشق. وفضلًا عن الذخيرة الحمراء[86] العائدة إلى الخليفة المتوفى، كان يحرك أمام الجموع كفّ زوجة عثمان الممزقة (يقول الطبري إن هذه اليد قطعت نصفين ولم يبق إلا أربع أصابع[87])[88]. وفي حين كان والده أبو سفيان ما زال مشركًا يوصي بتنظيم الحداد من أجل استيعاب الكراهية الثأرية، فإن معاوية كان يراهن على تعذيب غير مسبوق إلى الآن من أجل أن يغذي حملته ضد علي.

(85) Tabari, p.342.

(86) المقصود بها قميص عثمان. (م).

(87) ورد في تاريخ الطبري بالعربية: ((أصابع نائلة زوجته مقطوعة بالبراجم؛ إصبعان منها وشيء من الكفّ، وإصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام)). (م).

(88) المصدر نفسه، ص 373.

ففي سوريا على الضفة اليمنى لنهر الفرات في صفين غير بعيد من الرقة، سيتواجه جيشا معاوية وعلي في بداية صيف 657. امتدت المعركة أسابيع طويلة، قبل أن تعلّق خلال شهر محرّم؛ الشهر الأول في العام وفقًا للتقويم الإسلامي. وتبعت هذه الهدنة مشاجرة عامة وقاتلة مدة 3 أيام، وكان كل طرف يلقي على الآخر مسؤولية هذه المجزرة.

راهن معاوية الداهية على ضجر مقاتليه، فرفع أوراق القرآن على رأس رماح فرسانه. يصفه الطبري وهو يخطب في أعدائه بشغف: ((من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام! ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق! فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت، قالوا: نجيب إلى كتاب الله عز وجل وننيب إليه))[89].

أصابت الكلمات هدفها لدى الطرف الخصم، وتضاءل علي ليكون حاكم العراق فحسب، لا الخليفة، وبصعوبة أوقف الانشقاق. واتفق الطرفان على تحكيم يحدث خلال الشهور القادمة، من خلال دراسة معمقة ومعارضة للنص المنزل.

ومن خلال مناورات مماطلة متلكئة، قلب معاوية ميزان القوى الذي كان قد بدأ لا يميل لصالحه. لكن الأمر الجوهري، أنه أجبر عليًا على القبول بأن مبدأ خلافته يمكن أن يكون موضع شك. كان هذا الفشل لا يطاق بالنسبة لأكثر مؤيدي علي تصلبًا. وإذ سُموا الخوارج، أي حرفيًا الخارجين، فقد اتهموا بَطَلهم بأنه باعهم تفويضًا مقدسًا لم تكن ملكيته تعود له شخصيًا.

ظهر معاوية كالمنتصر الحقيقي للَيْ الأذرعة في صفين، وامتد التحكيم أكثر من عام من المناقشات الطويلة؛ أولًا في وسط الجزيرة ومن ثم في جنوب الأردن حاليًا. وأوّل معاوية منها بصورة طبيعية النتائج لصالحه، ودعا إلى اجتماع عام 660 في القدس لمجلس بايعه خليفة. في هذه الأثناء، أُنهك علي في العراق بقمع احتجاج الخوارج، وسحق الانشقاق حتى النهاية سحقًا داميًا، لكن الناجين من المذبحة أقسموا على الاقتصاص من علي (في الكوفة) كما من معاوية (في دمشق).

اختار المقتصون الذين نصبّوا أنفسهم لذلك، الانتقال إلى الفعل مع خنجر مسموم، خلال صلاة الجمعة 17 من شهر رمضان عام 661. ((معاوية الذي انحنى للسجود

---

(89) المصدر نفسه، ص 382.

أصيب في منطقة الكلى ليس إلا واخترق السيف اللحم والعظم))[90]. سمع قائد الأمويين الأطباء يقترحون عليه البديل بين كي الجرح بالحديد الحامي، والقبول بترياق قاتل لـ (انقطاع الولد)[91]. وإذ كان أبًا لوريثين ذكرين يزيد وعبد الله، اختار معاوية انقطاع الولد، لكنه لن يصل في دمشق إلا محميًا من الناس بحاجز أمان.

من ناحية أخرى، وقع علي تحت ضربات المتآمرين المصريين الذين أسهموا في قتل عثمان. بقي رابع خلفاء الإسلام يحتضر مدة 3 أيام قبل أن ينال السم منه. وامتنع عن تعيين ابنه البكر الحسن خليفةً من بعده. ورفض الحسن العفو عن قاتل أبيه الذي التزم مع ذلك بقتل معاوية في دمشق ثم العودة إلى الكوفة ما إن يتم القتل. هلك قاتل علي حرقًا، ووضع هذا العذاب حدًا لخمسة أعوام من الفتنة، خرج منها الأمويون منتصرين.

وما إن تم التخلّص من علي، حتى أرسل معاوية مبعوثين إلى الحسن كي يفاوضه على الولاء مقابل هبة مالية كريمة. قبل حفيد محمد، باسمه وباسم أبناء علي كلهم، الاعتراف بسيد دمشق خليفة شرعيًا. واجه الحسن بعض الصعوبات لممانعة أخيه الأصغر الحسين الذي ما لبث أن استسلم. وتمت مجازاة هذا الولاء بمكافأة سيئة، فقد -وفقًا للطبري- سمم معاوية الحسن في المدينة قبل أن يأمر بتصفية قاتله.

يسم انتصار الأمويين خروج الإسلام من الجزيرة العربية؛ جيلٌ بعد غياب النبي الذي بشّر باللغة العربية بهذا الدين الجديد لسكان شبه الجزيرة العربية، فإن الانقلاب مذهل، ولا سيما أن بلاد الشام القلب النابض لهذه الامبراطورية التوسعية تبقى مسيحية في أغلبها. استقر الأسياد الجدد في المراكز بل في دور علية القومِ البيزنطيين الذين اعتمدوا بكل سرور فن العيش الخاص بهم.

في سوريا، تمدّن الإسلام في الحواضر التي كانت موجودة منذ عصور، بينما لزمه وقت طويل قبل أن يتأسس في بغداد أو القاهرة. المسجد الكبير في دمشق حيث رُفع قميص الخليفة عثمان المضرج بالدم، يجاور الكنيسة المهداة لرأس يوحنا المعمدان المقطوع. وبما أن

---

(90) الترجمة عن الفرنسية وليس كما وردت في المصدر، ففي تاريخ الطبري نجد: ((فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بسيفه، فوقع السيف في أليته)). (م).

(91) ورد لدى الطبري في النص العربي: ((اختر إحدى خصلتين: إما أن أحمي حديدةً فأضعها موضع السيف، وإما أن أسقيك شربةً تقطع منك الولد، وتبرأ منها، فإن ضربتك مسمومة، فقال معاوية: أما النار فلا صبر لي عليها، وأما انقطاع الولد فإن في يزيد وعبد الله ما تقر به عيني. فسقاه تلك الشربة فبرأ، ولم يولد له بعدها)). (م).

القديس موقرٌ في الإسلام، ومعروف بالنبي يحيى، فإن المسلمين تقاسموا لعقود المكان المقدس مع المسيحيين. ولا يجب جعل هذا التعايش مثاليًا، ولكن اختزال أهميته أيضًا هو أمر خاطئ.

بايع معاوية في عام 678، وفي أثناء حياته، ابنه البكر يزيد. وأتم بذلك البناء الأموي، عبر تثبيته في مدة التوريث. إلا أن المفارقة أن هذا التكريس السلالي الذي رُفض أن يمنح للمنحدرين من النبي في دم الفتنة، عاد إلى سلالة الأمويين الذين طالما حاربوا الإسلام. جرت أحداث انقلاب تاريخي كهذا في سوريا. إنه اختبار قاس لكيمياء غير محتملة، ولم يكن دهاء معاوية إلا عنصرها الأقصى.

4. أرض قيام الساعة

ترك معاوية عشية وفاته عام 680 لوريثه يزيد توصياته المكتوبة: ((يا بني، إني قد كفيتك الرحلة والترحال، ووطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب، وجمعت لك من جمع واحد، وإني لا أتخوف أن ينازعك هذا الأمر الذي استتب لك إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر؛ فأما عبد الله بن عمر فرجلٌ قد وقذته العبادة، وإذا لم يبق أحدٌ غيره بايعك، وأما الحسين بن علي فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه، فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فإن له رحمًا ماسة وحقًا عظيمًا؛ وأما ابن أبي بكر فرجل إن رأى أصحابه صنعوا شيئًا صنع مثلهم، ليس له همة إلا في النساء واللهو، وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد، ويراوغك مراوغة الثعلب، فإذا أمكنته فرصةٌ وثب، فذاك ابن الزبير، فإن هو فعلها بك فقدرت عليه فقطعه إربًا إربًا)).[92] أمر معاوية ابنه أن يرشو الأول وأن يعزل الثاني وأن يراعي الثالث، لكنه أصر على المعاملة الخاصة للرابع، الحسين بن علي الذي صار من وقتها على رأس سلالة النبي: ((ادعه ليعترف بك فإن رفض انتبه. وإن أصرّ أعطه كل ما يريد، وعامله بحسن نية. إذ إننا سلبنا عائلته بالعنف[93]))[94].

وبعد ثلاثة عشر قرنًا سيبني حافظ الأسد بأناة مشروعًا سلاليًا آخر، تحت راية حزب (البعث العربي الاشتراكي)[95] على رأس السلطة في دمشق بعد انقلاب عام 1963، وستهمش أولًا الإدارة المدنية للحزب، لصالح حفنة من الضباط المتلاحمة لسنوات بالمؤامرات؛ فالمقدم الذي رقي لرتبة لواء ومن ثم وزيرًا للدفاع أبعد واحدًا تلو الآخر

(92) Tabari, Les Omayades, L âge d or des Abbassides, Sindbad, Paris, 1989, p.28.

(93) ترجمة عن الفرنسية بتصرف، فقد وردت نسخة ثانية لوصية معاوية لابنه يزيد فيها: ((وأما الحسين بن علي فإنه رجل خفيف، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه، وخذل أخاه، وإن له رحمًا ماسة، وحقًا عظيمًا، وقرابةً من محمد، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو أني صاحبه عفوت عنه)). (م).

(94) المصدر نفسه، ص 29.

(95) تعني كلمة (البعث) باللغة العربية (الانبعاث). مجّد هذا الحزب العروبة والاشتراكية مبكرًا، وقد تأسس في دمشق عام 1947.

زملاءه المتآمرين، وستكون الرئاسة التي مارسها من عام 1970 وحتى عام 2000، عديمة الرحمة على غرار الخليفة معاوية، وسيرى الأسد في الخلافة الوراثية الوسيلة لتجنب فتنة الانقلابات. كذلك، فقد هيأ ابنه بشار هكذا ليحل مكانه على رأس (الجمهورية العربية السورية)، وعلى رأس الحزب والجيش.

صارت دمشق مخبراً لـ (جمهورية وراثية)[96]، غير واردة تقريبًا في دليل (الاشتراكية العربية) على غرار ما كان الأمر بالنسبة لسلالة الأمويين أيام النبي محمد.

وكان شهرٌ كافيًا بعد وفاة حافظ من أجل وضع دستور على مقاس بشار الأسد، وأن يقرّ المؤتمر الاستثنائي للبعث بصلاحية رئاسته الذي تبعه استفتاء بالإجماع. لن يعرف أحد في ما لو ترك الأسد الأب لخَلَفه تعليمات مكتوبة. هذه الخلافة الوراثية، هي في الأحوال كلها أقل اضطرابًا من خلافة معاوية.

عذاب مؤسس

أكد الحسين عند موت معاوية، وكما خشي هذا الأخير، رفضه مبايعة الخليفة يزيد. فحشد عند مكة (حزب) (شيعة) علي، من هنا جاءت تسمية (الشيعة) الخاصة بأتباعه. بقيت بلاد الشام التي لم يكن عليها إلا أن تهنئ نفسها بالحكم الأموي، صماء أمام نداءات الحسين. ومن جهة أخرى، بدت الكوفة قاعدة مواتية لتنظيم خلافة بديلة، لكن الحسين اكتشف عند وصوله إلى العراق أنه كان متوهمًا في ما يتعلق بعمق الالتزام (الشيعي).

طوّقت القوات التي أرسلها الخليفةُ الحسينَ وعشرات من المقربين له في الصحراء العراقية، في موضع يدعى كربلاء. كان الحر رهيبًا ودفع الظمأ الثوار إلى الانخراط في معركة خاسرة سلفًا. وحضر الحسين عاجزًا تقطيعَ جسد[97] ابنه البكر علي، قبل أن يقع هو نفسه تحت ضربات سيوف أعدائه الهائجين. وقُطع رأسه ليقدم إلى يزيد في دمشق، حيث تفاخر جلادوه بترك أشلاء المتمردين من دون دفنها: ((ستشويها أشعة الشمس،

---

(96) المصطلح العربي (جملكية) مؤلف من مقطعين (جمهو) العائد لكلمة جمهورية، و(لكية) العائد لملكية.

(97) Tabari, Les Omayyades, p.45.

وستذروها الرياح، وستزورها العقاب والصقور[98]))[99].

ونقلت الغنيمة الجنائزية إلى عاصمة الامبراطورية عبر حوض الفرات وحلب، من أجل الاحتفاء بموت الحسين في سوريا كلها، ثم عُرضت في مسجد دمشق الكبير في مكان مهمل مقارنة مع مكان رأس يحيى/ يوحنا المعمدان، الأكثر توقيرًا، وعلى العكس منه فهي محجوبة عن نظر المؤمنين المسلمين والمسيحيين. ولم تُترك أخت الحسين زينب[100] ولا ابنتاها رقية[101] وسكينة[102] 4 و11 عامًا، على قيد الحياة خلال المذبحة إلا من أجل أخذهن أسيرات إلى دمشق.

كان ممكنًا سحق انشقاق الحسين منذ الشهور الأولى للخليفة الجديد، لكن مأساة كربلاء والإهانة بعد الموت في دمشق، ستشكلان المظلومية الشيعية بطريقة لا عودة عنها، وستُلصق بيزيد الرذائل كلها؛ يزيد الذي لم يستمر حكمه إلا ثلاث سنوات، وهي مدة قليلة الأهمية في التاريخ من جهة أخرى. على الرغم من الفتنة بين علي ومعاوية، فقد عمّق استشهاد الحسين الهوة بين حِداد الشيعة الغاضب ومجد الأمويين الوقح.

بذلك شهدت سورية على مر العصور، تطور الحج الشيعي الذي نادرًا ما كانت شعبيته مرتبطة بالواقع المتجسد لموضوع العبادة: في دمشق، باحة داخلية في المسجد الكبير، ترتبط برأس الحسين، وكذلك بالضريح القريب جدًا لرُقية، وقبر سكينة وغيرهن من قريبات الحسين في مقبرة الباب الصغير؛ المسجد المقام حول ضريح زينب الذي

(98) ترجمة عن الفرنسية بتصرف لأنها غير موجودة بهذه الصيغة في النسخة العربية من تاريخ الطبري. (م).

(99) المصدر نفسه، ص 50.

(100) زينب بنت علي بن أبي طالب (6 ق.هـ المدينة المنورة- 62 هـ دمشق) ثالث أبناء فاطمة الزهراء بنت النبي محمد وعلي بن أبي طالب الخليفة الرابع من الخلفاء الراشدين عند المذهب السُنّي والإمام الأول من الأئمة الاثني عشر عند المذهب الشيعي، و لهذا تُعتبر إحدى الشخصيات المهمة عند المسلمين. كما لزينب قدسية خاصة عند الشيعة، بسبب دورها في معركة كربلاء التي قتل فيها أخوها الحسين بن علي بن أبي طالب، وعدد من أهل بيته. ويعتقد الشيعة بعصمتها بالعصمة الصغرى. (م).

(101) هي رقية بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (57 هـ - 61 هـ) من زوجته أم إسحق، وحفيدة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، استشهدت وهي في الخامسة من العمر في دمشق. (م).

(102) سكينة بنت الحسين بن علي (شهيد كربلاء)، حفيدة علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء. شهدت واقعة الطف وروت أحداثها، وكانت من جملة النساء اللاتي أخذن سبايا إلى عبيد الله بن زياد في الكوفة، ومن بعدها إلى يزيد بن معاوية في الشام؛ وذلك بعد مقتل الحسين وأهل بيته. هي أشهر النساء اللواتي قاومن الحجاب، وتعد الشخصية النسوية الأولى في المجتمع الحجازي. وقد شهدت على مذبحة والدها في كربلاء ثم تمردت على كل مستبد، ووقفت ضد كل من ينتهك حريتها. (م).

انتهى إلى اطلاق اسمها على هذه الضاحية من ضواحي دمشق (سيدة زينب)؛ المسجد المبني في حلب حول الحجر الذي وُضع عليه رأس الحسين وعليه دمه؛ ضريح في الرقة لصاحبيين من أصحاب علي في صفين.

بعد الثورة التي أطاحت بشاه إيران عام 1979، قرر حافظ الأسد أن يعقد حلفًا إستراتيجيًا مع آية الله الخميني، و(جمهوريته الإسلامية)، ولا يهم إن كانت سورية بذلك ستنخرط ضد العراق الذي يحكمه فرع آخر من حزب (البعث العربي الاشتراكي). هذا الحلف مفيد جدًا للديكتاتورية السورية، إذ سيعطيه فضلاً عن النفاذ إلى النفط الإيراني، مكانة مميزة في قلب الشيعة اللبنانيين. وقد ترافق هذا التوطيد لمحور دمشق – طهران، في أعمال كبرى في سورية من أجل تأهيل المواقع الشيعية التي يقصدها فيض واسع من الحجاج الإيرانيين. طقوس الحسين وعائلته، شأن سياسي بقدر ما هي شأن ديني.

ثورة الرايات السوداوات

وسع الأمويون تدريجيًا إمبراطوريتهم من جنوب جبال البيرينيه وحتى وادي السند، إلا أن (بلاد الشام) هي التي بقيت في مركز اهتمامهم؛ الأمر الذي تشهد عليه الصروح التي تغطيها، وغالبًا في مواقع بناها البيزنطيون وكذلك الرومان: المسجدان الأمويان؛ مسجد دمشق التي يضم ضريح يوحنا المعمدان، ومسجد حلب الذي يجاور كاتدرائية القديسة هيلانة؛ و(قصور الصحراء) في منطقة تدمر؛ والرصافة في حوض الفرات؛ مكان الإقامة المفضل لهشام الخليفة من عام 724 وحتى 743، حيث يوقر القديس سركيس[103].

نضبت حيوية الإمبراطورية في التوسع عبر الجهاد في منتصف القرن الثامن، الأمر الذي عزز عوامل الأزمة التي كانت مضبوطة إلى وقتها. وشعر المسلمون من غير الأصول العربية بالتمييز ضدهم، ولا سيما الفرس، على الرغم من المساواة المعلنة بين المسلمين

(103) القديسان سركيس وباخوس ويعرفان أيضًا عند العرب باسم سرجيس وباكوس تم بناء كثير من الكنائس والأديرة على اسم سركيس وباخوس، ولا سيّما في العراق وسوريا ولبنان وشبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكذلك الحال في روما والقسطنطينية، أما مزارهما الرئيس فوقع في مدينة الرصافة على نهر الفرات ضمن حدود سورية حاليًا، ويقع عيد تذكارهما في 7 تشرين الأول/ أكتوبر. (م).

كافة. ولعب مثير الفتن العبقري أبو مسلم[104]، على الضغائن الجمعية، عبر منحها بعدًا مسيحيًا: ثورة تحت الرايات السود تكون تمهيدًا لتأسيس العدالة على الأرض وإنزال العقاب بأعداء الإسلام.

انتشرت الثورة التي انطلقت عام 747 على التخوم الشرقية لبلاد فارس في البلاد كلها وامتدت حتى العراق. ودخل المتمردون منتصرين إلى الكوفة عام 749، حيث كان الشيعة المؤيدون للتمرد يأملون بتكريس جعفر الحفيد الأخير للحسين. عند ذلك كشف أبو مسلم تأييده لا للمنحدرين من علي، لكن لفرع آخر من عائلة النبي، فرع عمه العباس. وهكذا أعلن أبا العباس[105] خليفة على العراق، مستبدلًا بمبدأ وراثي آخر، ودشّن سلالة العباسيين.

كان التحامل في كل مكان ضد الأمويين الذين ذُبحوا من دون رحمة في العراق وفي سوريا طبعًا. ووضع رأس آخر خليفة على صارية في وسط الكوفة، ودُمرت قبورهم في دمشق والرصافة؛ الحيل كلها جيدة من أجل تصفيتهم حتى آخر واحد منهم. كذلك قدّم عم أبي العباس هكذا عشاءً (للمصالحة) لبعض عشرات الناجين قبل أن يعمل على ذبحهم: ((وسحبوا فطرحت عليهم البسط، وجلس عليها، ودعا بالطعام، فأكل وجماعته، وما زال بعض القتلى يئن))[106].

وحده عبد الرحمن أحد أحفاد هشام استطاع عام 750 النجاة من المذبحة. وهرب مجتازًا نهر الفرات سباحة، هذا الحد الرمزي بمقدار ما هو جغرافي بين العراق و(بلاد الشام). واستفاد خفية من تعاطف الأمويين الذين استمروا في البقاء في سوريا. وقاده تيهٌ

---

(104) ولد أبو مسلم الخراساني سنة 100هـ في ماه بالبصرة مما يلي أصبهان عند عيسى ومعقل ابني إدريس العجلي فربياه إلى أن شبّ فكان غلامًا سراجًا، واتصل أبو مسلم بعد ذلك بإبراهيم بن الإمام محمد من بني العباس وكان في خدمته إلى أن أرسله إلى داعية بعد أن لمس فيه إخلاصًا وحماسًا وشجاعة وعلمًا على الرغم من حداثة سنه، فقام فيها واستمال أهلها ووثب على ابن الكرماني وَالِي نيسابور فقتله واستولى عليها. وسيّر أبو مسلم جيشًا لمقاتلة مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية فهزمه أبو مسلم وفرّ مروان إلى مصر فقُتل في بوصير وزالت الدولة الأموية سنة 132 هـ. استمر أبو مسلم بعد ذلك في دعوته على الرغم من موت الإمام، ووطأ المنابر للدولة العباسية، حتى قامت في 132 هـ (م).

(105) أبو العباس عَبْد الله بن محمد بن علي بن عَبْد الله بن العباس بن عَبْد المُطَّلِب القرشي الهاشمي أمير المؤمنين، وأول خلفاء بني العباس، وكان حينذاك في السادسة والعشرين من عمرِه، والخليفة التاسع عشر من خلفاء المسلمين، وأمه هي ريطة الحارثية، ويلتقي مع النبي محمد بن عبد الله في جده عبد المطلب. (م).

(106) المصدر نفسه، ص 298.

طويل عام 755 حتى جنوبي إسبانيا. وفرض نفسه عبر السلاح على رأس إمارة (أموية) في قرطبة. زاوجت سوريا تحت حكم العباسيين من وقتها بين الحنين إلى المجد الأموي والاحتفاء بالأندلس الإسلامية.

الظهور المتأخر للسنية والشيعية

ترك تتابع المذابح والمذابح المضادة والتدنيس والتمثيل أثرًا عميقًا في سوريا التي تُركت للنهب. وكان التدمير الذي ألحقه العباسيون أكثر فداحةً من ذلك الموثق في أثناء الفتح الإسلامي الذي وصفه بعض علماء الآثار بـ (الفتح غير المرئي)[107]. تراجعت بلاد الشام التي كانت الطفل المدلل للإمبراطورية الرومانية إلى وضع مقاطعة حرفيًا، محرومةً من الخليفة الذي بنى في بغداد عاصمةً مترفة.

شجّع البلاط العباسي تطوّر علم ديني جديد؛ علم الحديث، أي (الاقتباس) المنسوب للنبي محمد من قبل أصحابه المقربين. أسهم هذا التأسيس لمجموعة مرجعية بمأسسة (إسلام تقليدي). واتسمت هذه العملية بالأهمية ذاتها كما في كل مسار من هذا النوع، سواء في ما تجذبه أو في ما تستبعده. والمهمة أكثر صعوبة في حال كانت الاقتباسات المشكوك تقريبًا بصحتها، منتشرة منذ غياب (رسول الله) عام 632.

وقد صنّف غالبًا كتّاب مستعربون أكثر من كتّاب من ذوي الأصول العربية، في منتصف القرن التاسع عشرات الكتب الهائلة للحديث. وكان معيارهم في الانتقاء سلسلة النقل (الإسناد) التي يجب أن ترجع عبر النقل إلى أقرب أصحاب النبي. ويعد الحديث تقريبًا صحيحًا (مسندًا) وفقًا لدقة سلسلة النقل هذه. وفي الحالة المعاكسة، فإن الحديث يستبعد بوصفه مزورًا أو يقبل شرط عدّه (حديثًا ضعيفًا).

هذا العمل الهائل المعياري كان معاصرًا لإنشاء أربع مدارس فقهية، تسمى بالمفرد مذهب. ومن دون الدخول في النظام المعقد لكل مدرسة منها، فلنقتصر على الإشارة إلى أنها تتضمن مجاميع الحديث (التقليدية) (السنة)، وأنها ترفع هذا الإرث النبوي إلى رتبة مصدر شرعي تشريعي يعادل القرآن. هكذا اكتمل التنزيل الإلهي، بوقائع وأعمال من كان رسول هذا التنزيل.

(107) Peter Pentz, The Invisible Conquest, Musée national du Danemark, Copenhague, 1992.

واحتاج الأمر مرور ثلاثة قرون لتأسيس عقيدة (سنية) رويدًا رويدًا. واستغرقت (الشيعية) وقتًا أطول من أجل أن تتماهى مع سلالة صوفية من اثني عشر إمامًا، منذ علي وحتى سليله محمد (المهدي). هذا المهدي المحتجب عن عيون البشر، سيعود في نهاية الزمان من أجل إقامة العدل الكوني. ومن الآن إلى ذاك الوقت، فإن الشيعة يستطيعون تغذية بحثهم الروحي من القرآن و(التقاليد) (السنن) التي لا تنسب إلى النبي محمد فحسب، وإنما أيضًا إلى كل من الأئمة الاثني عشر.

نبوءات القيامة

شهد منتصف القرن التاسع إنشاء تصانيف الحديث، وهي تعالج قيام الساعة تحت موضوع الفتنة، إذ إن كثيرًا من النزاعات بين المسلمين يطغى عليها بعد قيامي. و(بلاد الشام) حيث كانت الحروب الأهلية دموية جدًا، هي الأرض المميزة من أجل إبراز القلق المتعلق بانتظار مجيء المسيح. يضاف إلى ذلك، تهديد البيزنطيين المستمر المسمين بالعربية (الروم) الذين دُفعوا صوب الشمال من دون أن يهزموا كما الحال لدى الإمبراطورية الفارسية.

جاب أبو حسين مسلم[108]، المتوفى عام 875 في مسقط رأسه نيسابور في شرق إيران الحالية، أرض الإسلام من أجل جمع مئات آلاف الأحاديث. ويتباهى أنه لم يحفظ إلا واحدًا بالمئة لتأليف (الصحيح)، تصنيفٌ يعد مرجعًا حتى الآن. وفيه يمنح مكانة غير مسبوقة في التقويم الأخروي لشخصيات النبي المزيف؛ الدجال، وحرفيًا (المشعوذ). وهذا الدجال يترجم أحيانًا بالمسيح الدجال الذي سيأتي قبل المسيح لأن خصمه هو يسوع، وهو لدى الإسلام النبي عيسى ابن مريم.

بدأ مسلم سلسلة معارك رهيبة، نتيجة هجوم بيزنطي في شمال شرق حلب بين بلدتي أعماق ودابق: ((لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أم بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ فإذا تصادفوا قالت الروم خلوا بيننا وبين الذين سبوا منا نقاتلهم فيقول المسلمون لا والله لا نخلي بينكم وبين إخواننا

(108) مسلم بن الحجاج هو من أهم علماء الحديث النبوي عند أهل السنة والجماعة، وهو مصنف كتاب صحيح مسلم الذي يعد ثاني أصح كتب الحديث بعد صحيح البخاري. (م).

فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبدًا ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء عند الله ويفتتح الثلث لا يفتنون أبدًا فيفتتحون قسطنطينية))[109].

لا يدل أخذ العاصمة البيزنطية على نصر الإسلام، لأن الدجال سيتسلل إلى (بلاد الشام) عبر المكر والعنف، ولن تستطيع الفرق المسلمة التي سيقودها الجنرال (المهدي) أن تشرع في هذه المعركة الأخيرة من دون منافسة خارقة: ((إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق))[110]. ينتصر يسوع/ عيسى على المسيح الدجال خلال تلك المنازلة الأخيرة. ومن أجل إرساء هذه النبوءة في الواقع المعماري فإن المئذنة الجنوبية الشرقية الأكثر ارتفاعًا في المسجد الأموي بدمشق سميت من وقتها (مئذنة يسوع).

تتغذى نبوءة دابق من حقيقة مواجهات القرن الأول للإسلام بين البيزنطيين والأمويين. ففي الواقع، سيجمع المسلمون جيوشهم في دابق قبل الذهاب لمحاربة (الروم). هي إذن المدينة التي سيمركز فيها الخليفة سليمان الذي كان حاكمًا من 715 وحتى 717 فرقه العسكرية قبل أن يرسلها إلى الأناضول ويحاصر القسطنطينية، من البحر والبر خلال عام كامل. وفي دابق كذلك سيدفن هذا الخليفة كتحدٍ أخير للبيزنطيين الذين لم يستطع أخذ عاصمتهم.

نعيم بن حّماد (771 – 843)[111]، عالم حديث آخر، ولد مثل مسلم في شرق بلاد فارس، لكنه أقل مكانة منه. (كتاب الفتن) الذي كرّس له آخر عشر سنوات من عمره لا قيمة شريعية له. لكن الأوصاف الغنية بالألوان للمعارك المدمرة التي يوردها في (بلاد الشام)، كانت ذات تأثير شعبي كبير. يزعم ابن حماد، من بين ما يزعم، أن كل مقاتل يسقط في سوريا يقدر أن يشفع لسبعين من أقاربه يوم الحساب العظيم. ليست (بلاد الشام) مسرحًا للنزاعات الأخروية فحسب، بل هي ملتقى النضال لكلفة سلام لا شبيه له.

---

(109) ترجمة المؤلف إلى الفرنسية من النص العربي لـ (صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، 4/2220).

(110) المصدر نفسه، 4/2250.

(111) نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث بن همام بن سلمة بن مالك الخزاعي، المروزي (أبو عبد الله) (ت 228 هـ) محدث. ولد في مرو الرود، وأقام مدة في العراق والحجاز يطلب الحديث، ثم سكن مصر، ولم يزل فيها إلى أن حمل إلى العراق في خلافة المعتصم، وامتحن بخلق القرآن، فلم يجب وقيد، ومات في الحبس. له تصانيف وهو شيخ البخاري. (م).

انشقاقات الانشقاق

فلنعد إلى عام 749، وإلى إعلان أول الخلفاء العباسيين في العراق. سيخضع بطل الشيعة جعفر آخر أحفاد الحسين إلى هذه الإهانة الجديدة التي أصابت سلالة علي، وستحتج أقلية ثائرة ضد هذا الإقرار بالعجز، وستتجمع حول الابن الأكبر لجعفر؛ إسماعيل الذي سيدعو إلى مقاومة العباسيين. ستقمع سلطة بغداد هذا الانشقاق (الإسماعيلي) بصورة ممنهجة، الأمر الذي سيجبّر الدعاة على التخفي، ولا سيما في سوريا.

شيئًا فشيئًا تكونت عند أبواب صحراء تدمر الطائفة الإسماعيلية، في واحة السلمية، ونشّطت شبكة احتجاجات على امتداد مناطق الخلافة. كما يصف ذلك المستشرق برنارد لويس: ((فبالنسبة لأهل الورع والتقوى قدم الإسماعيليون احترامًا للقرآن والسنة والشريعة لا يقل عن احترام أهل السنة. وبالنسبة لأهل الذكاء والفطنة قدموا تفسيرًا فلسفيًا للكون استمدوه من مصادر القدماء وخاصة الفكر الأفلاطوني الجديد.

وبالنسبة لأصحاب الأرواح الشفافة قدموا عقيدة عاطفية ذاتية دافئة تغذيها العبرة المستمدة من آلام الأئمة وتضحيات أتباعهم في معاناة العذاب وإحقاق الحق. وأخيرًا بالنسبة للمظلومين والمستائين من الأوضاع القائمة قدموا حركة معارضة قوية جيدة التنظيم واسعة الانتشار))[112] [113].

في عام 899، أعلن زعيم الطائفة، من السلمية، أنه المهدي وفتح أمام أتباعه تقويم قيام الساعة. تضخمت الحركة، وصارت سوريا الوسطى كلها تحت السيطرة الإسماعيلية عام 903. فهرع جيش عباسي من أجل سحق التمرد، ولجأ المؤمنون بالمهدي إلى القرى التي لا يمكن الوصول إليها على الشريط الساحلي. هرب زعيمهم من سوريا، ووصل إلى مصر ثم تونس حيث أعلن نفسه خليفةً في القيروان عام 909.

وكما في حال التبشير الثوري لأبي مسلم، فقد تحولت التعبئة المهدوية من أجل تأسيس سلالة جديدة. أرسى الخليفة (الفاطمي) شرعيته على إدعاء مختلف عليه، بوجود نسب مباشر من فاطمة ابنة النبي وزوجة علي. وتحول دينيًا أغلبية غلاة الإسماعيليين الذين

(112) Bernard Lewis, Les Assassins, Complex, Bruxelles, 1984, p.63.

(113) بالعربية اعتمد كتاب (الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، برنار لويس، ترجمة محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، 2006، ص 50). (م).

كانوا يأملون بتعجيل يوم الحساب إلى الانخراط في الحملات الفاطمية، بصورة أسهل، ما توّج تلك الحملات بالنجاح.

فُتحت صقلية عام 948، ومن ثم بقية شمالي أفريقيا، وأخيرًا مصر حيث أسس الخليفة الفاطمي عاصمته الجديدة القاهرة (أي المنتصرة). طبع حكم الخليفة الحاكم[114] من عام 996 وحتى 1021، بتعسف غريب الأطوار وقمعي للحاكم، حيث أراد مؤيدو الإيمان بالمهدي أيضًا أن يروا في ذلك رسالة باطنية. تطورت طائفة دينية شخصية بالحاكم تحت رعاية شخص اسمه (درزي)[115] الذي يسمى أتباعه بالدروز، وقد لوحقوا في مصر عند غياب الحاكم، ولجؤوا إلى بلاد الشام.

وبعد الإسماعيليين والدروز، فإن المجموعة الانشقاقية الثالثة التي ستتوطن في سوريا، لها أصول أكثر عرضة للجدال. وقد عرفت لوقت طويل بمصطلح النصيرية نسبة إلى ابن نصير[116] الذي توفي في البصرة عام 884 ويستند تبشيره على ألوهية الإمام العاشر علي العسكري. وقد أدى التجانس (اللفظي) لعلي هذا مع جده وسميّه ابن عم النبي وصهره، إلى إطلاق اسم العلويين اليوم على النصيريين.

مطاردون باعتبارهم من أصحاب البدع، لحق النصيريون بالإسماعيليين إلى شريط الساحل السوري، بل إنهم أعطوه اسمهم أي (جبل العلويين). وبالنسبة للدروز والعلويين أكثر مما بالنسبة للإسماعيليين، فإن الطابع الباطني للعقيدة، يستحث حذرًا أقصى بالنسبة للمعتقدات الحقيقية للـ (مطلعين) الذين هم أصلاً أقلية في قلب المجموعة. وقد أسهم الاضطهاد الجماعي في تماسك المجموعة، أكثر مما فعلت عناصر الإيمان المشتركة. مع ذلك فلنؤكد أن الأمر في الحالات الثلاث تعلق في الواقع بعائلة أو فرع من الإسلام مميز عن السنية كما عن الشيعية.

---

(114) الحاكم بأمر الله المنصور (985 - 1021) الخليفة الفاطمي السادس، حكم من 996 إلى 1021. ولد في مصر وخلف والده في الحكم العزيز بالله الفاطمي وعمره 11 سنة، وتكنى بأبي علي وهي كنية أخذها بعد ميلاد ابنه علي الذي تلقب بالظاهر لإعزاز دين الله حينما تولى الخلافة بعد اختفاء أبيه، ويرى بعضم أن الحاكم كان آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء. (م).

(115) المقصود نشتكين الدرزي الذي يقول الدروز بزندقته ويعتبرون أن نسبتهم إليه خطأ وأن اسمهم هو الموحدون. (م).

(116) أبو شعيب محمّد بن نصير العبدي البكريّ النميّري، وهو أحد أصحاب الإمامين علي الهادي والحسن العسكري. يعتقد العلويون أنه أحد كبار العلماء وأنه (باب) الإمام والمؤتمن على أسراره، بينما يعتبره غيرهم من الشيعة الاثني عشرية مدعٍ لا يركن إلى كلامه، وسميت الجماعة التي التفت حوله بالنصيرية. (م).

عسكرة المواقع الشيعية

لقد رأينا كيف استطاعت الكنائس ذات الطقوس (الشرقية) وليست الكاثوليكية منها الانتشار بكثرة في سوريا التي ما لبثت أن صارت أساس إمبراطورية الإسلام الأولى؛ سوريا (السنية) في هذا المعنى الذي بنت نفسها فيه لغرض مواجهة الاحتجاج الشيعي. فقد حوّل انهيار الأمويين (بلاد الشام) إلى أرض – ملجأ للانشقاقات عن الإسلام، فهي مهد الإسماعيلية قبل أن تصير ملاذ العلويين المميز، ومن ثم الدروز.

أما الشيعية المعاصرة فسميت (الاثنا عشرية)، لأنها توقر سلالة الاثني عشر إمامًا. وعلى الرغم من أن هذه الشيعية قد طغت ديموغرافيًا بالإسلام في لبنان والعراق الحاليين، إلا أنها بقيت فائقة الأقلوية في سورية. بيد أن الحلف الذي أقامه حافظ الأسد مع آية الله الخميني عام 1979 هو ما أضفى على مواقع الحج الشيعية ظاهرًا مسيسًا جدًا، وما لبثت الضاحية الدمشقية (سيدة زينب) أن أطلق عليها اسم (قم الصغرى) في إشارة إلى المركز الرئيس للفقه الشيعي في إيران.

كافأت الجمهورية الإسلامية مؤمنيها وأسر (شهدائها) برحلات سفر منظمة إلى سورية. ستستخدم هذه السياحة الدينية أيضًا غطاء للنشاطات غير المعترف بها للميليشيا اللبنانية لحزب الله وللحرس الثوري الإيراني. وضاعف بشار الأسد التسهيلات الممنوحة لإيران وللمقربين منه، ولا سيما بعد الغزو الأميركي للعراق عام 2003، وانسحاب الفرق العسكرية السورية من لبنان، عام 2005، تحت الضغط الشعبي.

بالمقابل منحت إيران دعمًا غير مشروط لنظام الأسد في قمعه للاحتجاجات بدءًا من آذار/ مارس 2011. هذا الدعم الذي كان في البداية غير مباشر، بالتسليح والمستشارين، صار مباشرًا من أجل تعويض فشل القوى الموالية في الوسط المديني. وفي نيسان/ أبريل 2013 أعطى حزب الله طابعًا رسميًا لمشاركته الفاعلة في النزاع السوري، باسم (المقاومة)، رابطًا بذلك نظام الأسد والجمهورية الإسلامية الإيرانية. وهو الشهر نفسه الذي أعلن في الرقة عن (الدولة الإسلامية في العراق والشام) المشار إليها اختصارًا في العربية بـ (داعش).

لم يقدّم النظام الإيراني أبدًا دعمه للأسد الديكتاتور من ناحية دينية، على العكس مما ظنّه المعلقون المتعجلون من مساواة بين العلويين والشيعة، إلا أن تفتت مواضع الموالين أكرهت طهران على تكثيف انخراطها، فاحتشد الحرس الثوري الإيراني والميليشيات اللبنانية والعراقية، بل الأفغانية للدفاع عن (الأماكن المقدسة) الشيعية في سورية. وقد ازدادت تلك التعبئة حدةً بعد تدمير داعش في أيار/ مايو 2014 ضريح صاحبين من أصحاب علي في الرقة.

حُصّنت (السيدة زينب) بوصفها مركز عمليات للحرس الثوري الإيراني، ولداعميهم في جنوب سورية كله. ورفرف علم حزب الله في حلب فوق معبد الحجر الأحمر لدم الحسين[117]، على ارتفاع متنازع عليه بمرارة في المعارك التي مزّقت المدينة السورية الثانية. شرّعت بروباغاندا ذات صور متعددة بأمر مقدس إرسال (المتطوعين) والتضحية بـ (الشهداء). وعلى وقع وطأة النتائج بالنسبة لطهران والمقربين من إيران، أخذ خطاب (المقاومة) لهجات أكثر فأكثر مهدوية.

وبالموازاة مع هذا التدخل المتزايد لطهران ومحمييها، غذت داعش بروباغاندا قيامية كي تبرّر تجذّرها في (بلاد الشام). إنه لأمرٌ صاعق رؤية كيف يتفق الجهاديون مع المقربين من إيران من أجل نفي حقيقة سورية وشعبها وثورتها. من ناحية أخرى، تضم داعش نسبيًا قليلًا من السوريين في صفوفها، وتراهن على وصول منتظم (للمتطوعين) الأجانب من أجل انتشار مكثف في حوض الفرات.

تستند داعش من ناحية الأدوات على تحقيق النبوءات، ولا سيما معركة قيام الساعة في أعماق ودابق: أعماق هو اسم (وكالة الأنباء) التي تتبنى التفجيرات الجهادية في العالم أجمع، ودابق هو اسم المجلة متعددة اللغات التي تبثها المنظمة الإرهابية عبر الإنترنت، في حين أن موضع دابق نفسه وقع في أيدي داعش في آب/ أغسطس 2014، ودافعت عنه بضراوة خلال أكثر من عامين قبل أن يستعيده الثوار السوريون.

(الروم) الواردون في صحيح مسلم، مشبّهون بالروس الأرثوذكس المنخرطين بصورة مباشرة في سورية منذ خريف عام 2015. وضمنت مواقع الجهاديين – على امتداد الأرض- شعبية لكتابات ابن حمّاد التي كانت إلى هذا الوقت غامضة. فالإصرار على (فداء) خطايا

(117) المقصود مسجد النقطة ويعرف أيضًا بـ (مشهد النقطة)، وهو مسجد يقع في مدينة حلب علي سفح جبل الجوشن. في هذا المسجد صخرة عليها نقطة دم، يقال إنها من دماء رأس الإمام الحسين. يعدّ هذا المسجد من الأماكن المقدسة عند الشيعة. (م).

السبعين مقرّبًا يوم الحساب الأخير، قد أقنع كثيرًا من المجندين المحتملين للقيام بالخطوة والانضمام إلى داعش. (بلاد الشام) أرض القيامة، بدت وكأنها صارتها مجددًا، وفي هذا شقاء سكانها الأكبر.

5. الحروب الصليبية وصلاح الدين

لطالما عامل الخلفاء العباسيون سوريا بقسوة، إذ كانت مشتبهة بالتعاطف مع الأمويين ومن ثم التآمر مع الإسماعيليين. حتى أن خيار هارون الرشيد الخليفة من عام 786 إلى عام 809 بالإقامة بصورة منتظمة في الرقة عنى حرمانًا لدمشق أو حلب. وهو خصوصًا رسالة موجهة إلى البيزنطيين الذين كان ما يزال خطرهم قائمًا عند الحدود الشمالية للإمبراطورية. ولم تكن الحملة العقابية ضد مهدي السلمية عام 903 إلا واحدة من حملات عدة أطلقت ضد (بلاد الشام).

دعم الوهن المستفحل لسلطة بغداد خلال القرن العاشر نشوءَ إمارات مستقلة في سوريا، كما دعم الغارات المدمرة التي قام بها البيزنطيون. هكذا عرفت حلب بدءًا من عام 945 العهد الرائع للأمير سيف الدولة[118]. كان يدعو إلى بلاطه الفيلسوف الفارابي[119] والشاعر المتنبي[120]، الذي مجّد عبر أبياته الغنائية الانتصارات ضد الروم: (ورعنا بنا قلب الفرات كأنما/ تخر عليه بالرجال سيول).

أخذ البيزنطيون بثأرهم عام 962، فنهبوا حلب وأجبروا الأمير على الاحتماء بالقلعة المطلة على المدينة. تجدر الإشارة إلى أن سيف الدولة، كما أسرته، هم شيعة بوضوح، الأمر

---

(118) سيف الدولة الحمداني ويعرف بأكثر لقب شيوعًا: سيف الدولة (سيف الدولة العباسية) (303 - 356 هـ / 915 - 967 م) هو علي بن أبي الهيجاء بن حمدان بن الحارث سيف الدولة التغلبي مؤسس إمارة حلب التي تضم شمالي سوريا معظمه وأجزاء من غربي الجزيرة. عانت مملكته من سلسلة من التمردات القبلية حتى 955 م، لكنه كان ناجحًا في التغلب عليها والمحافظة على ولاء أهم القبائل العربية. أصبحت دولة سيف الدولة في حلب مركز الثقافة والحيوية، وجمع من حوله من الأدباء ومنهم أبو الطيب المتنبي الذي ساعد في ضمان شهرته للأجيال القادمة. (م).

(119) أبو نصر محمد الفارابي هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي. ولد عام 260 هـ/874 م في فاراب في إقليم تركستان (كازاخستان حاليًا) وتوفي عام 339 هـ/950م. فيلسوف مسلم اشتهر بإتقان العلوم الحكمية وكانت له قوة في صناعة الطب. (م).

(120) أبو الطيّب المتنبي (303هـ - 354هـ) (915م - 965م) هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي أبو الطيب الكندي الكوفي المولد. نسب إلى قبيلة كندة نتيجة لولادته بحي تلك القبيلة في الكوفة لانتمائه لهم. عاش أفضل أيام حياته وأكثرها عطاء في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب وكان من أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكنًا من اللغة العربية وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها، وله مكانة سامية لم تتح مثلها لغيره من شعراء العربية. (م).

الذي لم يمنعهم لا من تقديم أنفسهم بوصفهم مدافعين عن (الدولة العباسية)، ولا من قيادة جهاد هجومي ضد الروم، فالعداوة بين السنة والشيعة التي غالبًا ما توصف اليوم بأنها غير قابلة للصلح منذ الأزل كانت بعيدة من أن تكون منقسمة هكذا، وبقيت حلب كذلك لزمن طويل مدينة ذات أغلبية شيعية.

سوريا الشمالية، سوريا الجنوبية

رأينا كيف -بمواجهة الخلافة المنتكسة للعباسيين- أعلن الفاطميون خلافة منافسة وغازية. فاستولوا من مصر على دمشق عام 970، بيد أنهم عزفوا عن احتلال سوريا الشمالية الواقعة تحت حماية القسطنطينية. وحصلوا على مكافأة رمزية بسماع أذان صلاة الجمعة في حلب تتلى باسمهم. يقع خط الحدود المشترك بين سوريا الخاضعة إلى القاهرة من جهة، والمحمية البيزنطية من جهة أخرى، عند خط حمص، وقد احترمه الفاطميون خلال قرن تقريبًا بحسن نية.

لكن (بلاد الشام) التي كانت مقسّمة على هذا النحو طورت وعيًا بهويتها الخاصة ليس إلا من أجل التميز عن هذا العالم البدوي الذي ينحدر منه أكثر العرب تاريخيًا. يتناقض تنوع الأراضي السورية وتجذرها في الزمن كذلك، مع القطبية الثنائية الصحراء/النهر، في بلاد الرافدين وفي مصر، حيث السلطة المسيطرة حتمًا تتحكم بالمكان من خلال حصص المياه. وإلى هذا تضاف ثقافة المقايضة التي جذبت قوافل مكة وصولاً إلى دمشق.

ووفقًا للمؤرخ تييري بيانكي Thierry Bianquis: ((أن تكون سوريًا في العصر الوسيط كان إذن شعورًا معقدًا: أن تكون عربيًا من دون أن تكون بدويًا البتة، أن تكون من حيّك، من قريتك أو مدينتك، أو منطقتك الصغيرة، وألا تكون مصريًا ولا عراقيًا، وأن تخشى البيزنطيين، لكنك تسعى للتعامل معهم، أن تتذمر من البدو لكنك تتذوق ألبانهم ولهجتهم))[121].
وقد عزز التعاضد المديني أحيانًا صعود قوى جيش شعبي من الشباب (الأحداث) الذين حصلوا على دعم الأعيان المحليين كما حصل في دمشق عام 983 وعام 998.

(121) Thierry Bianquis, Damas et la Syrie sous la domination fatimide, Presses de l IFPO, Damas, 1986, tome 1. Introduction, point 35.

ممزقةً ما بين القاهرة والقسطنطينية، صارت سوريا بدءًا من عام 1070 هدفًا لحملة استعادة عباسية. كان خليفة بغداد قد تخلّى عن سلطته الفعلية لصالح (سلطان) تركي من الأسرة السلجوقية، ذات مذهب سني متزمت. ومن المؤكد أن صلاة الجمعة في حلب عادت مجددًا باسم العباسيين، لكن لمجد السلطان تتش[122]، وارتفعت مئذنة رائعة في مسجد الأمويين عام 1092 .

وكان الوضع في باقي سوريا أكثر اضطرابًا، حيث تنتقل دمشق من يد إلى أخرى. وفي عام 1092 أصبح دقاق[123] أميرًا، لكن فقط من أجل محاربة أفضل لأخيه رضوان أمير حلب الذي حاول قتله، عند موت تتش، واستلامه الحكم. يمكن أن يوضح هذا النزاع بين الأخوة بصورة أفضل تفتيت سوريا حينما ظهر في الشمال تهديدٌ من الطراز الأول، ليس تهديد الروم بل تهديد الفرنج؛ فرنج الحروب الصليبية[124].

غزو آكلي لحوم البشر

اختلط عشرات آلاف من الغزاة بين فرسان اللورين وتولوز والإيطاليين مع الراجلين المتعصبين القادمين من أوروبا كلها. وفي نظرهم، فإن المسلمين ليسوا إلا مشركين كريهين، مولعين بـ (محمد)، ومدنسين للمسيح. ولا ينفصل عقاب أعداء الله هؤلاء عن تحرير كنيسة القيامة. اعترف واحد فقط من مؤرخي هذه الحرب الصليبية الأولى بالإسلام ديانة توحيدية، لكن فقط من أجل تشويه محمد إلى زنديق بغيض ومريد

---

(122) تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان (458-487 هـ) سلطان دمشق ومؤسس سلاجقة الشام. في عام 471 هـ استطاع تتش الاستيلاء على دمشق ومن ثم حلب في عام 478هـ واستطاع في آخر الأمر أن يسيطر على كثير من مناطق بلاد الشام ويتبعها دولته. (م).

(123) شمس الملوك أبو نصر دقاق بن السلطان تاج الدولة تتش بن السلطان ألب أرسلان (توفي في 497هـ/8 حزيران/يونيو 1104م)، هو حاكم سلجوقي حكم دمشق وأقاليمها في المدة ما بين 1095 إلى 1104م. بعد أن توفي والده تتش بن ألب أرسلان الذي أوصى أن يكون الملك من بعده لأخيه رضوان سار دقماق إلى حلب وأقام عند أخيه رضوان فكتب إليه الأمير سارتكين والي قلعة دمشق سرًا يدعوه ليملكه مدينة دمشق فهرب من أخيه فأرسل رضوان في طلبه خيلًا فلم تدركه فلما وصل إلى دمشق نصبه الأمير ساوتكين ملكًا في دمشق وساعده على ذلك كثير من خاصة أبيه. (م).

(124) لم يكن مصطلح (الصليبيون) في اللغة العربية رائجًا إلا في القرن التاسع عشر.

للراهب المنشق بحيرى[125].

هذا يعني أن هذه الحرب الصليبية بترت جذريًا مع دائرة الحروب الدموية التي تضع في المواجهة منذ قرون البيزنطيين والمسلمين في شمال سوريا. وقد نشرت واقعة أن الفرنجة الجائعين كانوا يتغذون على جثث أعدائهم منذ احتلال أنطاكية عام 1098 الفزع في صفوف المسلمين. وأكد حالات آكلي لحوم البشر هذه، المؤرخ المسيحي راوول دو كاين[126] Raoul de Caen، وانتشرت عام 1099 في أثناء مذبحة معرة النعمان الواقعة في منتصف الطريق بين حلب وحماة.

زادت طقوس عربدة الدم التي رافقت بعد مدة قصيرة الغزو الصليبي للقدس من الذهول في صفوف المسلمين. واقتطعت الحروب الصليبية إقطاعاتها (المملكة اللاتينية) في القدس، و(إمارة) أنطاكية، وكونتية[127] طرابلس وكونتية الرها، أي أورفا الحديثة. وما إن امتص الأمراء المسلمون صدمة هذه الموجة الأولى، حتى استعادوا تنافسهم من جديد، ولم يترددوا في عقد عهود مع القادمين الجدد ضد إخوتهم في الدين. هكذا توصل (أتراك) دمشق و(فرنج) القدس إلى اتفاق تقاسم عوائد المحاصيل الزراعية في الأراضي ذات الملكية المشتركة التي بحوزتهم.

من جهة أخرى، جعل اقتحام آسيا الذي قامت به تلك الفرق التي لبت نداء البابا القطيعة المعروفة عام 1054 بين روما والقسطنطينية حول نقاط غامضة في العقيدة أكثر فداحة. وأضفت القطيعة جوهرًا مأسويًا على هذا الانشقاق بين كنائس الشرق والغرب، ولا سيما بعد مذبحة الروم في أثناء الاستيلاء على القدس. وعزّز الصليبيون في الأراضي الواقعة تحت سيطرتهم وجهاء (كاثوليكيين) رفيعي المقام على حساب رجال الدين (الأرثوذكس) المحليين. ووجدت فسيفساء مسيحية الشرق، المتنافرة أصلًا، نفسها أكثر اضطرابًا. إذ إن أتباع القديس مارون الذين شهدنا كيف تركوا وادي العاصي، واتجهوا

---

(125) John Tolan, les Sarrasins, Aubier, Paris, 2003, p.198.

(126) مؤرخ وكاتب فرنسي ولد في كاين عام 1080 وتوفي 1120، ومن أشهر مؤلفاته (أعمال وحركات الأمير تانكرد في الحملة على القدس). (م).

(127) دويلة صغيرة أو منطقة يحكمها نبيل لقبه كونت الكونتيات كانت موجودة فى أوروبا. ومن أشهر الكونتيات التي كانت موجودة فى الشرق الأوسط فى العصور الوسطى بعد تأسيس الصليبيين مملكة اللاتين كانت (كونتية طرابلس) التي استمرت إلى أن قضى عليها السلطان قلاوون سنة 1290. (م).

ليستقروا في لبنان بدءًا من القرن السادس سينشئون كنيسة (مارونية) يقودها بطريرك، لكنها تخضع إلى سلطة البابا.

وسيفتح الصليبيون من وقتها، بعيدًا من اعتراض كتلتين متجانستين، دروبًا جديدة للانشقاق لدى المسيحيين كما لدى المسلمين، ما أدى إلى إعادات تركيب وخيانات وتحالفات منقوضة. لفوشيه دو شارتر[128] Foucher de Chartres صرخة من القلب بخصوص الحرب الصليبية الأولى: ((نحن الذين كنا غربيين، ها قد أصبحنا شرقيين)). وفي معسكر الخصم، حمّس زعيم ديني من حلب على تظاهرات في بغداد عام 1111، فيها هتاف ذو إيقاع: (ملك الروم أكثر إسلامًا من أمير المؤمنين). وقُتل قائد عباسي -كان قد استدعاه الخليفة إلى دمشق قوة داعمة عام 113- في قلب مسجد الأمويين.

لم تكن القاهرة أكثر قدرة من بغداد على صدّ تحدي الصليبيين. وفي الواقع، نأى الفاطميون بأنفسهم عن إسماعيليي الشرق، وأسس أكثرهم تعصبًا فرقة فائقة العنف. وأسهمت سلسلة قتل شخصيات مسلمة من الصف الأول، في أسطورتهم الفظيعة. وتباهى هؤلاء المحاربون بأنهم (فدائيون) مستعدون للتضحية القصوى، بيد أن منتقديهم اتهموهم بالعمل تحت تأثير تعاطي الحشيش، ومن هنا اسمهم (الحشاشون).

لا يوجد لدى المؤرخ الدمشقي ابن القلانسي[129] المعاصر لهذه الأحداث كلمات قاسية بصورة كافية في مواجهة (سفهاء العوام، من لاعقل له) و(غوغاء الطغام). ولم يأسف بمرارة أقل من حقيقية أنهم (شرعوا في قتل من يعاندهم، ومعاضدة من يؤازرهم على الضلال، ويرافدهم بحيث لا ينكر عليهم سلطان ولا وزير)[130].

---

(128) فوشيه الشارتري (1059 - 1127) مؤرخ وقسيس صليبي شارك في الحملة الصليبية الأولى تحت قيادة كونت نورمنديا روبرت ثم التحق بعدها عام 1097 بخدمة بلدوين الأول إلى الرها ثم أصبح بعدها قسيسًا لبلدوين وانتقل معه إلى مملكة بيت المقدس بعدما أصبح بدلوين ملكًا عليها عام 1100. (م).

(129) ابن القَلانسي (464 - 555 هـ / 1072 - 1160 م) هو مؤرخ وأديب دمشقي. هو حمزة بن أسد بن علّي بن محمد التميمي، أبو يعلى؛ من أسرة دمشقية. مات في دمشق ودفن في سفح جبل قاسيون. أشهر آثاره (المذيل في تاريخ دمشق) الذي يُعرف خطأً باسم ذيل تاريخ دمشق. (م).

(130) مقتبس من مؤلف ابن القلانسي لعام 520 للهجرة أي 1126-27 ميلادية.

نورٌ وصلاح

لم تستطع هذه النزاعات البائسة إلا أن تكون في صالح الصليبين، ولا سيما أن الإقطاعيين الأتراك كانوا يدافعون قبل أي شيء عن استقلالهم الذاتي، ولا يتشاركون مع العداء الشعبي حيال الفرنجة. لم يتطور هذا الاتجاه إلا عام 1127، مع تسمية عماد الدين الزنكي[131] على رأس حامية الموصل العباسية. وسيستولي هذا القائد التركي قريبًا على حلب، ثم حماة وحمص، ولن يفشل إلا أمام دمشق لأن أمراءها المحليين استدعوا الصليبيين لإنقاذهم.

يفك أحد رفاق سلاح الزنكي من خلال المستعرب أندريه ميكيلAndré Miquel[132] جدلية هذه الحرب الصليبية المضادة: (تغذت الحربان واحدة من الأخرى. يزيد الفرنجي المهزوم من نصر الزنكي وهيبته، ومن ثمّ، من قوته في بلاد المسلمين، والنجاحات التي يصيبها هذا الأخير تغذي بدورها المصادر الكبرى من أجل الانقلاب على الفرنجي)[133].

ترك الزنكي، إذ قُتل عام 1146، الموصل وحلب على التتالي لابنيه سيف الدين ونور الدين. برّر تفاني نور الدين الفائق إلى حدّ كبير اسمه، إذ أنقذ بدءًا من عام 1148 دمشق من الحروب الصليبية الثانية. استعيدت لعبة التأرجح عندما اختار العاهل الدمشقي التعامل مع الفرنجة من أجل أن يكسب احترام جاره القوي جدًا في الشمال.

كان في استطاعة نور الدين أن يغزو المدينة بالقوة، لكنه آثر أن يلعب على المدى الطويل وعلى تشويه السمعة المتزايد لخصومه. إذ إن حسه النزيه يبرز التنافرَ مع استبدادهم الذي

---

(131) عماد الدين زنكي الملك المنصور عماد الدين. قائد عسكري وحاكم مسلم، حكم أجزاء من بلاد الشام وحارب الصليبيين. كان أبوه مملوك السلطان ملكشاه السلجوقي. ولاه الخليفة المسترشد على الموصل بعد موافقة السلطان محمود ابن السلطان محمد بن ملكشاه. وملك حلب واستولى على الرحبة والجزيرة الفراتية وفتح الرها وكان يحتلها الصليبيون بزعامة (جوسلان). توجه إلى قلعة جعبر على نهر الفرات في بلاد الشام وحاصرها وأصبح في إحدى الليالي مقتولًا، قتله خادمه وهو راقد على فراشه ليلًا، ودفن بصفين. كان شديد الهيبة على جنده ورعيته، وعظيم السياسة، يحمي الضعفاء، ويخافه الأقوياء. عمر البلاد وكانت قبله خرابًا، وأشاع الأمن وقطع دابر اللصوص. كان الناس في زمانه بأنعم عيش. توفي وعمره 64 عامًا. (م).

(132) مستعرب فرنسي ولد عام 1928، مختص باللغة والأدب العربيين ومن أشهر مؤلفاته: الجغرافيا البشرية للعالم الإسلامي، وهو من أربعة أجزاء، وكتاب عن أسامة بن منقذ، كما ترجم كليلة ودمنة إلى الفرنسية، وعمل مع جمال الدين بن شيخ في ترجمة ألف ليلة وليلة. (م).

(133) André Miquel, Ousâma, un prince syrien face qux croisés, Fayard, Paris, 1986, p.68.

لا يمكن لجمه وعهودهم مع (غير المؤمنين). كانت الثمرة قد نضجت عام 1154 حين حشد نور الدين فرقه العسكرية حول دمشق. يورد ابن القلانسي أنها كانت في باب كيسان جنوبي المدينة القديمة: (وتسرع بعض الرجالة إلى السور، وعليه امرأة يهودية، فأرسلت إليه حبلًا)[134].

كان المدافع من رجال نور الدين يجهل بالطبع أنه يتمم بذلك الطريق المعاكس لبولص على أسوار دمشق نفسها بداية عصرنا. من ثم رفع راية (نور الدين) على القلعة المحصنة. ولم يكن على قَاطع الخشب إلا أن يكسر قفل الباب الشرقي لدمشق حتى ينفتح أمام نور الدين مثلما قيض أن ينفتح أمام خالد بن الوليد حوالى عام 635.

((وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة، لما هم عليه من المحبة لنور الدين، وعدله وحسن ذكره))[135]. فتوحدت سوريا ثانية تحت سلطة واحدة موالية لبغداد وللعباسيين، وكان ذلك من بعد أكثر من قرنين من الانقسام بين شمالها وجنوبها، المتنازع عليهما من قبل القاهرة والقسطنطينية والقدس.

وقد أخذ نور الدين تحت حمايته المتصوفين، ليظهر أن البحث الروحي عن (جهادهم الأكبر) ليس إلا تكملة لـ (جهادهم الأصغر)[136] بالسلاح ضد الفرنجة. وأسس في دمشق أول مدرسة مكرسة لعلم الحديث، ووضع الشيخ الموقّر أرسلان على رأسها، في الموقع الذي عسكر فيه خالد بن الوليد في أثناء حصاره دمشق، ومنذ ذلك الوقت ارتبط (الجهاد الأصغر) بالشفيع الملك و(الجهاد الأكبر) بالشفيع الرئيس في دمشق.

وقد أسهمت هذه التقوى الجلية حتمًا في توطيد سلطة نور الدين في سوريا. لكنها لم تكن لتضمن له النجاح ضد الصليبيين. وهكذا فقد هُزم عام 1163 عند أعتاب قلعة الحصن؛ القلعة الرائعة التي حصنها الرهبان المضيفون (الأوسبتاليه)[137] من أجل

---

(134) مقتبس من مؤلف ابن القلانسي لعام 549 للهجرة أي 1154-1155 ميلادية.

(135) المصدر نفسه.

(136) التمييز بين (الجهاد الأكبر) ذي الطبيعة الروحية و(الجهاد الأصغر) أي الأمر العسكري، منغمس في اقتباس ينسب إلى الرسول عام 630، بخصوص حملته العسكرية الأخيرة: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر).

(137) هو اسم أطلق على أول مرافقي الراهب جيرار الأوسبتاليه الذين كانوا يعالجون الصليبيين والحجاج من الجنسيات كلها في نزل في القدس. وامتدت التسمية لتصل إلى سوريا عبر المسار النفسه للرهبان، وعُرب الاسم الفرنسي إلى الشبطلية. (م).

إغلاق محور حمص/ طرطوس. وكان لدى فرسان الهيكل[138] حصونٌ في القلاع القريبة كلها، مثل القصر الأبيض (قلعة صافيتا) والقصر الأحمر (قلعة يحمر).

أدرك نور الدين أن سوريا غدتْ من وقتها ساحة حرب، وأنه لا يستطيع التغلب على الفرنجة من دون عون مصر. ومن أجل هذه المهمة، نصّب عام 1164 اثنين من قادته الأكراد، شيركوه[139] الذي كان حتى ذلك الوقت حاكمًا لدمشق، وصلاح الدين ابن عم هذا الأخير. ويعني الاسم صلاح الدين، وستتم فرنجته بـ Saladin. أما شيركوه من جهته فسيلقب بـ (أسد الدين)، وسيقود بمساعدة صلاح الدين ثلاث حملات إلى مصر.

وكانت آخر تلك الحملات عام 1169 تبلغ سبعة إلى ثمانية ألف فارس. ونجت القاهرة من فرق مملكة الفرنج في القدس. وكافأ الخليفة الفاطمي شيركوه بتعيينه وزيرًا. وأدى الموت المبكر لشيركوه لأن يحل صلاح الدين محله. المفارقة أن قائدًا تحت إمرة نور الدين يقود تنفيذ الأمر الفاطمي لم يحن وقته: ففي عام 1171 ألغى صلاح الدين بالقوة الخلافة الفاطمية، وأحيا رمزيًا السلطة العباسية في مصر، حيث رجعت الصلاة، كما في دمشق ترفع باسم خليفة بغداد.

رأى نور الدين أن النفوذ من هذا الإحياء يعود إليه بالكامل. ووبّخ صلاح الدين على استئثاره بثروات مصر، وبالإسهام الضعيف بمالية دمشق، كما بضعف الحشد ضد الصليبيين. توفي نور الدين عام 1174 من دون أن يندلع صراع مستتر بينه وبين نائبه في مصر. أعلن صلاح الدين طاعته، لكنه قلص شيئًا فشيئًا من سلطة ورثة نور الدين، مستوليًا على دمشق وحماة منذ عام 1174 ثم حمص في عام 1175، بانتظار حلب عام 1183.

---

(138) فرسان الهيكل أو فرسان المعبد الملقبون بـالجنود الفقراء للمسيح ومعبد سليمان عرفوا أيضًا بالداوية أو تنظيم الهيكل كانوا أحد أقوى التنظيمات العسكرية التي تعتنق الفكر المسيحي الغربي، وأكثرها ثراءً ونفوذًا وأحد أبرز ممثلي الاقتصاد المسيحي. ودام نشاطهم قرابة قرنين من الزمان في العصور الوسطى. ارتبط مصير فرسان الهيكل بشدة بالحملات الصليبية وعندما لحقت الهزيمة بالحملات الصليبية في القدس، خسر التنظيم كثيرًا من الدعم وشاعت الأقاويل حول الاجتماعات والاحتفالات السرية التي يعقدونها، الأمر الذي أثار الريبة تجاههم. (م).

(139) أسد الدين شيركوه (توفي في 22 شباط/ فبراير 1169) قائد عسكري في الدولة الزنكية وعم صلاح الدين الأيوبي، أسهمت انجازات أسد الدين العسكرية في مصر في تأسيس الدولة الأيوبية فيها. (م).

صدمة حطين

أتم صلاح الدين فعلًا البرنامج الذي تبناه نور الدين: لكنه أنجزه في الواقع على حساب المنحدرين من نور الدين. فها هو على رأس سلطنة سورية – مصرية، ومعترف به من قبل خليفة بغداد. ثبت عاصمته في دمشق[140] بسبب تآلفه في الوقت نفسه مع تلك المدينة حيث أمضى شبابه معظمه، وبسبب مركزيتها في المواجهة الحاسمة التي وجد أنه لا يمكن تجنبها مع الصليبيين. ولن تكون (هذه المواجهة) مثل تلك الحملات التي طبعت العقود السابقة، بل ستكون صدمة كبرى بين الفرنجة والمسلمين الذين توحدوا أخيرًا.

في دمشق تجمّعت عام 1187 الفرق العسكرية القادمة من عموم سوريا، ومن مصر ومن بلاد الرافدين. لم يخشَ صلاح الدين أن يُظهر بتباهٍ على الصروح والنقود ختم سليمان، النجمة السداسية، ذات الثقل الرمزي الكبير: سلمون/ سليمان الذي هو في الواقع فضلًا عن الملك الذي لا يُهزم أحد أنبياء الإسلام وسلف لمحمد. وأصبح الجهاد الذي تحفّ به دمشق كلّها، أقل غموضًا مما كان عليه تحت حكم نور الدين، لأن هزيمة الصليبيين لم تعد قائمة في مجال الوهم.

اصطدم ثلاثون ألفًا من الراجلين والفرسان المسلمين، وبينهم كثير من المتطوعين الذين أثارهم الجهاد مع عشرين ألفًا من الفرنجة في تموز/ يوليو 1187، على المرتفعات الغربية لبحيرة طبريا. ستشهد (قرون حطين) هذه نصر صلاح الدين على الصليبيين الذين قطع عنهم الوصول إلى البحيرة، وحرمهم من ثمّ من التزوّد بالمياه. قام السلطان بذبح الرهبان المضيفين وفرسان الهيكل، أعداء الإسلام المصنفين لدودين. أما الفرسان الآخرين الأسرى فلم يفرج عنهم إلا لقاء فدية متنافس عليها.

وفي ما يخص الراجلين من المحاربين، فقد بيعوا في أسواق العبيد في سوريا (بالمزاد ودفعة واحدة، بثلاثة دنانير للرأس)[141] (التعرفة المتفق عليها لإعادة شراء الأسرى من أي من المعسكرين، كانت حتى ذلك الوقت أعلى بعشر مرات). استولت فرق صلاح الدين العسكرية على الصليب الحقيقي الذي كان بحوزة جيوش الفرنجة. وثُبتت ذخيرته بصورة معكوسة على رمح، وعرضها أعيان دمشق المسلمون في موكب.

---

(140) خلال 19 عامًا من الحكم 1174-1193 لم يسكن صلاح الدين إلا عامين ونصف في القاهرة.

(141) Anne-Marie Eddé, Saladin, Flammarion, Paris, 2008, p.251.

يستطيع صلاح الدين الآن أن يلتفت إلى القدس التي خيّم أمامها منذ شهر أيلول 1187. ومما لا شك فيه، أن خطر تدمير الصليبيين للمسجد الأقصى، ثالث الحرم المقدس في الإسلام، دفع صلاح الدين إلى التفاوض حول استسلام الفرنجة. وطلب منهم دفع فدية بقدر 10 دنانير للرجل (5 للمرأة و2 للطفل) يتوجب سدادها خلال أربعين يومًا[142]. لكن يستطيع الصليبيون العزل ترك القدس مع ممتلكاتهم كلها. هذه الشهامة، تتعارض مع حمام الدم الذي طبع سقوط القدس بيد الفرنجة عام 1099.

أكمل صلاح الدين فتوحاته بحملة منتصرة عام 1188 على طول الساحل السوري. وتخلى له فرسان الهيكل عن مرفأ طرطوس كي يلوذوا بالبرج المركزي. أُخذت اللاذقية وتم تأمين طريقها نحو حلب من خلال سقوط قلعة صهيون[143]. لم تشكل الحملة الصليبية الثالثة التي انضم إليها عام 1191 فيليب أوغست[144] وريتشارد قلب الأسد[145]، خطرًا بالنسبة إلى مكتسبات صلاح الدين الأساسية.

أسلم محرر القدس روحه عام 1193 في دمشق. وكانت اللطخة الوحيدة لمحصلة ميزانه العسكري في: استمرار الحشاشين ببث الرعب لدى المسيحيين والمسلمين انطلاقًا من (أوكار النسور) في جبال العلويين. لا شيء يثبت أن صلاح الدين الذي كان هدفًا لمحاولتي قتل قد أبرم اتفاقًا سريًا مع الطائفة. وعلى الأرجح، أنه تعهد حتى النهاية بأولوية القتال ضد الفرنجة.

كان لا بدّ إذًا من الانتظار نصف قرن، كي يستطيع المسلمون التغلب على الصدمة الصليبية، وأن يرفعوا أخيرًا راية المقاومة. ونصف قرن آخر كان ضروريًا من ثم كي يستطيع نور الدين ومن بعده صلاح الدين قلب الميزان العسكري. وفُرضت إعادة توحيد سوريا المستدامة وإلغاء الخلافة الفاطمية بوصفها شروطًا ضرورية لاستعادة القدس. وبقيتا

---

(142) المصدر نفسه، ص 259.

(143) سميت القلعة من وقتها بقلعة صلاح الدين.

(144) كانت مدة حكمه لفرنسا من 1180 إلى 1223 أي حكم مدة 43 عامًا خلفًا لأبيه لويس السابع. (م).

(145) ملك إنكلترا من 1189 إلى 1199 عرف بلقب ريتشارد قلب الأسد، حتى قبل تتويجه بفضل سمعته بوصفه قائدًا عسكريًا ومحاربًا عظيمًا. وسمّاه المؤرخون المسلمون ملك الإنكتار. (م).

الإرث الأساسي لصلاح الدين، في حين إن وضع المدينة المقدسة بقي متنازعًا عليه[146].

ومن بين بطليْ صدّ الحروب الصليبية، ستكرس مشاعر التقوى الدمشقية نور الدين أكثر من صلاح الدين، بوصفه تجسيدًا للجهاد. صحيح أن صلاح الدين حرّر القدس بفتح يمكن مقارنته بفتح النبي لمكة، وأن صلاح الدين بدا شهمًا جدًا، وشديد الارتباط بالمسيحيين الذين حاربهم واحترمهم، إلا إنه بالمقابل تصلب نور الدين (الشهيد) أدى إلى تدفق مستمر للحجاج إلى قبره الموجود بين أزقة مدينة دمشق القديمة المتعانقة.

سيأخذ مسار صلاح الدين ما بعد موته منحنىً غير متوقع، حين ستعاد كتابة الحروب الصليبية في القرن التاسع عشر بوصفها ظهورًا مبكرًا للإمبريالية الغربية. وتلقّى المروجون العثمانيون الذين قاموا بإعادة تركيب هذه الرواية التاريخية، تعزيزًا من غيوم الثاني[147] المولع بالدفاع عن القسطنطينية ضد مطامع باريس ولندن. ففي زيارة إلى دمشق عام 1898، وهب الحاكم الألماني بكرم ضريح صلاح الدين الذي كان إلى ذلك الوقت قبرًا أجوف متواضعًا في شمال المسجد الأموي.

حين استولى جمال عبد الناصر على السلطة في مصر في عام 1952–1954، قدم نفسه بصفته صلاح الدين الحديث، القادر بالوقت نفسه على توحيد العرب وهزيمة (صليبيي) إسرائيل.

واحتفي بـ (الجمهورية العربية المتحدة) التي أعلنتها سورية ومصر عام 1958، بوصفها الخطوة الأولى نحو النصر. لكن جنود ناصر تصرفوا كقوات احتلال في سورية التي استعادت استقلالها عام 1961. وعزّى سيد القاهرة نفسه عبر طلبه من السينمائي يوسف شاهين إنجاز فيلم عن صلاح الدين، فيه ملحمة القرون الوسطى هذه، محشوة بالإحالات أو المرجعيات (المعادية للصهيونية).

حمل حافظ الأسد شعلة صلاح الدين في أثناء انقلابه عام 1970 في دمشق، بعد وفاة عبد الناصر بمدة قصيرة. وفرض حزب البعث ذو الاتجاه العروبي وضع علم المرحومة

---

(146) عادت القدس تحت السلطة المسيحية من خلال معاهدة بين سليل صلاح الدين من عام 1229 وحتى 1244.

(147) يسمى في المصادر العربية بـ (غليوم الثاني) أيضًا، كان قيصرًا للرايخ الثاني الألماني، إلى جانب كونه ملكًا لبروسيا. وهو ينحدر من أسرة هوهنتسولرن التي حكمت مملكة بروسيا ابتداء من سنة 1701. وهو ابن القيصر فريدريش الثالث؛ توج قيصرًا بعد وفاته سنة 1888، وأجبر على التنازل عن العرش في سنة 1918 بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى ونفي إلى هولندا. (م).

(الجمهورية العربية المتحدة) ذي النجمتين؛ واحدة تمثل سورية والأخرى مصر. وبنى الديكتاتور أمام قلعة دمشق التي قام أخو صلاح الدين بإعادة بنائها، تمثالًا لفارس من القرون الوسطى. وكان يكرر أمام ضيوفه الأجانب أن الصليبيين اختفوا خلال قرنين، وأن هذا ما سيكون عليه مصير إسرائيل.

لكن المستبد السوري حافظَ بعناية على وقف إطلاق نار مع إسرائيل توصل إليه عام 1974. ولا شك في أنه يقيس أفضل من أيّ كان، السخرية في الادعاء أن صلاح الدين الكردي رمز للقومية العربية. لم يأخذ الأسد من صلاح الدين إلا طموح الهيمنة على الصعيد الإقليمي، باترًا إياه عن هدفه في التحرير الجماعي. وبالأحرى، فإن معاوية مؤسس الأمويين هو الذي يلهم الأسد في هوسه بإقامة سلالة لا محرر القدس.

ربما يوجد أتباع صلاح الدين المخلصين اليوم في الحي المسمى صلاح الدين في حلب. هذا الحي بسكانه العرب والأكراد معًا، هو في قلب الثورة ضد الأسد منذ 2012. وعلى الرغم من القصف الوحشي، صمد بوصفه معقلًا ثوريًا على خط الجبهة الذي فصل خلال أربع سنوات بين شطري حلب. وقد نظّم مجلس محلي لوقت طويل شؤون السكان قبل أن ينهار تحت الضربات الهجومية لموالي الأسد في نهاية عام 2016. تمثالٌ مشعٌ في دمشق، وحيٌ متمردٌ في حلب؛ صلاح الدين لناس وصلاح الدين لناس غيرهم.

6 . الذعر القادم من السهوب

نظّم صلاح الدين قبل وفاته عام 1193، تقاسم سلطنته السورية – المصرية، بين أولاده الثلاثة، لكن أخاه (العادل)[148] أسهم في احتواء النزاع المستتر بين الورثة الثلاثة، قبل أن يفرض نفسه عليهم معًا. فزود دمشق بقلعة محصنة بستة عشر برجًا، في موضع الكاستروم الروماني[149]، عند الزاوية الشمالية الغربية للمدينة القديمة.

عمل العادل على هذا المشروع من عام 1207 وحتى وفاته عام 1218. حافظ ابنه وخلفه الكامل بالكاد على الوحدة بين سوريا ومصر التي انهارت عند غيابه عام 1238.

اعتمدت ذرية صلاح الدين أكثر فأكثر –في ما يخص إقطاعاتها الخاصة– على حرس فرق من العبيد المحررين والمهتدين للإسلام. هؤلاء المماليك[150] الذين أصلهم من البحر الأسود؛ من القوقاز؛ من آسيا الوسطى، قد أسروا و/أو بيعوا أطفالًا. ففي أسواق حلب ودمشق والإسكندرية اختيروا كي يتلقوا تدريبًا عسكريًا قاسيًا جدًا، وفي الوقت نفسه تلقوا تعاليم الإسلام. وإذ كانوا لا يتكلمون العربية أو يتكلمون العربية قليلًا، فقد كان مفترضًا أن يكونوا بعيدين عن المؤامرات المحلية، بمعنى أن يكون ولاؤهم المطلق للحاكم حينها.

وقد تغيّر هذا النظام عام 1250 حين قلب المماليك المنتصرين على لويس التاسع[151] في الحروب الصليبية السابعة سلطانهم ابن حفيد الكامل، ونصبوا واحدًا منهم على

---

(148) لقب العادل أيضًا بسيف الدين، من هنا الإشارة المتكررة إليه بـ (سافادان) في المصادر الفرنجية.

(149) من اللاتينية وتعني المكان المحصن. (م).

(150) التعبير مملوك يعني بالعربية الممتلك ويشير إلى شرط العبودية.

(151) ملك فرنسا قاد الحملة الصليبية السابعة عام 1248، حتى يأخذ بيت المقدس من أيدي سلاطين مصر، كانت وجهته الأولى دمياط في مصر واحتلها عام 1249، إلا أنه هزم ثم أسر في أولى مواجهاته في المنصورة عام 1250. بعد أن افتدى نفسه من الأسر، استقر في الشام مدة أربع سنوات 1250-1254، ليعود بعدها إلى فرنسا حيث قام بإعادة تنظيم أجهزة الدولة ووطد دعائم السلطة الملكية، كما أرسى قواعد أولى المؤسسات البرلمانية. (م).

العرش. واستمر لويس التاسع الذي حرره المماليك مقابل فدية معتبرة، خلال ثلاث سنوات في مغامراته في الأرض المقدسة. وقد أضعفت الحملات الصليبية وانشقاق المماليك، في الجنوب والغرب، سلطة ناصر سلطان دمشق ابن حفيد صلاح الدين. لكن التهديد الأكبر الرهيب نهض في الشمال والشرق مع إمبراطورية المغول.

نهاية عالم

استقر البلاط المغولي في قاراقورم[152] منذ عام 1235، على بعد أكثر من 300 كيلومتر من شرق أولان باتور[153] عاصمة منغوليا اليوم، وفيها استقبل مونكو خان[154] حفيد جنكيزخان[155] كثيرًا من السفراء المهتمين بتهدئة عبر هداياهم، فرسان السهوب الذين لا يمكن مقاومتهم، مثل مبعوث سلطان دمشق عام 1251. بعد ثلاث سنوات لاحظ غيوم دو روبروك الذي كلفه لويس التاسع بالبحث عن تحالف مضاد مفترض ضد

---

(152) مدينة قراقورم تقع في منغوليا الحالية وكانت سابقًا تشكل عاصمة إمبراطورية المغول التي تمتد من شرق شبه جزيرة كوريا إلى حدود أوروبا الغربية وشرق المنطقة العربية. بناها جنكيز خان وزينها بتحف وتماثيل أخذها من البلدان التي غزاها وأشهرها لوحات الفارسية وفي عهد قوبلاي خان نقلت العاصمة إلى الصين. (م).

(153) أولان باتور أو أولان باتَر هي عاصمة جمهورية منغوليا وأكبر مدنها، وهي أيضًا مركزها الثقافي والصناعي. تقع في الشمال الشرقي للبلاد، وتوجد فيها المباني الحكومية. وتوجد في المدينة جامعة ومسرح ومتاحف عدة. وتتضمن منتجاتها الصناعية الأثاث والحديد الزهر والورق والمنتجات الدوائية والصابون والمنسوجات. (م).

(154) الإمبراطور منكو خان 1208م - 1259م كان رابع خانات الإمبراطورية المنغولية وخلفه أخوه الإمبراطور قوبلاي خان. كان منكو خان في الثالثة والأربعين من عمره حين تولى العرش ويعد أشهر خانات المغول بعد جنكيزخان. اشتهر بأنه يكره الترف، وينكر المباذل، وليس له هواية إلا الصيد، وحرص على التعلق والتمسك باليسق قانون المغول الذي شرعه جنكيزخان. كان منكو بالغ النشاط، بارعًا في تسيير الإدارة، وشديد التمسّك بالعدالة، ومتوقّد الذكاء، فأعاد بذلك القوة والنشاط إلى ما كان أقامه جنكيزخان من نُظم؛ ووهب الإمبراطورية المغولية -من دون أن يتخلّى عن خصائص عنصره- أساليبَ إدارية قوية، وجعل منها دولةً بالغةَ القوة. (م).

(155) مؤسس وإمبراطور الإمبراطورية المغولية التي تعد أضخم إمبراطورية في التاريخ بوصفها كتلة واحدة بعد وفاته، توسعت بعد أن قتل الملايين من سكان البلاد التي يحتلها، وقد ارتكب مجازر كبيرة بحق المسلمين، وبرز بعد توحيده قبائل عدة ورحل إلى شمال شرق آسيا. فبعد إنشائه إمبراطورية المغول وتسميته (بجنكيز خان) بدأ بحملاته العسكرية فهاجم خانات قراخيطان والقوقاز والدولة الخوارزمية وزيا الغربية وإمبراطورية جين. وفي نهاية حياته كانت إمبراطوريته قد احتلت جزءًا ضخمًا من أواسط آسيا والصين. (م).

المسلمين في قراقوم وجود (مسجدين يتبعان لشريعة محمد)[156].

لم يكن مونكو خان ذاهلًا عن الأهداف التوسعية لهؤلاء المتملقين الدبلوماسيين، فكلّف أخويه هولاكو[157] وقوبيلاي[158] بأن يستولي أحدهما على بلاد المسلمين والآخر على الصين. اجتاز جيش هولاكو الهائل أمو داريا أو نهر جيحون في بداية عام 1256، وفي إطار إخضاع بلاد فارس سحق آلموت، قلعة الحشاشين. أمر هولاكو الخليفة العباسي المعتصم بالاستسلام، لكن أمير المؤمنين رفض الاستسلام لـ (شاب بالكاد دخل الحياة السياسية)[159].

وفي شهر شباط/ فبراير 1258 اجتاح المغول بغداد، وذبحوا المدافعين عن المدينة كما ذبحوا الذين سلّموا سلاحهم. وامتدّ النهب سبعة عشر نهارًا وسبع عشرة ليلة. وعُدّت الضحايا بعشرات الآلاف. عُذِّب المعتصم ولفت جثته في سجادة، وداست فوقها خيول هولاكو الذي لا شك كان متطيرًا من إمكان أن يترك دم الخليفة يسيل على هذه الأرض التي استولى عليها. ومثل الأمويين، تمت تصفية العباسيين بعد خمسة قرون. واستطاع أحد الناجين منهم أن يجد ملاذًا في مصر المملوكية.

اضمحلت الخلافة العربية التي اغتصب سلاطين مختلفون جزءًا كبيرًا من سلطتها الفعلية في عمليات نهب وسلب مفزعة لبغداد عام 1258. إنه (خليفة) محبوس في سجن ذهبي، كما يدعي المماليك لإضفاء شرعية على حكمهم. وسيلجأ العثمانيون إلى المناورة نفسها، قبل أن ينتحلوا لقب خليفة، وهو لم يكن بالنسبة لهم أقل أهمية من لقب السلطان. وبالنسبة لمصطفى كمال، مؤسس تركيا الحديثة، فلن يرى تعارضًا في أن يضع جمهوريته عام 1922 تحت الوصاية الرسمية للخلافة، قبل أن يلغي في عام 1924 هذه المؤسسة التي عفا عليها الزمن.

---

(156) Guillaume de Rubrouck, Voyage dans l Emoire mongol, Payot, Paris, 1985, p.201.

(157) حاكم (مغولي) احتل بلاد جنوب غرب آسيا معظمها بعد أن قتل الملايين من أهلها، وتوسع جيشه كثيرًا في الجزء الجنوبي الغربي للإمبراطورية المنغولية، مؤسسًا سلالة الخانات بفارس، وتوالت السلالات بعد ذلك إلى أن انتهت إلى إيران الحديثة. وتحت قيادة هولاكو اجتاح المغول بغداد عاصمة الخلافة العباسية. كما تحول المؤرخون من الكتابة العربية إلى الفارسية في عهده. (م).

(158) إمبراطور الإمبراطورية المنغولية الخامس (-1260 1294) وإمبراطور الصين (1279 1294-) وتولى الحكم خلفًا لأخيه منكو خان، وهو قوبلاي خان بن الإمبراطور تولوى بن الإمبراطور جنكيز خان وأمه الإمبراطورة سرقويتى بيكى وشقيق كلًا من الإمبراطور منكو خان والإمبراطور هولاكو خان والإمبراطور إريك بوك. (م).

(159) René Grasset, l Empire des steppes, Payot, Paris, 1939, p.428.

الجهاديون الحاليون الذين يزينون استبدادهم فائق الحداثة بهالة الخلافة الأسطورية المستعادة، هم واعون فعلًا إلى أن الإحالات المرجعية الجغرافية والتاريخية هي بغداد 1258 وليست القسطنطينية 1924.

فقد قرر الفرع العراقي من القاعدة عام 2006 أن يدعو نفسه (الدولة الإسلامية)، وأن يكون خليفته أبو عمر البغدادي، وهو الاسم الحركي لضابط قديم يعود إلى حقبة صدام حسين. في عام 2014 كان (الخليفة) أبو بكر البغدادي الذي نصبّ نفسه إمامًا من السامراء، والأول كما الآخر حرص على الزعم بأنه من بغداد، كصدى رمزي لعام 1258، الأمر الذي سيسمح بتشبيه أعدائهم بمغول[160] تلك الحقبة.

انتفاضة المماليك

طوّق هولاكو حلب في كانون الثاني/ يناير 1260، وأدى التقويض وطلقات المنجنيق، إلى انهيار أسوار المدينة القديمة التي تُركت إلى النهب خلال ستة أيام. أُخذت حشود من النساء والأطفال عبيدًا. وقبلت الحامية التي لجأت إلى القلعة بالاستسلام، وعلى غير العرف المتبع التزم هولاكو بكلمته وعفا عن المهزومين. هذا المزيج من القسوة والرحمة، أقنع حماة ثم حمص بالخضوع إلى الغزاة. لكن هولاكو عرف وهو في حلب بموت أخيه مونكو، فذهب شرقًا للمشاركة في خلافة الإمبراطورية مفوضًا قيادة باقي الفرق العسكرية إلى القائد كتبغا[161].

قرر السلطان ناصر[162] المذعور من نتيجة تقدم المغول أن يترك حامية في قلعة دمشق

(160) الاسم العربي للإشارة إلى (مغول) هولاكو هو التتار، من هنا الاختلاطات الوفيرة.

(161) قائد تركي مسيحي بارز من قبيلة النايمان التي هي جزء من المغول تبعت مذهب كنيسة المشرق، كان مقربًا لهولاكو خان وأحد أبرز قادته على الرغم من كبر سنه. عاونه على غزو بلاد فارس والمشرق العربي. قاد أحد أجنحة الجيش الذي غزا بغداد، وساعد في غزو دمشق. عندما اضطر هولاكو إلى العودة إلى منغوليا بسبب وفاة شقيقه الخان الأعظم مونكو خان أخذ معه الجيش معظمه، وأبقى كتبغا قائدًا على بقية الجيش الموجود بالشام وهو المسؤول عن تقدم جيشه نحو مصر لملاقاة المملوكي. وقد قتل في معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م. وكان شيخًا كبيرًا قد أسن عند مقتله، وكان يميل إلى دين النصارى، ولكن لا يمكنه الخروج من حكم جنكيز خان في الياساق. (م).

(162) المقصود الناصر يوسف الأيوبي. (م).

وأن يضع نفسه تحت حماية أعدائه القدماء المماليك. فأغرق الدمشقيون بالشتائم أحد المنحدرين من ذرية صلاح الدين والجبان إلى هذا الحد. وشعروا من وقتها أنهم أحرار بتقديم مدينتهم إلى الغزاة. دخل كتبغا إلى دمشق في آذار/ مارس 1260 وإلى جانبه مواليان مسيحيان اثنان للمغول: الملك هيتوم(163) من (أرمينيا الصغرى) وصهره بوهيموند السادس أمير أنطاكية وطرابلس.

لكن الحامية تمرّدت بعد شهر من هذا الاستسلام. وإذ اكتسحتهم ضربات المنجنيق، علّق الموالون هذه المعركة الأخيرة الخاسرة. وكما في حلب، عوملوا برحمة بعد استسلامهم. هدم المغول جزءًا من القلعة لئلا يخشوا دمشق بعد ذلك الحين. وفي نهاية شهر آب/ أغسطس 1260 تحكم كتبغا بالقسم الرئيس من الأراضي السورية. حتى ناصر، حين غيّر مواقفه للمرة الأخيرة التحق بالمغول، الأمر الذي لم يجنبه موتًا مخزيًا بيد هولاكو نفسه.

لم تعق خيانة ناصر تجمّع المماليك في القاهرة. فقد حشدوا جيشًا أكبر من جيش المغول الذين أضعفهم انسحاب فرقة هولاكو. وجاءت الصدمة الحاسمة في أيلول/ سبتمبر عام 1260 في عين جالوت غير بعيد من نابلس. سجن كتبغا المهزوم وثم أعدم. أدت هزيمة المغول الجديدة إلى إثارة الشغب ليومين في دمشق، حيث دفع المسيحيون ثمن ربطهم بين هيتوم وبوهيموند والغزاة.

قتل القائد بيبرس(164) بطل عين جالوت، السلطان القائم واستولى على العرش المملوكي. إنها بدايةحكم دام سبعة عشر عامًا مطبوع بإزالة القلاع الإسماعيلية من الساحل السوري (ما وضع نهاية للحشاشين الذين حُرموا من آلموت). تبع سحق (أرمينيا الصغرى) في قيليقية، الاستيلاء على قلعة الحصن وأنطاكية، وتوّج بذلك بيبرس الفتح الإسلامي الذي أطلقه نور الدين وتابَعه صلاح الدين. وتجدر الإشارة إلى أن أبطال

(163) هتوم الأول حكم قلقيلية الأرمنية أو أرمينية الصغرى من 1226 إلى 1269. ذهب إلى قاراقوروم منذ 1254 من أجل تقديم ولائه إلى مونكو خان. عاصمته سيس توجد اليوم في المحافظة التركية أضنة.

(164) الملك الظاهر ركن الدين بيبرس العلائي البُنْدُقْدارِي الصالحي النجمي لقب بـأبي الفتوح. سلطان مصر والشام ورابع سلاطين الدولة المملوكية ومؤسسها الحقيقي، بدأ مملوكًا يباع في أسواق بغداد والشام وانتهى به الأمر أحد أعظم السلاطين في العصر الإسلامي الوسيط. لقّبه الملك الصالح أيوب في دمشق بـ (ركن الدين)، وبعد وصوله إلى الحكم لقب نفسه بالملك الظاهر. ولد بيبرس حوالى عام 620 هـ / 1223م، حقق خلال حياته كثيرًا من الانتصارات ضد الصليبيين وخانات المغول ابتداءً من معركة المنصورة سنة 1250 ومعركة عين جالوت، وانتهاءً بمعركة الأبلستين ضد المغول سنة 1277. وقد قضى في أثناء حكمه على الحشاشين واستولى أيضًا على إمارة أنطاكية الصليبية. (م).

الإسلام الثلاثة هؤلاء ليسوا عربًا: نور الدين تركي، وصلاح الدين كردي وبيبرس أصله من القوقاز ومن عرق Kiptchak[165].

دُفن بيبرس كما سلفاه الشهيران في دمشق غير بعيد من المسجد الأموي. ويوجد ضريحه في بيت كان يملكه أبو صلاح الدين، وقد حوّله المماليك إلى مدرسة، أي معهد تعليم إسلامي. أكثر من الصروح، فقد كانت الثقافة الشفهية هي التي حفظت تبجيل السلطان المتوفى، فـ (سيرة بيبرس) تروى من جيل إلى جيل على امتداد الليالي في حلب ودمشق، وتضفي على المنتصر في عين جالوت بعدًا صعلوكيًا وملحميًا في آن معًا.

منشد الجهاد المسلح

صارت (بلاد الشام) للمرة الأولى محكومة برمّتها من مصر. رأينا كيف أن الفاطميين لم يسيطروا إلا على سوريا الجنوبية، ومن ثم اختار صلاح الدين وأخوه دمشق لتكون عاصمة سلطنة تتضمن مصر. جنّب خضوع سوريا إلى سلطة من أفريقية الاضطرابات التي أدمت القاهرة عند كل تبديل للسلطان، في غياب إجراءات وراثة واضحة.

أنشأ المغول في شرق الفرات (خانات) ذات روابط تتمدد مع العاصمة الإمبراطورية التي انتقلت من قاراقوروم إلى بكين. وفي عام 1295، وصل إلى السلطة –خان اهتدى إلى الإسلام– غازان[166] الذي ضم مجمل بلاطه إلى المذهب السني. لم تكن هذه المجموعة الدينية تشجع على السلام مع المماليك، بل كانت تغذي تعطشًا متجددًا لتوسع المغول في سوريا.

---

(165) شعب يتحدث التركية من آسيا الوسطى. (م).

(166) سابع سلاطين الإلخانية في إيران، حكم ما بين سنة 1295 حتى وفاته 1304. وهو ابن أرغون خان وزوجته قوتلوق خاتون، وهو من سلالة ملكية تنتهي إلى جنكيز خان. ويُرى بأنه أبرز ملوك دولة الإلخانات وأقواهم، وهو من طراز جده هولاكو وأباقا، وقد اعتنق الإسلام سنة 694 هـ / 1295 م قبل توليه الحكم، مما يرجح أنها نقطة تحول بالنسبة لديانة المغول في آسيا الوسطى. وزوجته هي كوكيجين إحدى أميرات المغول وقد أرسلها إليه قوبلاي خان يرافقها ماركو بولو من العاصمة المنغولية إلى الإلخانات. ويعد عهد غازان هو المدة التي تحول فيها المغول من حياة البدو إلى الاستقرار، وأصبحوا يندمجون ويذوبون في البيئة الجديدة التي عاشوا فيها. (م).

في شهر كانون الأول/ ديسمبر عام 1299، حقق غازان نصرًا لامعًا بالقرب من حمص. وترك ضابطين من ضباطه ينهبان دمشق وحلب. لكن الشعب ثار على هذا الاغتصاب، الأمر الذي عجّل بإعادة إحياء النظام المملوكي في سوريا. وبعد ثلاث سنوات، اجتاز غازان نهر الفرات على رأس جيشه، لكنه هُزم هزيمة نهائية هذه المرة، في شهر نيسان/ أبريل 1303 في مرج صوفر، ليس بعيدًا من دمشق، في الموقع نفسه الذي شهد انتصار الفاتحين المسلمين عام 634.

كان ابن تيمية يبلغ أربعين عامًا حين شارك في معارك مرج صوفر. هو فقيه محترم من المدرسة الحنبلية؛ أكثر مدرسة صرامة في المذهب السني. كان يدرّس في المسجد الأموي بدمشق، وكذلك في حي الصالحية عند سفح جبل قاسيون، حيث قطن كثير من المسلمين الذين طردهم الصليبيون ومن ثم المغول. ففي هذا الوسط الانتقامي أنشأ الشيخ عقيدة جهاد عدوانية غير مسبوقة. في البداية أبطل ابن تيمية التقليد النبوي بـ (الجهاد الكبير) ذي الطبيعة الدينية، كي يركز على جهاد واحد وحيد بالسلاح. وبذا وضع نفسه على النقيض من الشيخ أرسلان المفضل لدى نور الدين الذي كان يزاوج التأمل الصوفي مع المقاومة ضد الصليبيين.

وانتقد التبجيل الذي يحيط بضريح (الشفيع الأكبر) إلى دمشق، وكذلك الحج إلى القبور بصورة عامة. واتهم خصومه الصوفيين بتشجيع استهلاك الحشيش المؤدي إلى النشوة (الطرب). ففي نظر ابن تيمية: ((إن الحشيشة حرام يحد متناولها كما يحد شارب الخمر))[167]، من هنا هذه الإدانة غير القابلة للطعن: ((ومن استحل ذلك وزعم أنه حلال فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل مرتدًا))[168]. كان الشيخ يجمع بين الحركة والكلام حين يقوم بقيادة مريديه بغارات عقابية ضد (أماكن الفسق) في دمشق.

وبما أن غازان خان سني، برر ابن تيمية الجهاد ضد المغول عبر (التكفير)، الذي يعني حرفيًا (بالفرنسية) الخونة، كما استطعنا ترجمته بالمشابهة مع أطوار مسيحية مثل (لعنة) أو (الحرمان الكنسي). يتعلق الأمر في الواقع بالإنكار على مسلم الانتماء إلى الإسلام واعتباره (خائنًا)، وإذًا استحلال إراقة دمه.

(167) Ibn Taymiyya, Le Hachich et l Extase, Al-Bouraq, Beyrouth, 2001, p.138.

(168) المصدر نفسه، ص 118.

خلال ستة قرون، قام علماء الإسلام بتخفيف نزاعات بين المسلمين الواقعة تحت مصطلح (الفتنة). وعلى العكس من ذلك، شرّع ابن تيمية الجهاد ضد المسلمين (المزيفين) الذين وشي بهم بوصفهم أعداء أشد خبثًا للإسلام من الكفار (الحقيقيين). بيد أنه احتفظ بسلاح التكفير لهؤلاء الذين يدّعون أنهم من المذهب السني. ذلك لأن حقده لا يعرف حدودًا في مواجهة (أصحاب البدع) الموصومين بـ (أسوأ من النصرانيين)، سواء أكانوا شيعة أم إسماعيليين؛ دروزًا أم علويين.

انضم ابن تيمية الذي كان بذلك أيضًا منسجمًا مع فتاويه، في عام 1300 وعام 1305 إلى حملات ضد شيعة لبنان. لكنه بالمقابل، بقي في دمشق عام 1317 إبّان القمع العديم الرحمة للثورة العامة للفلاحين العلويين التي نشأت في جبلة، وامتدت على طول الجبال المجاورة. وكان من الممكن عدد العشرين ألف قتيلًا المفترض من قبل مؤرخي ذلك العصر، أن يكون أعلى: إذ إن الإقطاعيين السنّة المهتمين بالحفاظ على يد عاملة خانعة، هم الذين أقنعوا سلطان القاهرة بعدم إبادة العلويين.

أقلقت الجدالات التي غدت أكثر فأكثر عنفًا بين ابن تيمية والشيوخ الآخرين، ولا سيما حول مسألة الصوفية وتمجيد القبور، السلطات المملوكية التي طلبت منه أن يصمت. أنهى ابن تيمية الجامح حياته عام 1328 سجينًا في قلعة دمشق. ولا يستدل على قبره بسهولة في قلب جامعة دمشق، إذ هو ليس مطرحًا لأي تمجيد خاص، الأمر الذي كان ليرضي هذا الواعظ المرتاب.

لم تكن الأجيال اللاحقة لابن تيمية، وإن كانت متأخرة، مع ذلك أقل إذهالًا. ففي هذه النصوص وجد عبد الوهاب حجةً لصالح جهاد عائلة آل سعود ضدّ القبائل المسلمة في وسط الجزيرة. وأصبحت هذه العقيدة (الوهابية) الأساس الأيديولوجي للعربية السعودية وسياسة قوتها. يقلب الجهاديون الحاليون ابن تيمية ضدّ الوهابيين أنفسهم، المتهمين بأنهم خانوا المعتقد الصحيح.

فتح مفتاح (التكفير) صندوق باندورا الحرب الأهلية التي اكتسبت شرعيتها مؤخرًا في قلب الإسلام. لذلك انسجمت الحكومات الدينية في إيران والسعودية للمرة الأولى والوحيدة، في وصمهما اليوم القاعدة وداعش بـ (التكفيريين) اللتين أغلب ضحاياهما من المسلمين. يبقى أن ابن تيمية صاغ عقيدة معركته فعلًا بعد ما تجنب التهديد الوجودي للفرنج والمغول. ولم يحرك الفزاعة الخارجية إلا من أجل تركيز ضرباته بصورة أفضل ضد

(العدو الداخلي) للإسلام. من هنا شعبيته الحالية في مواقع الجهاديين المهووسين بتصفية المسلمين (السيئين).

تيمور الأعرج

فتح الانتصار المملوكي عام 1303 على المغول غير بعيد من دمشق قرنًا من سلام الحدود بالنسبة إلى سوريا. لكن بالطبع لم تسلم البلد من الاضطرابات الداخلية، من مثل الانتفاضة العلوية عام 1317 التي ذكرناها أعلاه. بالإضافة إلى كارثة الطاعون الذي فتك بالمنطقة عام 1348 . في هذا الوقت، أقام في سوريا الرحالة ابن بطوطة[169] المولود في طنجة. ووصف الحماسة الشعبية حيال مسجد الأقدام المبجل بسبب الأثر المفترض لقدمي موسى، على بعد بضعة كيلومترات جنوبي دمشق.

((وخرج جميع أهل البلد ذكورًا وإناثًا، صغارًا وكبارًا، وخرج اليهود بتوراتهم، والنصارى بإنجيلهم، ومعهم النساء والولدان، وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه، وقصدوا مسجد الأقدام، وأقاموا به في تضرعهم ودعائهم على قرب الزوال، وعادوا إلى البلد، وصلوا الجمعة، وخفف الله تعالى عنهم))[170] .

يضيف ابن بطوطة، كما لو أن هذه التضرعات الجامعة بين المسلمين والمسيحيين واليهود، كانت السبب في أن عدد موتى الطاعون في دمشق أقل بعشرين مرة مما هو عليه في القاهرة. والتحق بالقافلة المنظمة كل عام من أجل الحج إلى المكة. وكان السلاطين المماليك حرّاس الأماكن المقدسة في الحجاز، يولون هذه القافلة عناية كبيرة. وحين تغادر دمشق، فإنها (القافلة) تتوقف بضعة أيام في بصرى، المرحلة الأخيرة من أجل (زاد

---

(169) رحالة ومؤرخ وقاض وفقيه مغربي أمازيغي، لقب بأمير الرحالين المسلمين. خرج من طنجة سنة 725 هـ فطاف بلاد المغرب ومصر والسودان والشام والحجاز وتهامة ونجد والعراق وفارس واليمن وعمان، والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين الجاوة وبلاد التتار وأواسط أفريقيا. واتصل بكثير من الملوك والأمراء فمدحهم -وكان ينظم الشعر- واستعان بهباتهم على أسفاره. (م).

(170) Ibn Battuta, Voyages et périples choisis, Gallimard, Paris, 1992, p.6061-.

الطريق)[171] قبل صحراء شرقي الأردن.

كان القرن الرابع عشر، قرن السلام النسبي، بعيدًا من أن يكون عصر سوريا الذهبي. فقد اختتم بفيض صراع فصائل القاهرة، في دمشق: إذ دعم الأمراء المحليون عام 1939، سلطانًا يزعم أحقيته بالعرش المملوكي، غير فرج[172] البالغ من العمر 13 عامًا. قُمع التمرد، إلا أن البلد قسم بصورة خطيرة، في الوقت الذي كان تيمورلنك (تيمور الأعرج وفقًا للتسمية الفرنسية) يجمع فرقه العسكرية في الأناضول. وقدّم الغازي المسلم نفسه بوصفه وريث جنكيزخان، وكان أصلًا يحكم إمبراطورية شاسعة من سيواس إلى دلهي.

أرسل تيمورلنك إلى فرج كي يعترف به سيدًا أعلى. وكان الجواب إعدام السفراء الحاملين إنذارًا كهذا. انتشر جيش مملوكي أمام حلب عام 1400، لكن أفيال المعركة التي جلبها تيمورلنك من الهند هزمته. وامتلأت الخنادق المحيطة بالمدينة بالجثث؛ أهرام من الجماجم كانت تبرز من دخان الخراب. ودام نهبُ حلب من ثلاثة إلى خمسة عشر يومًا بحسب المصادر. أما الحامية التي جاءت فلم يكن مصيرها أقل من الذبح، وأثبت تيمورلنك بذلك أن في استطاعته تجاوز فظاعة هولاكو. وألحق أسوأ تعذيب بالحلبيين الميسورين، ولم يكن دفع فدية معتبرة، ليضمن بالضرورة إنقاذ الحياة. وفي خضم حمام الدم، سأل تيمورلنك العلماء المسجونين عن مسائل تتعلق بـ (الإفتاء في قضايا الضمير) الإسلامي، منزلًا الإعدام بكل من لم يعجبه جوابه.

وصار دور فرج أن يرسل سفراء إلى تيمورلنك. وكان (الأعرج) يعدم واحدًا ويرسل اثنين مجدوعي الأنف والأذنين، مع إنذار أخير جديد. أسرع السلطان المملوكي المهزوم عند أطراف دمشق إلى القاهرة كي يهدئ من نزاع الفصائل. نحن في شهر كانون الثاني/ يناير عام 1401، وكما حدث عام 1260 فإن عاصمة الأمويين هجرها سيدها بمواجهة غازٍ قادم من السهوب.

تمزق أعيان دمشق بين إرادة جزء من السكان بالمقاومة، وبين عزيمة حامية القلعة، والأمل بعدم التعرض إلى الفظائع التي ألحقت بحلب، واعتمدوا كذلك على مفاوض لا

---

(171) المصدر نفسه، ص 64.

(172) السلطان الملك الناصر زين الدين (أو الناصر الزين) أبو السعادات فرج (ولد في القاهرة 1388) ثاني ورابع سلاطين الدولة المملوكيه البرجية (الشركسية) وابن السلطان الظاهر برقوق مؤسسها. حكم على مرحلتين من 1398 إلى 1405 ومن 1406 إلى 1412. (م).

نظير له في شخص ابن خلدون[173] قاضي القاهرة الكبير السابق[174] الذي كان ضمن حاشية فرج، وقد أقام في دمشق بعد هروب السلطان. وكان ابن خلدون قد تبوأ مناصب بارزة رفيعة في فاس وغرناطة وبجاية. وهو على وجه الخصوص أحد أكبر مفكري عصره، ويعد (أبو) العلوم الاجتماعية في اللغة العربية.

نزل ابن خلدون بالحبل على طول الأسوار، مقلدًا من دون أن يدري حركة القديس بولص في بداية عصرنا. وأُدخل في خيمة تيمورلنك الذي حاول أن يلاطفه من دون أن يخشى المغالاة: ((إنك سلطان العالم، وملك الدنيا، وما أعتقد أنه ظهر في الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلكم ولست ممن يقولون في الأمور بالجزاف، فإني من أهل العلم))[175]. بين العاشر من كانون الثاني/ يناير والسادس والعشرين من شباط/ فبراير عام 1401، استقبل تيمورلنك ابن خلدون بصورة منتظمة. لكنه بدا أكثر اهتمامًا بمستقبله الشخصي من مصير دمشق. طرح عليه الغازي أسئلة دقيقة جدًا عن شمالي إفريقية، إلى درجة أن ابن خلدون ألف لعنايته شخصيًا (وصف بلاد المغرب) الذي كما كان واضحًا، كانت الفائدة منه عسكرية أكثر منها علمية.

كان ابن خلدون إلى جانب تيمورلنك في الرابع من شباط/ فبراير عام 1401 حين أعلن أعيان دمشق تسليم مدينتهم. وشهد حصار القلعة التي خضعت إلى وابل من المنجنيق ثم شهد استسلامها في الرابع عشر من شباط/ فبراير. وكان في ذلك الوقت في طريق عودته إلى القاهرة، حين تراجع تيمورلنك عن وعوده ودمّر دمشق في السابع عشر من آذار/ مارس. وصف ابن خلدون المؤرخ الدقيق المذبحة بهذه العبارات: ((فأمنهم السلطان تِمُر وحضروا عنده، وخرب القلعة وطمس معالمها، وصادر أهل البلد على قناطر من الأموال استولى عليها عد أن أخذ جميع ما خلفه صاحب مصر هناك، من الأموال، والظهر، والخيام، ثم أطلق أيدي النهابة على بيوت أهل المدينة، فاستوعبوا

---

(173) ابن خلدون مؤرخ من شمال أفريقيا، تونسي المولد أندلسي حضرمي الأصل. عاش بعد تخرجه من جامعة الزيتونة في مدن شمالي أفريقية المختلفة، حيث رحل إلى بسكرة وغرناطة وبجاية وتلمسان، كما تَوَجَّهَ إلى مصر، حيث أكرمه سلطانها الظاهر برقوق، ووَلِيَ فيها قضاء المالكية، وظلَّ بها ما يناهز ربع قرن (784-808هـ)، حيث تُوُفِّيَ عام 1406 عن عمر بلغ ستة وسبعين عامًا ودُفِنَ قرب باب النصر بشمال القاهرة تاركًا تراثًا ما زال تأثيره ممتدًا حتى اليوم ويعد ابنُ خَلدون مؤسسَ علم الاجتماع الحديث ومن علماء التاريخ والاقتصاد. (م).

(174) القاضي في العربية قاض ديني، وبالنسبة لابن خلدون هو من المذهب المالكي أحد أربعة المذاهب السنية المهيمنة في المغرب.

(175) Ibn Khaldoun, Le Voyage d Occident et d Orient, Sindbad, Paris, 1980, p.233-234.

أناسيها، وأمتعتها، وأضرموا النار فيما تبقى من سقط الأقمشة والخرثي، فاتصلت النار بحيطان الدور المدعمة بالخشب، فلم تزل تتوقد إلى أن اتصلت بالجامع الأعظم، وارتفعت إلى سقفه، فسال رصاصه، وتهدمت سقفه وحوائطه، وكان أمرًا بلغ مبالغه في الشناعة والقبح))[176].

يثير دمار دمشق المخربة بدم بارد، بعد شهر من انقضاء كلّ عداء، الدهشة أكثر من دمار حلب خلال عملية المعركة هذه. كانت دمشق ما تزال فريسة النيران، حين قرر تيمورلنك أن يجلو من سوريا، لكن ليس من دون أن يصحب معه أفضل الحرفيين الذين سجنهم جيشه، المخصصين لتزيين قصره في سمرقند. لم تمنع هذه الأعمال البغيضة ابن خلدون بعد مرور وقت طويل من أن يصف تيمورلنك بأنه: ((إنما هو شديد الفطنة والذكاء))[177].

كتب المسرحي السوري سعد الله ونوس (1941–1997) أول نص عربي دخل في فهرست المسرح الوطني الفرنسي. هو أحد الشخصيات العلوية التي قاومت بإطراد نظام الأسد، رافضًا أخذ طائفة برمتها رهينة لاستبداد أحد أفرادها. وقد كتب في مسرحية (منمنات تاريخية) عام 1994، حصار دمشق ودمارها في بداية عام 1401. وكانت صورة ابن خلدون (برهان الدين)[178] قاسية بصورة خاصة تجاه تلك التنازلات مع الجلاد. والاستشهاد في بداية هذا الكتاب وضعه ونوس على لسان ابن خلدون[179].

لم يتم تجاوز فظاعة الدمار الذي ألحقه تميورلنك خلال سبعة قرون، إلا عند طقوس عربدة الدم والتهديم التي تغرق فيها سورية منذ عام 2011. لكن (الأعرج) كان غازيًا عديم الرحمة، في حين أن بشار الأسد يعذب شعبه بنفسه. طاغية دمشق وريث موعود بالعرش من مؤسس السلالة، بينما سيد سمرقند لا يدين إلا لأسلحته بالإمبراطورية التي اقتطعها، ولا سيما أن تيمورلنك ترك سوريا بعد بضعة أشهر رهيبة، في حين أن الأسدين استأثرا بحكمها الذي سيبلغ قريبًا نصف قرن.

---

(176) المصدر نفسه، ص 236.

(177) المصدر نفسه، ص 246.

(178) Saadallah Wannous, Miniatures, Actes Sud, Paris, 1996, p.53.

(179) المصدر نفسه، ص 58.

سيأتي (أبناء خلدون) في هذا الزمن، لا يقارنون بموهبته الفكرية، لكنهم يتقاسمون معه محاباتهم للمستبد، وطموحه في (نصح الأمير). قد رأيناهم يتقاطرون إلى الأسد الأب والابن، من دون أية كلمة أو تعاطف تجاه الشعب السوري الواقع تحت النير. وسيتباهون بـ (سياسة رفيعة)، مبتعدين طوعًا عن حقوق الإنسان لعامة الشعب. لكن أحدًا منهم لن يترك وراءه إنجازًا خلا صرح جبنه الخاص.

7. محطات الشرق

لوقت طويل وجهت الإمبراطورية العثمانية مطامعها صوب أوروبا، ولا سيما بعد الاستيلاء على القسطنطينية عام 1453. ويجب الانتظار حتى عام 1516 كي يهاجم السلطان سليم[180] سوريا المملوكية. عاثت مدفعيته فسادًا في سلاح فرسان الأعداء، مقدمة له نصرًا حاسمًا في دابق؛ المكان نفسه حيث حشد الأمويون فرقهم العسكرية للذهاب في حملة ضد البيزنطيين. وكذلك في دابق، ثمة نبوءة رائجة جدًا لدى الجهاديين المعاصرين، تموضع معركة حاسمة لوقت قيام الساعة.

السلطان سليم الملقب بـ(الشجاع) من قبل مواليه، وبـ(الرهيب) من قبل خصومه، لم يكن مشغولًا بالإيمان بالآخرة. استولى خلال بضعة أشهر على (بلاد الشام) ومصر. أما سليل العباسيين الذي كان المماليك قد اعتقلوه بأمر الواقع في القاهرة كي يدّعوا انتسابهم إلى (خلافته)، فقد نقل إلى القسطنطينية. وبعد أجيال عدة، اخترع العثمانيون قصة خرافية أن عباسيًا نقل إليهم طوعًا (خلافته)، وألحقوا منذ ذاك الوقت لقب (الخليفة) بلقب السلطان الأكثر شعبية لأنه يحمل سلطة حقيقية.

وصارت صلاة الجمعة الآن، مرفوعةً باسم السلطان العثماني في الأراضي الواقعة تحت سيطرته كلها. وصار سليم إذًا -الذي شارك فيها في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1516 في مسجد الأمويين بدمشق- محتفىً به بوصفه (خادم الحرمين الشريفين) لمكة والمدينة. وأصبح تنظيم الحج انطلاقًا من دمشق، واحدًا من السمات الكبرى للسلطة العثمانية، بعدما كانت لأسلافهم المماليك في سوريا.

ذهب سليم من ثم، لإعادة السلام في مصر قبل أن يقيم في دمشق مجددًا من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1517 وحتى شباط/ فبراير 1518. وأشرف شخصيًا على بناء

---

(180) هو تاسع سلاطين الدولة العثمانية وخليفة المسلمين الرابع والسبعون، وأوّل من حمل لقب (أمير المؤمنين) من آل عثمان. حكم الدولة العثمانية من سنة 1512 حتى سنة 1520. يُلقب بـ (القاطع) أو (الشجاع) عند الأتراك نظرًا إلى شجاعته وتصميمه في ساحة المعركة، ويُعرف بالغرب بأسماء سلبية، فعند الإنكليز مثلًا سمي (سليم العابس) (بالإنكليزية: Selim the Grim)، نظرًا إلى ما يقوله بعض المؤرخين بأنه كان دائمًا متجهّم الوجه، وعند الفرنسيين عرف باسم (سليم الرهيب). (م).

مسجد عند ضريح المتصوف الأندلسي ابن عربي[181]، المتوفى في دمشق عام 1240. وضاعف السلطان من الصروح الدينية، وحضر بنفسه شعائر سفر قافلة الحج صوب مكة. وأدت اهتمامات سليم بدمشق إلى تسميته أحد أقرب ضبّاطه حاكمًا لها.

تمرد هذا الحاكم عند موت سليم في شهر أيلول/ سبتمبر 1520، ورفض الاعتراف بالسلطان الجديد. بيد أن ثورته سُحقت على أبواب دمشق في شباط/ فبراير عام 1521. وسلّمت المدينة للنهب ودفعت ثمن هذا التمرد خلال التنظيمات الإدارية الجديدة: إنها حلب التي غدت المركز العسكري والمالي لسوريا العثمانية، طاغيةً بصورة كبيرة على دمشق مدة ثلاثة قرون قادمة.

زمن القناصل

عقد فرانسوا الأول[182] مع سليمان الملقب بـ (القانوني)[183] حلفًا معكوسًا ضد عدوهما المشترك عائلة الهابسبورغ[184]. وقد بلور هذا التقارب الفرنسي العثماني القائم على المصالح المشتركة لوقت طويل علاقات القوة وتيارات التبادل في شرق البحر

(181) محي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي، أحد أشهر المتصوفين لقبه أتباعه وغيرهم من الصوفيين بـ (الشيخ الأكبر) ولذا تُنسب إليه الطريقة الأكبرية الصوفية. ولد في مرسية في الأندلس في شهر رمضان عام 558 هـ الموافق 1164م قبل عامين من وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني. وتوفي في دمشق عام 638هـ الموافق 1240م. ودفن في سفح جبل قاسيون. (م).

(182) هو ملك فرنسا (1515 - 1547م) قام عام 1539 م باستبدال الفرنسية باللاتينية في دواوين الدولة، وقرارات المحاكم وسجلات الحالات المدنية. شجع حركة الآداب والفنون، وأسهم في الدفع بحركة النهضة في فرنسا، جلب إلى بلاطه كثيرًا من الرسامين، (ولا سيما من إيطاليا، وعلى رأسهم ليوناردو دا فينشي). من أعماله الأخرى تأسيس الـ (كوليج دو فرانس) والمطبعة الوطنية. (م).

(183) سليمان خان الأول بن سليم خان الأول (بالتركية العثمانية: سلطان سليمان أول)؛ عاشر السلاطين العثمانيين وخليفة المسلمين الثمانين، وثاني من حمل لقب (أمير المؤمنين) من آل عثمان. بلغت الدولة الإسلامية في عهده أقصى اتساع لها حتى أصبحت أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت. وصاحب أطول مدة حكم من 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1520م حتى وفاته في 7 أيلول/ سبتمبر سنة 1566م خلفاً لأبيه السلطان سليم خان الأول وخلفه ابنه السلطان سليم الثاني. عُرف عند الغرب باسم سليمان العظيم وفي الشرق باسم سليمان القانوني لما قام به من إصلاح في النظام القضائي العثماني. (م).

(184) قدمت عائلة هابسبورغ كثيرًا من حكام الدول الأوروبية (النمسا وإسبانيا وهولندا وبلجيكا وإيطاليا) والمكسيك مع الإمبراطور ماكسيميليان الأول من المكسيك من القرن الثالث عشر وحتى أوائل القرن العشرين. وتستمد العائلة اسمها من قلعة بنيت حوالى 1020 في سويسرا. (م).

الأبيض المتوسط. ونتيجة لذلك في الواقع، أقيمت (تنازلات)، أي امتيازات قنصلية ممنوحة للدبلوماسيين وللمفاوضين الفرنسيين. وضمن هذا الاتجاه كتب السلطان سليمان إلى فرانسوا الأول عام 1545 : (بالتوافق مع الصداقة والوجدان القائمين بيننا في الماضي وحتى اليوم، بالطريقة نفسها كما جرت العادة لبضائعكم بالذهاب والإياب في بلادي الأمينة، فمن الآن وصاعدًا أيضًا لن يقمع أو يكدر أحد بعد اليوم. على العكس، بالتوافق مع الصداقة، فسيكون بمقدورهم الذهاب والإياب وممارسة تجارتهم بكل أمن وأمان)[185].

كانت المنافسة شديدة لإيجاد موطئ قدم في حلب، المدينة التي تمثّل أكبر المطامع من بين (محطات الشرق)، كما كان يشار إلى تلك الأماكن التي طبّقت فيها (الامتيازات). حلب المخدمة بمرفأ إسكندرون هي مرحلة كبرى على طريق بلاد فارس وبلاد الهند، مرورًا بيرفان في الشمال أو بغداد في الجنوب. وقد أسهم افتتاح قنصلية فرنسا في حلب عام 1562 بتصميم من مرسيليا المنخرطة جدًا في هذا المجال في أن تكون (حلب) بديلة مدينة البندقية في الشرق.

أثّرت هذه المنشآت القنصلية في تغيير جذري للممارسة الدبلوماسية التي كانت إلى ذلك الوقت مقتصرة على سفراء جوّالين، لكن الخلط بين النشاطات التجارية والقنصلية كان القاعدة، الأمر الذي غذّى توترات في قلب (الأمة الفرنسية)، أي الجالية المحلية لرعايا ملك فرنسا، وهناك لبسٌ آخر ناتج عن إنشاء إرسالية فرنسيسكانية في حلب[186] في وقت إنشاء قنصلية فرنسا نفسه. ولم يكن أمام القناصل إلا توسيع (حمايتهم) أبعد من مواطنيهم، وصولًا إلى إخوتهم في الدين من الكاثوليك.

ازدانت حلب ذات الأسواق المغطاة عند المحيط المحصن للمدينة، بتدشين (خان الجمرك) عام 1574 . يتضمن هذا الخان ذو 8000 متر مربع أكثر من 300 متجر، وفي الداخل سوقان اثنان من الحجر المقصول، مضاءان بعشر قبب. وبصورة عامة، سنّت قوانين لتنظيم الطرق في حلب مع تبليط إجباري لكل طريق رئيس، مضاء على حساب السكان.

---

(185) Henry Laurens, John Tolan et Gilles Veistein, L Europe et L Islam, Odile Jacob, Paris, 2009, p.243.

(186) استقر اليسوعيون في حلب عام 1624 والكرمليين والكبوشيين بعدهم بسنتين.

دخلت إنكلترا في منافسة لتأخذ بدورها أيضًا (امتيازات) عام 1580، من خلال إطلاق أسس (شركة المشرق) في العام اللاحق، وعبر فتح قنصلية في حلب عام 1583. ولم يستقر الهولنديون في حلب إلا في عام 1613، لكن سياستهم كانت واضحة في الأسواق السورية. بالإضافة إلى ذلك، خسرت فرنسا المنهكة في الحروب الدينية بذلك موقعها المهيمن لحساب إنكلترا. واستند كل واحد من هذه القناصل على متعاونين محليين مؤهلين عرفوا بـ truchement، وهي فرنجة للتعبير العربي (المترجمون).

قام حاكم حلب العثماني الإقطاعي الكردي علي جنبلاد بانشقاق عام 1605، نتيجة إعدام الباب العالي لعمه. واستطاع جنبلاد الاستيلاء على دمشق، ومن ثم الإمساك بسوريا مدة عامين قبل أن يُهزم ويعدم. لجأت عائلته إلى الجبل اللبناني الشوف تحت حماية الأمير الدرزي فخر الدين[187] الممثل المحلي لحاكم دمشق.

وفي حالة نادرة جدًا للانتقال إلى الدين الدرزي، عرّب الجنبلاد اسمهم إلى جنبلاط، وأصبحوا من العوائل الدرزية الرئيسة في الشوف. ويجاور بيت جنبلاط الذي تركوه في حلب، الحي اليهودي، حي بحسيتا في المدينة القديمة، وازدادت الطائفة اليهودية بصورة ملحوظة، لسبب جزئي من واقع القدوم المتزايد لليهود المطرودين من إسبانيا. وازداد عمليًا عدد المباني في بحسيتا لمرتين أي تضاعف بين عامي 1570 و1683. في حين فضّل السكان المسيحيون الامتداد خارج الأسوار عند نشوء حي الجديدة.

قام فخر الدين بدوره برفع راية الثورة، ممسكًا عام 1623 بحاكم دمشق. وعُززت القلعة المملوكية التي تطل على موقع تدمر تحت حكمه، وهي تحمل دائمًا اسمه. ولم يسيطر على هذا العصيان إلا مع مقتل فخر الدين في القسطنطينية عام 1635. وكان الراهب البروفنسالي فرانسوا دو شاستوي الذي استقر في لبنان وحظي بالاحترام يطمئن إخوته في الدين حول ((سياسة السلطان الذي -في الوقت الذي قوضت فيه سلطة

---

(187) الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير (980 - 1044 هـ / 1572 – 1635م) هو أحد أمراء لبنان من آل معن الدروز الذين حكموا إمارة الشوف من حوالى عام 1120 حتى عام 1623 عندما وحد فخر الدين إمارات الساحل الشامي جميعها. يُعد فخر الدين الثاني أعظم وأشهر أمراء بلاد الشام عمومًا ولبنان خصوصًا، إذ أنه حكم المناطق الممتدة بين يافا وطرابلس باعتراف الدولة العثمانية ورضاها، وينظر إليه كثير من المؤرخين على أنه أعظم شخصية وطنية عرفها لبنان في ذلك العهد وأكبر ولاة الشرق العربي في القرنين السادس عشر والسابع عشر. يُعد فخر الدين الثاني الأمير الفعلي الأول للبنان، إذ أنه سيطر على الأراضي التي تضم مناطق لبنان المعاصر بحدوده الحالية جميعها، بعد أن كان يحكمها قبل عهده أمراء متعددون، وبهذا، فإنه يُعتبر (مؤسس لبنان الحديث). (م).

فخر الدين- لا يخشى حربًا مقدسة ضد السكان الذين يغذون بصورة واسعة خزينة الإمبراطورية))[188].

الملك الشمس في المشرق

وُضع هؤلاء الموارنة الذين طمأنهم ناسك فرنسي في ما يخص نوايا السلطان العثماني تحت (حماية) لويس الثالث عشر عام 1639، ولم يعترف الباب العالي مطلقًا بهذا الإعلان الأحادي الجانب؛ إعلانٌ نجم عن تأويل توسعي على الأقل لـ (الامتيازات) حيث الحماية القنصلية التي تخص مبدئيًا (الأمة) الفرنسية وموفديها، ستغطي من الآن فصاعدًا (أمة) كاثوليكية تتكون من رعايا عثمانيين.

جدد لويس الرابع عشر (حمايته وحراسته الخاصة) للموارنة عام 1649 و1701، مشجعًا في الوقت نفسه في المشرق القيام بمهمات تبشيرية مختلفة. وقد استهدف التبشير مسيحيي الشرق، ذلك لأن كل (مرتد عن الدين) في الوسط الإسلامي كان الباب العالي سيحاربه بحدة. عرفت كل واحدة من الكنائس (الأرثوذكسية) بين عامي 1656 و1740، نتيجة ذلك انشقاقًا (كاثوليكيًا) (سريان وأرمن وروم). وحصل فرانسوا بيكيه قنصل فرنسا في عام 1662 على اعتراف القسطنطينية بأول أسقف سرياني كاثوليكي للمدينة؛ من هنا الحملة العنيفة للأرثوذكس ضد (بطريرك الفرنسيين).

تسمى هذه الكنائس المنضوية تحت روما بـ (البابوية). ولكل واحدة منها بطريركها الخاص الذي يعترف بسلطة البابا، على غرار النموذج الماروني الساري بالفعل. كانت حيوية الموارنة الديموغرافية والاقتصادية في آن معًا، واضحة بصورة خاصة في حلب، حيث العوائل الكبرى تهب طوعًا أديرة وكنائس في لبنان. وكان للحي المسيحي في حلب سوقه الخاص يوم الأحد، المتميز من سوق الجمعة المقام (تحت القلعة). وغدا تلميذٌ سابق حلبي من الكلية التي تحمل اسم البابا أوربان في روما بطرس ديب في عام 1667 أستاذًا للغة العربية في الكوليج دو فرانس.

---

(188) Robert Laurent-Vibert, Routiers, Pèlerins et corsairs aux échelles du Levant, Georges Grès, Paris, 1923, p.246.

أنشأ جان باتيست كولبير عام 1670 (شركة المشرق) وفقًا للنموذج الإنكليزي، مع مقر في باريس. وأحس تجار مرسيليا باستبعادهم من المؤسسة التي لم تتوصل إلى النجاح ولا من باب أولى إلى قلب التيار الداعم للبريطانيين. وصُفيت الشركة عام 1693 بعد موت كولبير بعشر سنوات. وخلال ذلك الوقت، اضطر قناصلة فرنسا وهولندا في حلب إلى الانتقال خارج خان الجمرك حيث ينشط فيه 50 من التجار الإنكليز.

وصف لوران دارفيو قنصل فرنسا في حلب من عام 1680 إلى 1685 المدينة بأنها (الأكبر والأجمل والأغنى في الإمبراطورية العثمانية بعد القسطنطينية والقاهرة)[189]، في هذه (المدينة ذات التجارة العظيمة) أشار إلى أن (الفرنسيين فيها منذ زمن طويل، قد أقاموا تجارة أغنت عددًا كبيرًا)[190]. لم يكن العثمانيون (غاضبون البتة) من التبشير الكاثوليكي في صفوف مسيحيي الشرق لأنه (عبر تعليمهم أن ما لله لله، فإنهم يتعلمون أن ما لقيصر لقيصر)[191]. وفي ما يخص الحلبيين فإنهم (يحبون الأجانب الغرباء والفرنسيين أكثر من غيرهم، هم بارعون في التجارة، ولكنهم أصحاب نية حسنة)[192].

بدءًا من عام 1691، مُنع القناصلة الفرنسيون من ممارسة التجارة الخاصة، وذلك لكي يخدموا في أماكن إقامتهم الملك فحسب و(الأمة الفرنسية). وقد تمت معاملة القناصلة كموظفين حين لم تعد غرفة تجارة مرسيليا تُستشار من أجل تسمية صاحب المنصب في حلب. وبالمقابل، حافظ المرسيليون على هيمنة أعضائهم التجاريين في المدينة. ولا شك في أن غياب منافسيهم، سكان منطقة لانغدوك عن المدينة، نجم عن اشتراط وجود شهادة (كثلكة): أغلقت محطات الشرق في وجه البروتستانت بالنسبة إلى فرنسا التي ألغت مرسوم نانت.

في نهاية القرن السابع عشر هذا، كان المسيحيون يؤلفون 5 في المئة من سكان حلب في بداية العصر العثماني، مشكلين خمسًا بذلك وأغلبهم من الكاثوليك. وفي عام 1706، أنشأ بطريرك الروم الأرثوذكس أثاناس دبّاس أول مطبعة باللغة العربية التي نشطت

(189) Laurent D Arvieux, Mémoires du chevalier d Arvieux, Delespine, Paris, 1735, p.411.

(190) المصدر نفسه، ص 418.

(191) المصدر نفسه، ص 420.

(192) المصدر نفسه، ص 441.

خمسة أعوام قادمة. وكان يجب الانتظار حتى عام 1726 كي يسمح مفتي القسطنطينية بافتتاح مطبعة في عاصمة الإمبراطورية.

أخذ سطوع نجم حلب أشكالًا أخرى أيضًا أكثر التواءً، كما في حال حنا دياب[193]. فقد رافق هذا الماروني متعدد اللغات تاجرًا فرنسيًا حتى مدينة فيرساي عام 1709، حيث استُقبل في بلاط لويس الرابع عشر. والتقى في هذه المناسبة بأنطوان غالان الذي أدرج في النسخة الفرنسية لألف ليلة وليلة التي انتهت عام 1717، دزينة حكايات جلبها دياب من بينها علاء الدين وعلي بابا. هكذا أسهم مسيحيٌّ من حلب بصوغ خيالنا (الشرقي).

حظوظ الدهر وتقلباته

غالبًا ما تكون التجارة في المشرق شأنًا عائليًا. وسلالة رادكليف من لندن هي أحد السلالات الرئيسة للتجار الغربيين في حلب. على غرار أخيه إدوارد الذي أنشأ في حلب من عام 1707 إلى 1717 أساس ثروته، فإن أفراد آخرين من عائلة رادكليف سيتقاطرون إلى حلب حتى عام 1733 في خان الجمرك. انتقلت راية الشركة العائلية إلى الجيل اللاحق من خلال جون رادكليف الحديث التخرج من إيتون الذي استقر في حلب عام 1758. ونستطيع ذكر، بترتيب شبيه، المنشآت المرسيلية لعائلات سولمون وري أو كروزيه.

تركزت التبادلات مع محطات الشرق حول صناعة النسيج، مع استيراد أوروبا الحرير أكثر من القطن وتصديرها بدورها الصوف والمنتجات المشتقة عنه. وأخذت (الليفانت كومباني) أو شركة المشرق –وهي أكثر صلابة من شبيهتها الفرنسية التي لم تدم طويلاً– على عاتقها تكاليف وكلائها الإنكليز في الإمبراطورية العثمانية، ومن بينها قنصلية حلب؛ فمولتهم من خلال ضريبة مقتطعة على تجارة (الدولة) الإنكليزية، لكن ليس من دون أن تثير مطالبات متصاعدة حيال الدبلوماسية التي وصفت أنها كثيرة (التكلفة). ليست حلب المدينة الوحيدة حيث تصبح فائدة الجهاز الدبلوماسي الواضح إبّان الأزمات، موضع تساؤل في أثناء المراحل الهانئة.

دار تقويم نشاطات منتجات حلب حول الـ (راكولتا)، التعبير الإيطالي الذي غدا

(193) Hanna Dyab, D Alep â Paris, Actes Sud, Paris, 2015.

رائجًا للحديث عن قطاف شرانق الحرير. كانت هذه العملية تجري في بداية الصيف مع الحرير المتوافر أيضًا في الخريف. لأيام بل أسابيع كانت المساومات تُنثر في خانات حلب. لم يتعامل الأوروبيون مباشرة مع منتجي الحرير، لكن مع تجار آخرين حلبيين. وكانت البواخر القادمة من إسكندرون تعود محملةً بالنسيج السوري في شهر كانون الأول/ ديسمبر أو كانون الثاني/ يناير. وكانت الدورة نفسها تعاد في العام اللاحق، وكانت المدة الوسطية لإقامة التجار الغربيين في حلب حوالي عقدًا من الزمن.

طوّر التجار الإنكليز مقايضة ملائمة لهم بصورة خاصة. بينما، بالكاد باع منافسوهم الفرنسيون، على الرغم من استثمارهم المالي، برأس المال (التكلفة) أو وجدوا من هم قادرين على السداد في السوق الأوروبي. وأدى انخفاض أسعار الحرير في فرنسا عام 1738 إلى انهيار شركات فرنسية عدة في حلب. وأبعد من مرفأ مرسيليا، فقد تأثرت صناعة النسيج في ليون بأكبر حجم من صفقات حلب.

كانت مئات الكيلومترات التي تفصل حلب عن مرفأ إسكندرون تحت وطأة تهديد اللصوص الأكراد والتركمان. لهذا نظّم التجار قوافلَ من حوالى 300 جمل من أجل نقل بضائعهم. وبدءًا من عام 1778، أصبح عدم الأمان إلى درجة حشد 2000 جمل في قوافل محمية بقوة.

ما كان أشد خطرًا من قطّاع الطرق، هي الجوائح المتكررة للطاعون[194] في حلب (عام 1742، و1744، و1761– 1762)، الأمر الذي دفع (الأمة الفرنسية) إلى أن تقتصر على البقاء في سراياها كي تجنب نفسها الكارثة. لكن مجاعة عام 1757 – 1758 هي التي أدت إلى الأسوأ (تعقيم التجارة)، وفقًا لقنصل فرنسا في حلب. وقد وصف الشوارع (المنتثرة بالفقراء الذين يموت منهم من 15 إلى 20 كل يوم من الجوع والبرد) من دون عد (الفظاعات الهائلة التي لم تقتصر على الدوس على الناس بطريقة عديمة الإنسانية)[195].

---

(194) جائحة الطاعون التي دمرت البروفانس عام 1720 هي بصورة عامة تعزى إلى عدوى لمخزون من القماش من دمشق الذي حمل في صيدا وأبحر إلى مرسيليا متفاديًا إجراءات العزل.

(195) Karsumi Fukasawa, Toilerie et commerce du Levant, CNRS, Paris, 1987, p.131.

حلب مدينة ممأسسة جدًا، ليس فقط، كما رأينا بين جماعاتها الطائفية المختلفة، سواء أكانوا مرتبطين أم لا بقنصلية، لكن أيضًا بتعاونيات مهنية (حيث يتجاور المسلمون مع المسيحيين في كل شيء إلا لدى اللحام) في لجان الحي، وفي الأخويات الدينية. وإلى هذا تضاف مجموعتان ذات مصالح خاصة؛ الشرفاء أي المنحدرين بنسبهم المفترض إلى النبي، والإنكشاريين أي الحرفيين المدرجين في الميليشيات. شرفاء وإنكشاريون يدافعون في ما يدافعون عن مزية ألا يُحكم عليهم إلا من قبل أقرانهم لا من السلطة العثمانية.

لم يتردد سكان حلب هؤلاء –الأقوياء بهويتهم وتعاضدهم– في الاحتجاج ضد الباشا الذي يحكم باسم الباب العالي، وبذلك أدت مجاعة الخبز عام 1751 إلى شغب قامت خلاله عشرات النسوة بالصعود إلى أعلى مئذنة مسجد الأمويين من أجل شتم الباشا بصورة أفضل. وثأر هذا الأخير عبر شنق ثلاث زعيمات وجلد أخريات. في عام 1770، أدى حشد الشرفاء إلى منع دخول الحاكم العثماني إلى حلب خلال 40 يومًا.

صارت المسألة أكثر خطورة في كانون الأول/ ديسمبر 1775. إذ ساند الإنكشاريون تمردًا شعبيًا ضد علي باشا الذي أدت الاغتصابات إلى الإجماع ضده بعد مدة قصيرة من تعيينه. منع القاضي إقامة الأذان وساند الثورة بسلطته القانونية القضائيةن وكان على الحاكم أن ينسحب من حلب تحت استهزاءات الحلبيين: (أهانه بعضهم بالشتائم، وبصق بعضهم الآخر في وجهه؛ أشار الأطفال اليهود بأصابعهم إليه داعين إياه علي الكلب)[196].

في عام 1784 تخلصت حلب مرة أخرى من حاكمها العثماني، وعاشت سنةً تحت الإدارة المشتركة للشرفاء والإنكشاريين. في عام 1791 كان على علي الباشا المحاصر في سراياه لأربعة أيام أن يترك حلب. وفي عام 1804 لم يكن لخلفه الآتي سلطة فعلية، فقد توازع الشرفاء والإنكشاريون مرة أخرى المقدرات البلدية. وبذلك تقلصت السلطات العثمانية باللعب على وضع الشرفاء ضد الإنكشاريين عام 1805، ومن ثم بإطاحة حلفائهم المحليين عام 1813.

---

(196) Herbert Bodman, Political Factions in Aleppo, 17601826-, University of North Carolina Press, Chapel Hill, 1963, p.113.

وجد الشرفاء والإنكشاريون أنفسهم جنبًا إلى جنب في تمرد تشرين الأول/ أكتوبر عام 1819 . استدعي ثلاثة باشوات لنجدة الحاكم وأحاط 9000 عسكري بالمدينة. وبعد حصار لمدة 101 يومًا استسلم الثوار. كان القمع رهيبًا من أجل معاقبة -لآخر مرة- هذه المدينة المتمردة جدًا. وحمل زلزال آب/ أغسطس عام 1822 الضربة القاضية لحلب، فوجدت دمشق موقعها المركزي مع مرفأ بيروت منفذًا لها على البحر الأبيض المتوسط.

مقاومات حلب

ولد في حلب لدى عائلة من الشرفاء عبد الرحمن الكواكبي؛ أحد أكبر مفكري النهضة. أكمل الكواكبي الذي كان والده يدرس في مسجد الأمويين عدّته الأدبية والدينية بشهادة في العلوم البحتة واللغات الأجنبية، وفي مقدمتها اللغة الفرنسية. وفتح في حلب مكتبًا لمساعدة أشد الناس فقرًا في تدبيج شكواهم إلى الإدارة العثمانية.

نشر الكواكبي في حلب في عام 1877 ثم في عام 1879 أسبوعيتين باللغة العربية، وقد أغلقتهما السلطات؛ الأسبوعية الأولى بعد 16 عددًا، والثانية بعد 10 أعداد. وطارده بلا توقف عملاء (السلطان الأحمر) عبد الحميد الثاني[197] الذي سجن الكواكبي في مناسبتين، ونجا من محاولة اغتيال وشهد مصادرة أملاكه. وأثار أحد اعتقالاته احتجاجات عام 1899 ، وأدى إلى أول تظاهرة نسائية في العالم العربي الإسلامي.

يجسّد الكواكبي في الوقت نفسه الانتمائين إلى النهضة (القومية) و(الإسلامية) التي استطاع المتناظرون اللاحقون وحدهم أن يقدموهما باعتبار أنهما متعارضتان بصورة لا يمكن دحضها. دعا الكواكبي إلى فصل صارم بين الدين والسياسة، ولكن أيضًا إلى خليفة منتخب يقوم بمهمة إدارة الأماكن المقدسة. وإذ خضع إلى المنفى في القاهرة عام 1900 فقد مات فيها مسمومًا بعد عامين، من دون شك بأوامر السلطان عبد الحميد الثاني الذي سيلحقه العقاب حتى النهاية.

---

(197) هو خليفة المسلمين الثاني بعد المئة والسلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية، والسادس والعشرون من سلاطين آل عثمان الذين جمعوا بين الخلافة والسلطنة، وآخر من امتلك سلطة فعلية منهم. تقسم مدة حكمه إلى قسمين: الدور الأول وقد دام مدة سنة ونصف ولم تكن له سلطة فعلية، والدور الثاني وحكم خلاله حكمًا فرديًا، يسميه معارضوه (دور الاستبداد) وقد دام مدة ثلاثين سنة. (م).

ولد إبراهيم هنانو عام 1869 لعائلة كردية في ريف حلب، وفرض نفسه في خريف عام 1919 بوصفه زعيم مقاومة الاحتلال الفرنسي في شمال غرب سوريا. ودامت حرب العصابات التي قادها حتى تشرين الأول/ أكتوبر عام 1921، حين وقع عل اتفاق بين فرنسا وتركيا حرمه من قاعدته الخلفية والدعم الخارجي. وحُكم عليه في محكمة عسكرية فرنسية في شهر آذار/ مارس عام 1922، ودافع عن هنانو سعد الله الجابري، وهو شخصية وطنية أخرى من حلب. دعا هنانو إلى وحدة سورية ضدّ المستعمر حتى وفاته عام 1935. وأصبح الجابري أول رئيس حكومة لسورية المستقلة عام 1943.

وكذلك مثل ما جسّدت حلب مقاومة الاستبداد العثماني بالكواكبي، والاحتلال الفرنسي بهنانو، فقد تطورت في هذه المدينة في 1979 –1980 حركة احتجاج واسعة ضد نظام الأسد. بدأ كل شيء عبر هجوم تفجيري إسلامي في حزيران/ يونيو 1979 في حلب، ما حفزّ موجة احتجاجات أوسع ضد الأسد. وصارت عاصمة سورية الاقتصادية هدفًا لاستعادة دقيقة قامت بها القوى الحكومية، شارعًا فشارع بيتًا فبيت. دامت (معركة حلب) هذه التي أطلقت في نيسان/ أبريل 1980 أكثر من عام، وأدت إلى حصيلة تقدر بألفي قتيل.

استعمالُ القلعة من أجل إرسال الهليكوبتر والحملات العقابية ضد المدينة المتمردة الواقعة في الأسفل، سيسجل هذا القمع في المكان (تطل السلطة على السكان الذين يجب تحطيمهم) كما في الزمان لكل عمليات (تهدئة) حلب: عمليات القمع منذ العصور الوسطى تسير باقتران ما بين الحامية العسكرية الواقعة في القلعة والوحدات المنتشرة حول المدينة القديمة. وابتزازُ أنواع شرطة الأسد السياسية المختلفة في مواجهة المقاولين الخاضعين (للشراكة)، يرنّ كذلك صدىً للابتزاز الذي مارسه الجنود العثمانيون لعقود خلت من قبل: (ارتكب هؤلاء الجنود كل موبقة ممكنة؛ أجبروا الحرفيين على بوصفهم شركاء لهم، وهاجموا الناس بصورة واسعة)[198].

رغب بشار الأسد عند وراثته السلطة في حزيران/ يونيو عام 2000، في استرضاء مدينة حلب التي لطالما عانت تحت حكم أبيه. وكان من المفترض أن يغري التركيز على (التحرير) الاقتصادي البرجوازية المحلية، حتى لو كان هذا (التحرير) لصالح المقرّبين من الأسد خصوصًا. من ناحية أخرى، سمح إنشاء منطقة تبادل حرة مع تركيا في كانون

(198) Annales d Ibn Jumaa pour l année 174041- cité in Henri Laoust, Les Gouverneurs de Damas, Institut Français de Damas, Damas, 1952, p.247.

الثاني/ يناير عام 2007، لكل مقاولي حلب أن يعقدوا الصلات مع غازي عنتاب وأن يستفيدوا من النمو التركي.

بدت حلب أكثر هدوءًا من حمص أو حماة في بداية الاحتجاجات ضد الأسد في ربيع عام 2011 وصيفه. لكن غارة دموية على مخيم حلب في أيار/ مايو 2012 أدّت إلى تظاهرات غير مسبوقة وقُمعت بالدم. وفي الصيف اللاحق، استولى تحالف الألوية المتمردة على الأحياء الغربية والجنوبية. واحتدت المعارك في داخل المدينة القديمة التي سيطرت عليها القوى الثورية وصولًا إلى أسفل القلعة.

لا يتكرر التاريخ في حلب، إنها تحترق أمام أعيننا. نظام الأسد الغاضب نتيجة خسارة المدينة القديمة، أطلق نارًا حارقة على الخانات القروسطية التي غدت من وقتها منزوعة الأحشاء مكلسة ومسودة. استعادت القلعة وظيفتها كمنصة لأكثر الغارات تدميرًا والقناصين عديمي الشفقة، والأكثر تصلبًا. وفي نيسان/ أبريل 2013 هدمت مدرعات الجيش مئذنة المسجد الأموي لأنها تزعج القصف الموالي. وحيال تهديم كهذا، حاولت حفنة من المحاربين المواطنين إنقاذ ما يمكن من تراث حلب بالوسائل المتوافرة[199].

وفي كانون الثاني/ يناير عام 2014 أطلقت الفصائل المتمردة (الثورة الثانية)، وهذه المرة ضد جهاديي داعش الذين سيطردوا من المدينة. اختار نظام الأسد هذه اللحظة من أجل إطلاق حملة قصف بالبراميل المحملة بالـ (ت. ن. ت.) والمحشوة بالرصاص على ارتفاع منخفض. غدت مناطق بأكملها بمنزلة حطام، وانخفض عدد سكان حلب المتمردون من مليون إلى أقل من الثلث. كان تدخل روسيا المباشر في الحرب في أيلول/ سبتمبر 2015 قاتلًا بصورة خاصة في حلب، حيث غدت المستشفيات والمدارس مستهدفة بصورة منهجية.

وفي شهر آب/ أغسطس 2016، كسر الحصار الذي فرضه نظام الأسد وحلفاؤه بسبب المعارك المشتعلة. وحكم الكرملين بعدم التسامح مع هذا الجهد الثوري، ووقع وابل من النار على الأحياء التي تسيطر عليها المعارضة. وما إن فكّ الحصار حتى أعيد بصرامة أكبر. لكن خط الجبهة الذي قسم المدينة، قسّم العائلات أيضًا، فالدم يجر دمًا أكثر دائمًا. ووصل العنف إلى درجة لا يمكن تصورها، ولم يستطع الدبلوماسيون والصحفيون والإنسانويون ترجمته بكلمات واضحة. ازداد تدخل روسيا في خريف 2016،

---

(199) Jean- Pierre Filiu, Le Gardien d Alep XXI, n 24, automne 2013.

في حين حشدت إيران المنخرطة على الأرض بفرقها الصادمة شركاءها القادمين من لبنان والعراق ومن أفغانستان وباكستان أيضًا. الأمم المتحدة عاجزة وغير قادرة على التدخل أو فرض وقف إطلاق نار، أو فرض أدنى احترام لحقوق الإنسان. وترافق انهيار مناطق المتمردين مع نزوح جماعي للسكان، الأمر الذي ترك وراءهم أماكن مدمرة. أصبحت حلب واحدة من أقدم مدن البشرية مرادفةً للرعب والعجز.

الناس كلهم خاسرون في حلب كلها؛ الجميع.

8 . الحامي عبد القادر

أبحر نابليون بونابرت إلى الإسكندرية في تموز/ يوليو عام 1798 على رأس ثلاثين ألف محارب. هذه (الحملة على مصر) قررتها حكومة المديرين[200] الفرنسية من أجل ضرب إنكلترا على طريق الهند. بينما، في ما يخص طموح الجنرال المتوّج بهالة حملته على إيطاليا، فقد كان يتصور لا أقل من مهاجمة الإمبراطورية العثمانية من الخلف، جامعًا بذلك بين الجمهورية الفرنسية مع (دولة ثالثة) شرقية ضد استبداد القسطنطينية.

استولى بونابرت على غزة ثم على يافا، لكنه تلكأ عند أبواب عكا التي حاصرها في شهر أيار/ مايو 1799. بعيدًا عن أن يتابع طريقه نحو دمشق وحلب، اضطر الجنرال أن يعود بطريقه إلى الخلف صوب مصر. وذهب مجددًا إلى باريس من أجل إطاحة حكومة المديرين الفرنسية، وإمساك السلطة بنفسه. استسلمت الفرقة العسكرية الفرنسية في مصر في آب/ أغسطس 1801 بمواجهة هجوم منسق بين لندن والقسطنطينية.

لكن السلطة العثمانية كانت بصورة مستمرة في خطر في مصر، حيث فرض جنرال ألباني[201] مبعوث من قبل الباب العالي نفسه حاكمًا عام 1805. تعزز استقلال سيد مصر بوصفه أمرًا واقعًا إلى درجة أنه أرسل ابنه إبراهيم عام 1831 لغزو سوريا. واستسلم حاجز عكا هذه المرة، ووجدت سوريا نفسها كلها تحت سيطرة إبراهيم بدءًا من صيف 1832.

(200) حكومة المديرين، أو مجلس الإدارة، أو حكومة الإدارة هو شكل الحكومة الذي اعتمد من قبل الجمهورية الفرنسية الأولى. استمرت هذا الحكومة من 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1795 (4 برومير، السنة الرابعة) إلى 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1799 (18 برومير، السنة الثامنة). تألفت من خمسة مديرين أوكلت إليهم السلطة التنفيذية. أنشأت هذه الحكومة من قبل الجمهوريين المعتدلين في أعقاب اتفاق ترميدور. امتاز هذا النظام، المستوحى من البرجوازية، بإعادة تطبيق نظام الاقتراع الذي يمكن من خلاله انتخاب أعضاء الهيئتين التشريعيتين وهما: مجلس الخمسمئة، ومجلس الشيوخ. وقد امتاز النظام أيضًا بالتغيير السنوي لثلث أعضاء الهيئتين التشريعيتين وبتغير واحد من المديرين الخمسة. (م).

(201) المقصود محمد علي باشا الملقب بالعزيز أو عزيز مصر، مؤسس الأسرة العلوية وحاكم مصر ما بين عامي 1805 إلى 1848، ويشيع وصفه بأنه (مؤسس مصر الحديثة) وهي مقولة كان هو نفسه أول من روج لها واستمرت بعده بصورة منظمة وملفتة. استطاع أن يعتلي عرش مصر عام 1805 بعد أن بايعه أعيان البلاد ليكون واليًا عليها، بعد أن ثار الشعب على سلفه خورشيد باشا، ومكّنه ذكاؤه واستغلاله الظروف المحيطة به من أن يستمر في حكم مصر لكل تلك المدة، ليكسر بذلك العادة العثمانية التي كانت لا تترك واليًا على مصر أكثر من عامين. (م).

دفع المصريون الفرصة المواتية حتى قلب الأناضول، في كانون الأول/ ديسمبر عام 1832، الأمر الذي جعل العثمانيين يقبلون تدخلًا روسيًا عسكريًا. وعارضت بريطانيا العظمى التي كانت قلقة من الضعف العثماني كما من الإقحام الروسي، دعم فرنسا محمد علي. وأدت مناورتان دبلوماسيتان إلى اتفاق في ربيع 1833 يعترف بوضع يد مصر على سوريا، لكن فقط من أجل تطويقها بصورة أفضل. واعتاد المستشارون على طرح هذه الأزمة تحت اسم (المسألة الشرقية).

لامارتين وسوريا

علم الكاتب ألفونس دولامارتين Alphonse de Lamartine في شهر نيسان/ أبريل 1833 خلال رحلته إلى الشرق التي دامت أكثر من عام، بانتخابه في مجلس النواب. كان ما يزال مسحورًا بإقامته الحديثة جدًا في دمشق: ((ليس ثمة مكان على الأرض يذكّر بالجنة أكثر. السهل الواسع والخصب، والفروع السبعة للنهر الأزرق الذي يرويه، والتطويق المهيب للجبال، والبحيرات المبهرة التي تعكس السماء على الأرض، الموقع الجغرافي بين بحرين، كمال المناخ، كل هذا يدل على الأقل على أن دمشق كانت من أوائل المدن التي عمرها بنو البشر))[202].

ترك لامارتين سوريا مقتنعًا بعدم شعبية إبراهيم: ((كان ضباط وجنود باشا مصر، المرتدين ملابس تقريبًا على الطريقة الأوروبية، يجرّون سيوفهم على أرصفة السوق الكبير؛ كنا نصادف كثيرًا منهم الذين يرهبوننا ويتحدثون الإيطالية؛ هم متأهبون في دمشق؛ وينظر الشعب إليهم برهبة، كل ليلة من الممكن أن يندلع الشغب))[203]. كان منبهرًا بـ (العرب غير المنظمين) الذين وصفهم بـ (يشبه بعضهم تجمعًا لملوك أو لبطاركة، وبعضهم الآخر يشبه قطاع طرق الصحراء)[204].

---

(202) Alphonse de Lamartine, Voyages en Orient, Folio, Paris, 2011, p.608.

(203) المصدر نفسه، ص 598.

(204) المصدر نفسه، ص 601.

استخلص لامارتين من هذه التجربة على أرض الواقع رؤية نستطيع وصفها بـ (السورية) للمسألة الشرقية. مسلحًا بتجربته الدبلوماسية الخاصة[205] انتقد لامارتين في مجلس النواب انحياز فرنسا لمصر: ((إبراهيم، أيها السادة، لا يمدّن بل يغزو، إنه ينجز الانتصارات، وهو يُخضع بعبقريته وجرأته شعوبًا مرتعدة لا تهتم باسم قامعها، لا يهتم إلا بالجنود؛ وليس لديه إدارة إلا لجيشه))[206].

مشجّعًا في عام 1834 (تحالفًا مقدسًا للحضارة)[207]، ضبابيًا على أقل تقدير، شذّب لامارتين موقفه بعد خمس سنوات عبر نقد لاذع للوضع الراهن العزيز على قلب القنصليات: ((أول ضربة مدفع ستدوّي فوق الفرات، لن تكون مدفع المحنة، بل ستكون ناقوس الخطر الذي يدعو شعوبًا عدة إلى الحرية وإلى الحياة والتنظيم والصناعة وسيدعو فرنسا إلى دائرة أفعال جديرة بنا))[208].

هذا الاستشهاد الرومانسي بالشعوب المحرومة من الحرية التي ستتوجه صوب باريس، اصطدم بعنف الأزمة الدبلوماسية شهر تموز/ يوليو عام 1840: أطلقت بريطانيا العظمى وروسيا، وبيلاروسيا والنمسا إنذارًا أخيرًا لمحمد علي. ووجب عليه أن يترك سوريا، مقابل الاعتراف بحق عائلته في حكم مصر من بعده.

واجتاحت فرنسا المعزولة بسبب دعمها القاهرة موجة إثارة حرب لم يستسلم لها لامارتين. وأُجبر إبراهيم على الانسحاب من سوريا التي عادت تحت السلطة العثمانية.

شجّع هذا التراجع الفرنسي لامارتين في تصميمه على عدّ سوريا شأنًا بذاتها، لا ساحة للمواجهة بين القاهرة والقسطنطينية اللتين يدعمهما حلفاؤهما الأوروبيون. هكذا أعلن في شباط/ فبراير 1846: ((من بين المسائل كلها المرتبطة بالمسألة الشرقية، فإن مسألة سوريا تتضمن ربما أكثر النقاط ضعفًا وأكثرها أهمية. إنها المسألة التي يبدو أنها تختصر

---

(205) خدم لامارتين في إيطاليا في نابولي ثم فلورنسا قبل أن يقدم استقالته من وزارة الخارجية عام 1830 بسبب ولائه للبوربون.

(206) Alphonse de Lamartine, La Question d Orient, édition établie par Sophie Basch et Henry Laurens, André Versaille, Bruxelles, 2011, p.100.

(207) المصدر نفسه، ص 103.

(208) المصدر نفسه، ص 160-161.

الأخطاء جميعها، كما جميع المزايا لسياستنا منذ بضعة سنوات))[209].

في قلب سوريا تلك التي تطلب بنظره تدخّل فرنسا، يموضع لامارتين جبل لبنان الموصوف بـ (سويسرا الشرق)[210]. ورأى أنه من الواجب إقامة وئام بين الموارنة والدروز فيه، لا تفضيل طرف على حساب آخر. امتاز لامارتين هنا أيضًا عن مواطنيه الكاثوليكيين الذين يتحمسون بسرعة لإخوتهم في الدين في المشرق. ذلك لأنه حادٌ في ما يخص الطبيعة السياسية وليس الطائفية لهذه النزاعات؛ ((لم تندلع أبدًا من أجل العبادة حرب دينية في لبنان، لم تطلق رصاصة واحدة ولا لكمة واحدة حصلت في الجبل بسبب مسألة الدين))[211]. رؤية لامارتين المبتكرة المصنوعة من تعاطف المثقف أكثر من التعاضد الطائفي، بترت مع الموقف الحاسم في أوروبا ذلك الزمان. لكن الرومانسي الكبير سيشهد تهشم طموحاته بسبب 0.23٪ من الأصوات التي حصل عليها إبّان الانتخابات الرئاسية في كانون الأول/ ديسمبر 1848، للمرة الأولى في تاريخ فرنسا.

نزاعات الدم

يحتل (حي اليهود) في دمشق الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة القديمة بين الطريق المستقيم وباب كيسان. رأينا كيف أنه في عام 1154 أتاحت (امرأة يهودية) دخول كشّاف نور الدين إلى المدينة. وقد عانت الطائفة على مرّ قرون الاضطرابات التي ظهرت من خلالها طريدةً سهلة وثرية بالنسبة لبعض المشاغبين. لكن المسألة التي اندلعت في شباط/ فبراير 1840 كانت من طبيعة أخرى تمامًا، إذ هي تتعلق باتهام بجريمة طقوسية مضخمة من خلال الاستقطاب الأوروبي حول المسألة الشرقية.

أخذ قنصل فرنسا في دمشق، وهو يحقق مستقصيًا اختفاء الأب توما الراهب الكبوشي الواقع تحت الحماية الفرنسية ضمن نظام (الامتيازات)، على حسابه الإشاعة العامة: إن

---

(209) المصدر نفسه، ص 256.

(210) المصدر نفسه، ص 259.

(211) المصدر نفسه، ص 307.

المختفي قد قتلته مجموعة يهود من أجل مزج دمه بخبز الفطير (خبز الذبيحة) لعيد الفصح. هذا النوع من الاتهامات اختفى من أوروبا منذ العصور الوسطى، لكنه كان رائجًا في روسيا القيصرية. ومن الممكن أن الروم الأرثوذكس، المتأثرين إلى هذا الحد أو ذاك بـ (روما الثالثة) قد أيّدوا إشاعتها في سوريا.

أوقف حاكم دمشق الذي لا يستطيع رفض شيء لفرنسا، والداعم القوي لمحمد علي، المشتبه بهم، وتوفي اثنان منهما تحت التعذيب من دون جمع أي دليل. استلمت النمسا الملف وتدخل المستشار ميتيريخ بنفسه من إجل إيقاف التعذيب. وكان يجب الانتظار إلى حين استعادة السلطة العثمانية في سوريا كي تكون براءة يهود دمشق معلنة رسميًا.

أشارت المؤرخة رينا كوهين بحق إلى أن ((قضية دمشق مسوّدة عن قضية دريفوس))[212]؛ فالافتراء المساق بحجة المصلحة العليا والصدى المشوه في الصحافة ماثلان هنا. لن نندهش إذن من أن نقرأ من المعادي جدًا لدريفوس، موريس باريس، بصفته نائبًا، كيف نقل اتهامات إلى عام 1840 خلال رحلته عام 1914 إلى سوريا: ((هكذا أرى هذا المكان، هكذا كان في ذاك المساء من شباط/ فبراير، حيث اختطف الأب توما وفورًا أمسك به وقيده وذبحه 9 يهود، جمعوا دمه في حوض قبل أن يضعوه في زجاجة))[213].

بدوره استمر نظام الأسد في ما يخص اللاسامية الحديثة جدًا، ولا سيما في حماية مقدمة للنازيين القدماء، في بثّ اتهامات هذه الجريمة الطقوسية. مصطفى طلاس وزير الدفاع لدى حافظ الأسد ثم لدى بشار، من 1972 إلى 2004، يدير دار نشر نشرت عام 1987 (فطير صهيون) المكرس كما هو مفترض لجريمة عام 1840 (مع ترجمة فرنسية عام 1990). اختتم المقدمة بـ (فورة): ((الخوف أيها الجبناء ليس جديد بنا، لأنه، كما يقول سيد العصر والأجيال القادمة حافظ الأسد، هو سلاح إضافي لتزويد العدو)).

فلنرجع إلى سوريا المعادة إلى الحضن العثماني، فقد انخرط الباب العالي عام 1839 بضمان المساواة لرعاياه كلهم، وكذلك بإصلاح تعليمه ومصلحة الضرائب والعدالة. هدفت هذه الالتزامات إلى تقوية الدعم الذي -باستثناء فرنسا- جادت به القوى

(212) Rina Cohen, l affaire de Damas et les prémices de l antisémitisme moderne, Archives juives, 12001/, volume 34.

(213) Mauris Barrès, Une enquete aux pays du Levant, Plon, Paris, 1923, tome 1, p.148.

الأوروبية. على كل حال، أعيدت العدالة ليهود دمشق في ديناميكية رفض التمييز الطائفي هذه.

لم تستطع حلب على الرغم من ضعف موقعها الكبير على تقاطع الطرق إلا الاستفادة من هذا العصر الجديد. استقبل ازدهار بعضهم بطريقة سيئة، ولا سيما أن المسلمين كانوا خاضعين إلى ضرائب غير مسبوقة. واندلعت التوترات في تشرين الأول/ أكتوبر عام 1850، بمناسبة الإحصاء الأول للبالغين الذكور.

وخشية من أن يكون هذا الإحصاء تحضيرًا لحملة تجنيد إلزامي، احتجت جموعٌ من دون طائل أمام الحاكم العثماني. وحوّل المحرضون غضبهم ضد التجار الكاثوليك في حي الجديدة.

نُهبت البيوت والكنائس وأحصيت عشرات الضحايا. ولجأ مسيحيو الأحياء الأخرى إلى جيرانهم المسلمين أو إلى أسواق المدينة القديمة. واستتب الأمن من خلال التعزيز العثماني، لكن ليس من دون دورة عنف أخرى. كانت هذه هي الحالة الوحيدة للاضطرابات بين الطوائف خلال الحقبة العثمانية في حلب كلها، المدينة التي رأينا كيف هزتها الاحتجاجات المنتظمة خلال القرن الماضي. وسيحدث تحويل الغضب المتراكم بمواجهة السلطة ضد الأقلية المسيحية مرة أخرى بعد ذلك بعشر سنوات في مواجهة السلطة على نطاق أوسع في دمشق.

مريد ابن عربي

قاد الأمير عبد القادر[214] من عام 1832 إلى 1847 جهاد المقاومة ضد توسع فرنسا الاستيطاني في الجزائر. وقاد عبد القادر، كما فعل شيوخ المتصوفين في دمشق إبان الحروب الصليبية، جبهة هذا (الجهاد الأصغر) أي الجهاد بالسلاح و(الجهاد الأكبر) أي الجهاد

---

(214) كاتب وشاعر وفيلسوف وسياسي ومحارب، اشتهر بمناهضته الاحتلال الفرنسي للجزائر. ولد قرب مدينة معسكر بالغرب الجزائري يوم الثلاثاء 6 أيلول/ سبتمبر 1808 الموافق لـ 15 رجب 1223 هـ رائد سياسي وعسكري مقاوم قاد (جيش أفريقيا) خمسة عشر عامًا في أثناء غزو فرنسا للجزائر، وهو أيضًا مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورمز للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار والاضطهاد الفرنسي. خاض معارك ضد الاحتلال الفرنسي للدفاع عن الوطن وبعدها نفي إلى دمشق وتوفي فيها يوم 26 أيار/ مايو 1883. (م).

بالنفس. وإذ هزمه الفرنسيون، أقام في طولون ثم بو وأخيرًا في أمبواز، على الرغم من الضمانات بإطلاق سراحه التي أرسلت إليه قبل استسلامه. خلال هذا الأسر الذي لم يكن بالإمكان تجنبه، غاص في أعمال محي الدين ابن عربي (1165–1240)، ولا سيما كتابه (الفتوحات المكية).

لقب ابن عربي باحترام (الشيخ الأكبر). ولد في مرسية، وتعلم في إشبيلية، وجاب بلاد المشرق كلها قبل أن يسكن في دمشق في السنين الخمس عشرة الأخيرة من حياته. وقبره موضع تبجيل خاص في حي الصالحية نفسه حيث انتقد ابن تيمية في القرن 13 عبادة الأولياء. وقد رأينا كيف بنى سليم؛ السلطان العثماني الأول الذي استولى على دمشق، عام 1518 مسجدًا أنيقًا حول ضريح ابن عربي.

لعبد القادر في أمبواز علاقة دائمة مع مترجم عسكري هو إسماعيل أوربان. هذا المستعرب الكفؤ، حفيد عبدة سوداء من غويانا الفرنسية، مسيحي ومن أتباع الفيلسوف سان سيمون، وقد اهتدى إلى الإسلام في عمر 23 في مصر، وهو الذي رافق عبد القادر إلى التويلري في كانون الأول/ ديسمبر 1852 من أجل المشاركة في مراسم احتفال إعادة الإمبراطورية. وسمح نابليون الثالث للأمير بمغادرة فرنسا إلى الشرق، وتعهد رسميًا بعدم العودة إلى الجزائر.

واستقبله سلطان القسطنطينية في كانون الثاني/ يناير 1853، واستقر عبد القادر تقريبًا قرب مدينة بورصة. دفع الزلزال الذي ضرب المدينة في شهر شباط/ فبراير 1855، بل الرغبة بالاقتراب من آخر مسكن لابن عربي أيضًا، عبد القادر إلى طلب الإقامة في دمشق. وإذ كان ما زال قلقًا من الوعد الذي قطع له، فلم يفته في شهر أيلول/ سبتمبر، أن يستجدي دعم نابليون الثالث، في منحه زيارة للمعرض العالمي لباريس. وبسبب الموافقة الإمبراطورية، استقبل عبد القادر وحاشيته في دمشق في شهر كانون الأول/ ديسمبر.

استقر الأمير الجزائري في المدينة القديمة شمالي المسجد الأموي. ومكتبته التي لم يكف عن إغنائها، هي أكثر ملكه قيمة. وقد ألف عام 1855 (رسالة للفرنسيين) حيث أكد فيها أن (سكان فرنسا أصبحوا نموذجًا للبشرية كلها في مجال العلم والمعرفة)[215]. وبذلك أصبح الزعيم المهزوم للمقاومة الجزائرية شريكًا مخلصًا لفرنسا في سوريا.

---

(215) Abd El-Kader, letter aux francais, Phébus, Paris, 1977, p.227.

تقليد هجرة المغربيين إلى دمشق قديم، وقد لعب نشوء السلطة الأموية في الأندلس أو إسهام الفرق العسكرية شمال أفريقية في الحروب الصليبية المضادة، دورًا بهذا الخصوص. ابن بطوطة وابن خلدون اللذان صادفناهما سابقًا في دمشق، كانا يعرفان بـ (المغاربة)، بينما في ما يخص ابن عربي الذي استظل بمنهله عبد القادر فإنه يرتبط بـ (الغرب الإسلامي) قبل أن يجوب في مشرقه.

منقذ دمشق

سيندلع في جبل لبنان عام 1860 فصل دموي جديد من (المسألة الشرقية). ستتمزق (سويسرا) التي حلم بها لامارتين بين فلاحين موارنة ذوي أغلبية وحيوية، وبين الإقطاعيين الدروز القلقين من تسلح جيرانهم المسيحيين. لعبت بريطانيا العظمى -التي لا تستطيع خلافًا لفرنسا الجدال بـ (حق) الحماية لأقلية طائفية- بورقة الدروز من أجل توسيع نفوذها.

دعم المسؤولون العثمانيون الموجودون في المنطقة بطريقة سلبية أو نشطة الحملة الدموية الدرزية في أيار/ مايو- حزيران/ يونيو 1860. ذبُح آلاف المسيحيين وهُدمت عشرات القرى، ودُنس العلم الفرنسي الذي كان يرفرف على المقرات الدينية لمرات عدة. قرر الباب العالي الضرب بقوة من أجل ردع باريس عن أي تدخل، فأرسل حملة عسكرية إلى لبنان، وفوض لها فؤاد باشا وزيرَ الخارجية بسلطات كاملة.

رد فعل القسطنطينية الحازم هذا، سيشعل الأزمة هذه المرة في دمشق، كما في حلب منذ عشر سنوات خلت، هاجم المحتجون المسيحيين من أجل تحدي السلطة العثمانية. واستُنكر التواطؤ بين الباب العالي والقوى (المسيحية)، فترك الحاكم أحمد باشا -ربما من أجل إبعاد العقاب الشعبي عن نفسه- المسلمين يفعلون ما يشاؤون بين 9 و16 تموز/ يوليو 1860. وكانت الحصيلة التي أعلن عنها 6000 قتيل على الأقل في هذه المذابح، من دون الأخذ بالحسبان الاغتصابات والنهب والتهديم؛ إذ نُهبت القنصليات كلها باستثناء المفوضية البريطانية.

كاد للمذبحة أن تكون أسوأ، لو لم يقم عبد القادر عند الساعات الأولى بفتح بيته أمام المسيحيين الهاربين. ويدين قناصل فرنسا واليونان وروسيا بحياتهم له، وكذلك كثير من رجال الدين، فقد أرسل بضع مئات من الجزائريين الموالين له إلى البحث عن الناجين في طرق دمشق ليأخذهم تحت حمايته. وخرج الأمير بنفسه سبع مرات من أجل إنقاذ من كان ما يزال ممكنًا إنقاذه. وأجبر أحمد باشا على استقبال آلاف المسيحيين في محيط القلعة.

انتشرت الشهادات ببطولة عبد القادر بصورة واسعة في باريس؛ بالنسبة لهذا الكاهن الكاثوليكي: ((لحظة قيام أكثر مذبحة رعبًا، ظهر عبد القادر في الشوارع مثل عناية إلهية)). وبالنسبة لهذا الطبيب الفرنسي: ((في انتظار الموت ذاك، في لحظات القلق الذي لا يمكن وصفه، أرسلت السماء لنا منقذًا، ظهر عبد القادر محاطًا بالجزائريين، حوالى أربعين. كان على فرسه ومن دون سلاح: هامته الجميلة الهادئة وذات الحضور، قدمت تناقضًا غريبًا مع الضجة والفوضى السائدين في الأرجاء كلها))[216].

وقعت العقوبات العثمانية على مثيري الاضطرابات والمتواطئين معهم في الدولة، واستقر فؤاد باشا في دمشق، وأقال أحمد باشا الذي أطلق عليه الرصاص مع مئات من المدانين، وعلق 57 شخصًا على المشانق المرفوعة في أرجاء المدينة كلها. وأفرغ حي القنوات (معقل) المحتجين من سكانه الأتراك كي يقدّم إلى اللاجئين المسيحيين، ودمج آلاف المشتبه بهم بالقوة في الجيش العثماني.

كان يجب فعل أكثر من ذلك لتهدئة الصحافة الفرنسية المهتاجة. وسيعبّر ميلكيور دو فوغيه عن سخطه في صحيفة (المراسل): ((نجد أنفسنا في حضرة مؤامرة إسلامية واسعة، مركزها إما مكة أو مكان آخر، الهدف منها إبادة مسيحيي المشرق، وتسمح بها الحكومة العثمانية وتستغلها لمصالح خططها السرية))[217].

تدبر نابليون الثالث إرسال فرقة عسكرية إلى بيروت في آب/ أغسطس 1860، يقودها الجنرال بوفور هوتبول. هذه الحملة التي تم التفاوض بشأنها بدقة مع لندن والقسطنطينية، سيوقف تقدمها فؤاد باشا عند الضواحي اللبنانية. عندها سأل وزير الحرب الفرنسي بوفور عن فائدة ترقية عبد القادر على رأس سوريا. الجنرال الذي كان

(216) Smail Aouli, Ramadane Redjala et Philippe Zoummeroff, Abd, el Kader, Fayard, Paris, 1994, p.462463-.

(217) Article du 25 aout 1860, cite in Yann Bouyrat, Devoir d intervener? Vendémiaire, Paris, 2013, p.119.

همّه المحافظة على استقلالية مسيحيي لبنان، اعترف من دمشق بأن ((سلطة عبد القادر يمكن أن تمتد إلى حلب وكذلك إلى جزء من شمال سوريا، وتشكل بذلك نواة إمبراطورية عربية من الممكن أن تتمدد على التتالي إلى بغداد والبصرة))[218].

وكان ينقص هذه الرؤية العظيمة الآن موافقة عبد القادر الذي قبل بامتنان وسام الصليب الأكبر من جوقة الشرف في أيلول/ سبتمبر 1860، لكنه رفض الدخول في المشاريع الفرنسية. عاد الأمير الجزائري إلى باريس في تموز/ يوليو 1865 حيث قابل إسماعيل أوربان الذي قدّم له هذه المرة أن يرأس في سوريا (دولة عربية مستقلة). بقي عبد القادر متمسكًا برفضه القاطع مذكّرًا أنه تخلّى عن كل طموح سياسي حين وضع سلاحه عام 1847.

استمر ارتباط اسم عبد القادر بـ (مملكة عربية) محتملة بالرواج. ورفض الأمير الجزائري في آذار/ مارس 1871 العروض التي قدمها له بيسمارك لصالح عودة مظفرة إلى الجزائر التي كانت وقتها تموج بعصيان رهيب. إنه (الجهاد الأكبر) الذي ابتلع من وقتها عبد القادر. عند موته في شهر أيار/ مايو 1883، دُفن الأمير قرب معلمه الروحي ابن عربي، ونقلت بقاياه بأبهة إلى الجزائر المستقلة في تموز/ يوليو 1966.

نتأمل طويلًا الأحلام العربية لاثنين (نابليون): نابليون الجمهورية العسكرية والمهشمة على عتبات قلعة عكا، ثم نابليون الإمبراطورية الأرستقراطية المتعثرة في الدسائس المشرقية. ونستخلص أن الواحد كما الآخر منهما لم يستطع وضع موطئ قدم في سوريا التي كانت وحدها بإمكانها أن تعطي جوهرًا لخططهما الإقليمية. أما في ما يخص المسألة الشرقية وخلطتها الدبلوماسية من تنافس القوى فلم تتوقف عند التجاوزات المدمرة للسكان المعنيين.

من فضيحة اللاسامية عام 1840 بدمشق إلى المذابح ضد المسيحيين عام 1860 في المدينة نفسها، أثبت القناصل الأوروبيون عجزهم عن إنقاذ من يسمون بمحمييهم من التعذيب والموت. لا يمكن للحماسة الباريسية ضد (المؤامرة الإسلامية) أن تخفي هذه الحقيقة: في زمن الجلادين، فإن متصوفًا مسلمًا، وقائد الحرب السابق في الجزائر، هو الذي نهض من أجل إنقاذ مسيحيي سوريا.

---

(218) Cite par Bruno Étienne, les projets d un royaume arabe au Bilad al Cham, Abdelkader, un spirituel dans la modernité, Presses de l IFPO, Beyrouth, 2012.

9. اضطهادات وملاذات

رأينا كيف أرادت قافلة الحج مع السلطان سليم من دمشق إلى مكة منذ عام 1516، أن تكون استعراضًا لقوة وأبهة السلطة العثمانية. سيكون نشاط المدينة معلقًا لأسابيع من أجل تنظيم هذه الحملة السنوية. وقد كان حكّام دمشق يعرفون أنهم يخاطرون برأسهم أحيانًا بالمعنى الصريح في هذه المسألة.

كان التهديد الرئيس يكمن في هجمات قبائل البدو على مدى مسار الرحلة. وبدلًا من مهاجمة اللصوص على أرض يعرفونها أكثر من أي كان، طوّر باشا دمشق نظامًا لـ (الحماية) مقابل أجر. وأخذ الاسم الشاعري (صرة السلطان)، والصرة هي مصطلح إسلامي للدلالة على الزكاة الموزعة خلال الحج.

وصف الرحالة الألماني أولريش سيتزن الذي نجح في التسلل إلى قافلة عام 1806 البروتوكول الغريب لهذه الإجراءات: ((كان باشا دمشق مزودًا بلائحة تتضمن أسماء الشيوخ كلهم بل العرب البسطاء أيضًا الذين يتلقون الصرة. الحصة التي يسعى إليها كل واحد منهم مسجلة في اللائحة بدقة، وبالاستناد إلى هذه اللائحة فإنه (أي الباشا) يقوم بالتوزيع عند الوصول إلى مزيريب في حوران على بعد ثلاث محطات من دمشق))[219].

ولكي يخفف الحكام العثمانيون من اعتمادهم على زعماء البدو فقد شجعوا بدءًا من القرن الثامن عشر هجرة السكان الدروز من لبنان إلى المرتفعات البازلتية في جنوب شرق دمشق. وإذ أصبح الدروز أغلبية، فقد دافعوا بقوة عن الاستقلال الذاتي لجبل الدروز. وكان التجمع الرئيس لهم في السويداء الأكثر ازدهارًا من بصرى القديمة.

حاول باشا دمشق أن يراهن على الدروز في مقابل بدو حوران الذين يسيطرون على المنفذ إلى الصحراء الأردنية للقافلة المتجهة إلى مكة. وعبر هذا القلق نفسه لتأمين طريق إستراتيجي للاتصال سهّل العثمانيون في القرن التاسع عشر (عودة) الإسماعيليين إلى

(219) René Tresse, Le Pèlerinage syrien aux villes saintes de l Islam, Chumette, Paris, 1937, p.129.

واحة السلمية التي كانت معقلًا لهم حتى القمع العباسي عام 903. هجر أهل الجبل الإسماعيليين الشريط الساحلي بصورة واسعة من أجل الذهاب إلى السلمية، وتأمل العثمانيون عبر إعادة إسكان الواحة حيازة احترام قبائل صحراء تدمر.

وأخيرًا، فإن التوسع الروسي في القوقاز أدى، ولا سيما بعد انتصار القياصرة عام 1878، إلى هجرة مئات الآلاف من المسلمين إلى الإمبراطورية العثمانية. واستقر أكبر جزء منهم في الأناضول، بيد أن أقلية من الشركس المسمين أيضًا السركاسيين زرعت في طريق الحج من دمشق إلى مكة، وهنا كذلك من أجل احتواء تهديد البدو. هكذا أصبح للشركس أحفاد في حوران وفي مرتفعات الجولان. وباتجاه الجنوب أكثر، فهم في قلب تأسيس عمان الحديثة.

مذبحة من ذاك الزمان

يعد الأرمن من الطوائف النشيطة والقديمة في دمشق وحماة وحلب، وكذلك في حوض الفرات. وكان هؤلاء السكان محدودي العدد مقارنة بالتجمعات في قلقيلية (المسماة تاريخًا أرمينيا الصغرى)، والأناضول وتركيا الشرقية والقسطنطينية. أغلبية أرمن سورية من الأرثوذكس، أي تابعون إلى الكنيسة الأوتكيفاليك[220] مع أقلية بابوية من الأرمن الكاثوليك. من ناحية أخرى فإن البروتستانت قليلون جدًا لدى الأرمن.

وصلت (تركيا الفتاة)[221] التابعة لجمعية الاتحاد والترقي[222] إلى السلطة في

---

(220) الكنيسة الأوتكيفاليك هي كنيسة مسيحية مشرقية. (م).

(221) هو اتحاد لمجموعات عدة مؤيدة لإصلاح الإدارة في الدولة العثمانية. أدت الحركة إلى الحقبة الدستورية الثانية بوساطة ثورة تركيا الفتاة. في عام 1889 بدأت الحركة في صفوف الطلاب العسكريين وامتدت بعدها لتشمل قطاعات أخرى، وكانت بدايتها كممانعة للسلطة المطلقة للسلطان عبد الحميد الثاني. عند تأسيس جمعية الاتحاد والترقي في 1906، ضمت الجمعية أعضاء تركيا الفتاة معظمهم. بنت الحركة واقعًا جديدًا للانشقاقات التي صاغت الحياة الثقافية، والسياسية والفنية للإمبراطورية العثمانية في المرحلة الأخيرة قبل إلغائها. (م).

(222) تأسست في بادئ الأمر تحت اسم (جمعية الاتحاد العثماني) في 1889 من قبل طلبة طب بينهم (إبراهيم ساتروفا) و(عبد الله جودت) هي حركة معارضة و(أول حزب سياسي) في الدولة العثمانية. تحولت إلى منظمة سياسية على يد (بهاء الدين شاكر) ولتضم أعضاء تركيا الفتاة في 1906 خلال مرحلة انهيار الدولة العثمانية. في نهاية الحرب العالمية الأولى سيق أعضاؤها معظمهم إلى

القسطنطينية عام 1908، وتخلصت في العام الذي تلاه من السلطان عبد الحميد الثاني، ولم تترك لخليفته محمد الخامس إلا سلطة شكلية. أدت الهزائم بمواجهة إيطاليا في ليبيا عام 1911 ومن ثم في حروب البلقان 1912 – 1913، إلى أن تجعل القومية التركية متطرفة وتسهم باقترابها من الإمبراطوريات المركزية. وفي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1914 دخل الباب العالي رسميًا بحرب ضد فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا.

ترافق الدخول بهذه الحرب مع إعلان الجهاد من قبل السلطان– الخليفة ضد هذا التحالف الثلاثي. لم يكن لإعلان مماثل أي تأثير في المسلمين المعنيين به من بين المعنيين، لأن العالم العربي اعتبر (تركيا الفتاة) من حينها قوميين أتراك بل من تركيا الكبرى.

حجب خطاب القسطنطينية الديني بصورة سيئة إذًا بزوغ أيديولوجيا مهووسة بالتفوق العرقي، وسوف تتركز على عدو داخلي (مثالي)؛ الأرمن المقدمين بوصفهم (طابور خامس) للتقدم الروسي على الجبهة الشرقية.

نؤرخ شهر نيسان/ أبريل عام 1915 بوصفه بداية تنفيذ منهجي لخطة إبادة الأرمن في الإمبراطورية العثمانية، مع تصفية النخب المدينية، وذبح المجندين المجردين سلفًا من أسلحتهم، ونفي سكان بأكملهم إلى حوض الفرات من بين أماكن أخرى. وقد أنشأ تنظيم خاص[223] بصورة سرية لهذا الغرض. وكان أحد أذرعته المسلحة ميليشيا غير منتظمة من سجناء الحق العام، لهم مطلق الحرية في الحصول على أجرهم من ضحاياهم.

كانت تلك الأوامر بعيدة من المساواة عند التطبيق. كذا اصطدم خليل بك الذي سميت وحدته بصورة شريرة (كتيبة الجزارين) برفض بعض الجنود المسلمين ذبحَ المسيحيين إخوتهم في السلاح. وقع المشهد في جنوب بحيرة فان في ربيع 1915: خليل بك (دعا الشيشان من فرقته إلى التجمع حوله ثم أمرهم بقتل الأرمن الذين عزلهم سابقًا. لكن الشيشان رفضوا إطاعة أوامره، فقام بإعدامهم بوساطة جنوده)[224].

المحاكم العرفية على يد السلطان محمد السادس ليتم سجنهم. وصلت إلى سدة الحكم في الدولة العثمانية بعد تحويل السلطنة إلى ملكية دستورية وتقليص سلطات السلطان آنذاك عبد الحميد الثاني في انقلاب 27 نيسان/ أبريل 1909. أعدِم بعض من أعضاء المنظمة بعد محاكمة بتهمة محاولة اغتيال أتاتورك في 1926، في حين أن الأعضاء الباقين قاموا بممارسة العمل السياسي بوصفهم أعضاء في الأحزاب السياسية. (م).

(223) بالتركية تشكيلات مخصوصة.

(224) Raymond Kevorkian, et Yves Ternon, Mémorial du génocide des Arméniens, Seuil, Paris, 2014, p.115.

لم يكن جزء من المذبحة إلى حينها قد ارتكبه العسكريون أو الميليشيات، بل لصوص وغالبًا أكراد، كانوا قد حازوا على طوابير من المُبعدين. وفتك الجوع والعطش بصفوف المبعدين. كان إبراهيم كاسبو يبلغ السادسة عشرة من عمره حين رُحّل في تموز/ يوليو عام 1915 من ماردين إلى رأس العين على نهر الخابور أحد روافد الفرات: ((حين وصلنا إلى الريف، ماذا رأينا؟ ناس يوشكون الاحتضار؛ آخرون احتضروا في تلك اللحظة؛ على جانب ثمة كومة من العظام، وتوجد بقايا أقدام وأيدي غير محترقة)).

((تفشت الرائحة النتنة مع الحرارة. كانت آتية من الآبار المليئة بجثث ناس مذبوحين. [...] لكن ما الذي يوجد في رأس العين؟ آلاف وآلاف من النساء والشيوخ والأطفال الأرمن في هذه الصحراء الواسعة بين البدو والشركس))[225]. تدبر كاسبو إيجاد مقعد مقابل ثمن مرتفع في القطار الذاهب إلى حلب. وأسكنه قريبٌ يجيد العربية، الأمر الذي سمح له بالبقاء على قيد الحياة، بل النجاة من حملات (البوليس): كانت الشرطة العثمانية في الواقع تجمع الأرمن في حي كرلك، كي تبيع بعضهم عبيدًا معاصرين، وترحل بعضهم إلى الصحراء))[226].

المقاومة أحيانًا يائسة. تجمع مئات من اللاجئين الأرمن مع سلاح مرتجل عند موسى داغ (جبل موسى) في جنوب أنطاكية. وصمدوا بصورة جيدة مدة أربعين يومًا في صيف عام 1915، على الرغم من ميزان القوى الساحق ضدّ صالحهم. أجلي الناجون منهم بباخرة فرنسية كانت تؤمن حصار الشواطئ السورية، بوجه الفرقة الرابعة لجيش جمال باشا العثماني.

بدأ الدبلوماسيون الألمان بتحذير برلين حول مدى الفظاعات التي ارتكبها حلفاؤهم العثمانيون. أشار القنصل في حلب إلى رمي (جثث في الفرات) خلال 25 يومًا من صيف 1915 عند جرابلس: ((كانت الجثث مقيدة بالطريقة نفسها؛ اثنين فاثنين، ظهرٌ إلى ظهر. يظهر هذا الوضع المنهجي أن الأمر لا يتعلق بمقتلة عرضية، بل بخطة عامة للإبادة صممتها السلطات))[227].

وصف القنصل الأميركي في حلب في شهر آب/ أغسطس 1915 كيف أن (ثمانمئة امرأة تقريبًا، بعضهن يقتربن من الأربعين، وبعضهن الآخر مسنات، يرافقن أطفالًا دون

(225) المصدر نفسه، ص-117 178.

(226) المصدر نفسه، ص 395.

(227) المصدر نفسه، ص 395.

سن العاشرة، وصلنّ على الأقدام إلى ديار بكر، بعد خمسة وأربعين يومًا من السير، وفي حالة مزرية إلى درجة لا يمكن تخيلها. روين كيف خطف الأكراد النساء والفتيات الشابات كلهن، وسرقوا منهن كل ما لديهن حتى آخر فلس، وكيف أنهن عانين الجوع))[228].

وفي شهر تشرين الأول/ أكتوبر عام 1915 أُمر عشرون ألفًا من اللاجئين السوريين بترك المدينة خلال أسبوعين. لم يستطع الأخوان مظلوميان اللذان كانا قد أسسا قبل أربع سنوات فندق بارون إنقاذ إلا قليل من الأفراد من الترحيل[229]. كذلك نقل الكاتب يرفانت أوديان إلى معسكر خيام سبيل، البعيد ساعة مشيًا عن حلب: ((في سبيل، بيع آلاف الأطفال الأرمن من الجنسين إلى عائلات عربية أو تركية أو يهودية. وكان الأطفال بين السابعة والعاشرة من بين الأكثر طلبًا ولا سيما الفتيات))[230].

أجبر المبعدون المنتشرون على طريق السكك الحديدية بين أضنة وحلب على المشي بالقوة إلى الباب، حيث يورد القنصل الألماني في كانون الثاني/ يناير 1916: ((1029 أرمني ماتوا خلال يومين ونصف [...] وكان أكثر أمر فظاعة هو الطريقة التي أجبروا فيها العرجان والمرضى على النهوض من أجل المشي. فقد كانوا يتقدمون تحت ضربات العصا، بل وصل الأمر إلى إحراق خيمهم))[231].

خلُص القنصل الألماني في حلب نفسه في شهر نيسان/ أبريل 1916 إلى: (لم يتغير شيء، يستمر موت شعب بأكمله [...] وإبادته متعمدة تمامًا)[232]. ووثّق مذبحة لـ 14000 لاجئًا من رأس العين، بمعدل 300 إلى 500 في اليوم، تم رميهم في النهر على بعد عشرات الكيلومترات من مخيمهم. في حين إن (مسير الموت) استمر بالإيقاع نفسه. حوّل جمال باشا أغلبية فيض المبعدين إلى حوض الفرات، كي يحفظ لفرقته الرابعة المسلحة حرية الحركة في سوريا الوسطى.

---

(228) Arnold Toynbee, Le Masacre des Arméniens, Payot, Paris, 2004, p.94.

(229) لم ينج أومنيغ وأومناغ مظلوميان نفسيهما من الترحيل إلا ليصيرا منفيين نهاية عام 1916 في البلدة اللبنانية زحلة.

(230) Yervant Odian, Journal de deportation, Parenthèses, Marseille, 2010, p.150.

(231) Raymond Kevorkian, et Yves Ternon, Mémorial du génocide des Arméniens, p.396.

(232) المصدر نفسه ص 397.

معسكرات الاعتقال

كانت السلطات العثمانية تدير في شمال سوريا شبكة من المخيمات تعتقل فيها المبعدين الأرمن، إما كي يهلكوا من الجوع والمرض أو يرحلوا على طول الفرات إلى دير الزور. هذه المدينة التي بالقرب منها يصب الخابور في الفرات هي مكان نقل آخر الناجين إلى معسكرات الإبادة لشدادة والحسكة. رأينا كيف أنه في أقصى الشمال عند الخابور في رأس العين أدت هذه وظيفة التصفية نفسها.

قدّر المسؤول العثماني عن مخيم مسكنة –الواقعة في منتصف الطريق بين حلب والرقة– بأن حوالى 80000 شخصًا ماتوا تحت سلطته بين شهر نيسان/ أبريل 1915 ونيسان/ أبريل 1916، وأقل من 30000 أُبعدوا إلى دير الزور[233]. كانت المرحلة اللاحقة لهذه المعاناة مخيم ديبسي. يشهد أحد المبعدين في شهر آذار/ مارس 1916 أنه بين مسكنة وديبسي كان حفارو القبور الجوالون: (عديمو الرحمة، إلى درجة أنهم كانوا يدفنون من على وشك الموت مع الموتى، لئلا يقوموا بالعمل نفسه مرتين)[234].

ووصلت الفظاعة إلى ذروتها في ديبسي؛ (كان الناس يفنون. وكانوا بحاجة إلى الغذاء، ولم يكن من غذاء. رأيت أشخاصًا يأكلون الخيول، والجثث، والكلاب النافقة، بل جثث الآدميين أيضًا)[235]. مات حوالى 30000 شخص في ديبسي من الجوع ومن حمى التيفوس، خلال ستة أشهر فقط من نشاط هذا المعسكر الذي أحرقت خيامه في نيسان/ أبريل 1916.

بين ديبسي ودير الزور، كُلفت وحدات من معتقلي الحق العام باعتقال الأيتام. فصاروا بالآلاف تائهين في شوارع دير الزور، حيث عاشوا على التقاط الجيف وقشور الخضار. امتد هذا الانحطاط ستة أشهر، بمعدل عشرين إلى ثلاثين متوفٍ في اليوم. أُبعد الناجون البؤساء أخيرًا عبر مواكب من المراكب إلى الخابور، تتبعهم زمر كلاب. وأما الذين لم يغرقوا منهم في النهر، فقد قتلوا بالسلاح الأبيض أو أحرقوا.

---

(233) المصدر نفسه، ص 417.

(234) المصدر نفسه، ص 422.

(235) المصدر نفسه، ص 423.

رحّل المسؤول العثماني في دير الزور على الضفة الأخرى للفرات الأرمن الذين جاؤوه من ديبسي. وواجه صعوبة أكبر في التخلص من وجود الأرمن في المدينة، لأن عددًا من العرب حموا فيها جيرانهم الأرمن. فنظم على الفور قوافل بائسة على طول الخابور، وتركها عرضة لدفع فديات إلى لصوص من البدو والشيشان الذين غالبًا ما انتهى الأمر بقطاع الطرق هؤلاء أنفسهم بذبح أفراد هذه القوافل.

كانت الاغتصابات الجماعية للمُبعدات الأرمنيات أمرًا عاديًا ضمن هذا الرعب كله. وقد حوّل قائد حامية دير الزور كنيسة المدينة كاثوليكية إلى بيت دعارة حيث غدت الأرمنيات اللواتي احتفظ بهن لجماهن عاهرات[236]. انتهى انتهاك الحرمات هذا عند تسمية حاكم عثماني جديد استرد الكنيسة وحرّر عبيدات الجنس. لكن القائد المذنب بجريمة كهذه لم ينل عقابًا البتة.

نحن في عام 1917 والمذبحة بحد ذاتها لم تكن على جدول الأعمال. وفي دير الزور، قلق الأتراك والألمان من تقدّم بريطانيا العظمى في العراق على طول الفرات، ولا سيما أن ((العرب حيبوا بفرح النجاحات البريطانية وتمنوا أن يصل الإنكليز أبكر مما يمكن))[237]. ضمن هذا السياق فُتحت في دير الزور ورشات عسكرية، وجد فيها الناجون الأرمن فرصة العمل. يذكر يريفانت أوديان الذي كان واحدًا من هؤلاء كيف: ((كانت نعمة حقيقية بالنسبة للأرمن والأرمنيات الذين كان يبلغ عددهم حوالى 400 الذين بعدما نجوا من المذابح الرهيبة كانوا محرومين من وسائل العيش كلها: لو لم توجد تلك الورش فإن أغلبهم كانوا بلا شك سيموتون من الجوع))[238].

تراجعت الفرقة الرابعة لجيش جمال باشا على الجبهات في عام 1918، إلى أن عقدت اتفاق إلقاء السلاح في مودروس في شهر تشرين الأول/ أكتوبر. لاذ جمال وقادة أخر من تركيا الفتاة بالفرار إلى خارج البلاد، وحكم القضاء العثماني عليهم بالموت غيابيًا في شهر تموز/ يوليو 1919، بسبب مسؤوليتهم في المذبحة الأرمنية. وفي تبليسي في جورجيا، قتل جمال الدين في تموز/ يوليو 1922 على يد كوماندوس من المحاربين الأرمن الذين كرّسوا أنفسهم للاقتصاص من القائمين على المذبحة.

(236) Yervant Odian, Journal de deportation, p.271272-.

(237) المصدر نفسه، ص 240.

(238) المصدر نفسه، ص 251.

هجرات جماعية جديدة

لم تُحصِ لجنة البطريركية الكاثوليكية التي أوردت في تقرير في شهر آب/ أغسطس 1920 عن حالة الجالية الأرمنية في الإمبراطورية العثمانية، إلا بضع آلاف بين دمشق وحلب، مقابل حوالى مئتي ألف في قلقيلية. في منطقة أضنة هذه، ولا سيما في عنتاب، استمرت حرب مستعرة بين جيش الاحتلال الفرنسي والقوميين الأتراك التابعين لمصطفى كمال[239]. كانت فرنسا في الواقع تدعي دمج قلقيلية بمنطقة النفوذ التي كانت تقتطعها من أشلاء الإمبراطورية العثمانية.

حارب (فيلق أرمني) مكون أغلبه من الناجين من المذبحة، في قلب فرق قلقيلية العسكرية الفرنسية. وكان الحي الأرمني في عنتاب أحد أوراق فرنسا الرابحة في معركة الاستحواذ هذه على المدينة التي انتهت في شهر شباط/ فبراير عام 1921 بهزيمة تركية. لكن هذا النجاح العسكري لم يغيّر من رغبة فرنسا بالتعامل مع أنقرة من بين من تتعامل معهم، من أجل حرمان العصابات القومية لشمال سوريا من عمق عملياتي.

بدأت الفرقة الفرنسية انسحابها الكامل من قلقيلية في شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1921 . تركت جموع الأرمن ممتلكاتها وأملاكها كي تلحق الفرنسيين إلى سوريا. وحصلت هجرة جماعية مماثلة في شهر حزيران/ يونيو 1939 حين تخلّت فرنسا عن أرض جديدة لصالح تركيا، سنجقدار إسكندرون الذي هرب سكانه الأرمن (وبصورة أقل العرب) بصورة جماعية صوب الأراضي السورية المبتورة.

هكذا تأثّر أرمن سوريا بتراجعات فرنسا المتتابعة في مواجهة تركيا، وبترحيل السكان الناجم عن ذلك إلى حلب ودمشق (لم يعد يثير حوض الفرات المقترن بأسوأ لحظات المذبحة إلا الاشمئزاز). استقر ممثل بطريرك الأرثوذكس لإتشميازين[240] في قلقيلية المدعو (كاثوليكوس) مدة عشر سنوات في حلب، قبل أن يستوطن عام 1931 في المدينة اللبنانية أنطلياس. مقر البطريرك الأرمن الكاثوليك في بزمار، ضاحية لبنانية أخرى.

(239) حاز مصطفى كمال لقب أتاتورك عام 1934 (أبو الأتراك) الذي دخل التاريخ.

(240) إتشميازين أو فاغارشابات مدينة أرمنية في مقاطعة أرمافير في أرمينيا. يعرف عامة بـ (إتشميادزين) ويضم مقر كنيسة الأرمن الأرثوذكس المعروف بـ (الكرسي الأم لإتشميادزين المقدّس) (تضم المدينة عددًا من الأديرة والكنائس ذات القيمة التاريخية والثقافية والروحية للشعب الأرمني فضلًا عن المؤسسات التعليمية اللاهوتية ومدارس اللاهوت والفلسفة المسيحية، ويطلق على المدينة لقب المدينة المقدّسة. (م).

تأييد عروبي متناقض

كان على الجالية الأرمنية في سوريا –يتيمة الحماية الفرنسية كما لمست حدود ذلك في قلقيلية والإسكندرون– أن تذهب إلى البلد الجار لبنان كي تبحث فيه هرميتها الدينية (الأرثوذكسية) أو الكاثوليكية. متروكةً بالتالي نسبيًا لوحدها، فإنها ستقيم بعد الاستقلال السوري علاقة قوية بقدر ما هي متناقضة مع القومية العربية التي بدت لها أفضل متراس في مواجهة تركيا، ولكن أيضًا في مواجهة الأكراد الذين يتقدمون بسرعة ديموغرافيًا.

ستقوى هذه العلاقة بعد وصول البعث إلى السلطة عام 1963، ومن ثم مع انقلاب نظام الأسد في عام 1970. لم يجرِ البعث أدنى عمل على الذاكرة، مثلًا حول مواقع المعسكرات في حوض الفرات، من أجل إبراز حقيقة المذبحة. واتكأ الولاء الأرمني على الاعتبارات الجماعية أقل مما اتكأ على إعادة تركيب على مستوى المشهد العالمي. في النهاية ابتلع الاتحاد السوفياتي –الذي من أهم حلفائه في المنطقة نظام الأسد– الاستقلال الأرمني من 1918– 1920. وفيما يخص الجمهورية الإسلامية الإيرانية، فقد قادت منذ عام 1979 سياسة محابية للأرمن.

تواجهت هذه التيارات بعدما استعادت أرمينيا استقلالها عام 1991: علاقات يرفان ممتازة مع دمشق وطهران التي تساند أرمينيا (المسيحية) ضد أذربيجان (الشيعية). وأصبحت أرمينيا أخلص شريك لموسكو في منطقة القوقاز بعد انقلاب فلاديمير بوتين عام 1999. هذه الحزمة الشبكية من التحالفات والمصالح لا يمكن إلا أن تربط بصورة وثيقة أرمن سورية مع نظام الأسد، على الرغم من أنهم لا يحوزون منصبًا قياديًا.

عبّر هذا الالتقاء عن نفسه بقوة في أثناء معركة ربيع عام 2014 حول قرية كسب. ثلثا آلاف السكان لهذا الموقع وكذلك القرى الصغيرة المحيطة أرمنية. يتعلق الأمر بأقصى شمال غرب سورية بموقع إستراتيجي يتحكم بالطريق إلى المنطقة التي صارت تركيةً من أنطاكية من جهة، وباللاذقية ومهد عائلة الأسد من جهة أخرى.

كان على السكان أن يفروا في شهر آذار/ مارس 2014 من هجوم متمردين إسلاميين. وكان التعاطف كبيرًا لدى أرمن سورية والشتات، حيث كان التنديد بـ (التطهير

العرقي) والتواطؤ التركي حادًا. استعاد نظام الأسد مدعومًا من حزب الله، كسب بعد ثلاثة أشهر[241]. (بشار) الممجد بوصفه منقذ كسب لم يكن يومًا أكثر شعبية لدى أرمن سورية وما وراءها من ذلك[242].

ملحمة السيف

أصابت حملة الإبادة التي قادتها بدءًا من عام 1915 الدولة التركية وميليشياتها الموقتة، ما هو أبعد من السكان الأرمن، الأشوريين في جنوب شرق تركيا الحالية. لم تفرّق هذه الاضطهادات المشار إليها بمصلح آرامي (سيفو)/ السيف (الملحمة)، بين المؤمنين بالكنيسة النسطورية (الأشورية) وبين الإخوة الأعداء للكنيسة السريانية الأرثوذكسية (اليعقوبية) أو كاثوليك الكنيستين المتوحدتين في روما (واحدة الكلدانية والثانية السريانية الكاثوليكية)[243]. ومثل الأرمن، فقد كان هؤلاء مستهدفين ليس لأنهم طائفة دينية، بل لأنهم شعب يتحدث لغته الخاصة الآرامية.

هذا الشعب يشار إليه أيضًا تحت مصطلح (السوري) وليس الأشوري في وثائق ذلك الزمن. ووجدت فئة ناجية ملاذًا في الجزيرة عند الزاوية الشمالية الشرقية للأراضي السورية المحشورة بين تركيا والعراق. تمتد هذه الجزيرة من رأس العين على مدى الخابور وحتى أقصى (فم البطة)[244] تحت ضفة دجلة. والمدينة الرئيسة هي الحسكة على بعد ثمانين كيلومترًا من جنوب شرق رأس العين.

أنشأ الانتداب الفرنسي مركز حدود في القامشلي عام 1926، وأوكل التخطيط المدني لضباط الاستخبارات. افتتح سوق حديث في الهواء الطلق عام 1931، وسمي المكان (باريس الصغرى)، واستقبل عشرين ألف نسمة بعد عشر سنوات. شكّل

---

(241) وشهران بعد استعادة معلولا التي رأينا تأثيرها العالمي القوي جدًا.

(242) لمس كاتب هذه السطور بنفسه شعبية بشار الأسد في يرفان في تموز/يوليو 2015.

(243) يعيش بطاركة هذه الكنائس الأربع بالترتيب في إربيل ودمشق وبغداد وبيروت.

(244) يدل هذا التعبير على أقصى شمالي شرقي سورية، أي المنطقة الواقعة بين الحدود التركية والعراقية. (م).

الأشوريون فيها بطاعة تامة أكبر عدد في مذبحة ارتكبها هذه المرة الجيش العراقي، ودفعت عام 1933 بآلاف اللاجئين الجدد إلى الجزيرة. تجاور في القامشلي الأرمن والأكراد والشركس، وقد ألحقت فرنسا بكل سرور هذه (الأقليات) المختلفة في فرقها العسكرية الإضافية الموقتة.

في هذه الأثناء اختار كثير من الناجين من مذابح القرن السابق المنفى النهائي في أوروبا أو أميركا؛ الأمر الذي حدا بالكنائس الأشورية المختلفة أن تطور شبكاتها الأسقفية في الشتات. هكذا صار البطريرك الحالي للسريان الأرثوذكس إغناس أفرام الثاني كريم الذي كان سابقًا أسقفًا لشرق الولايات المتحدة الاميركية يعيش في نيوجرسي. وشارك في تموز/ يوليو عام 2016 في إحياء ذكرى (سيفو) في مسقط رأسه في القامشلي. ونجا من اعتداء انتحاري لداعش خلّف ثلاثة قتلى لدى إخوانه في الدين. رمزٌ حزينٌ لقدر مسيحية مشرقية مهددة في وجودها نفسه على أرض جذورها السورية.

عادت المجاعة بوصفها سلاحًا في الحرب، كما رأينا دورها المركزي في إبادة الأرمن بعد قرن من الزمان في ترسانة أسلحة بشار الأسد؛ أولًا في زنازين نظامه. هذه واحدة من ألف شهادة مناضل سلمي معتقل في سجن صيدنايا غير بعيد من دمشق: ((كنا نبقى على قيد الحياة بأكل قشور البيض وقشور البرتقال إن وجدناها، بل التراب. وضعنا تحت امتحان مجاعة لا يمكن تحملها. رمي الطعام أمامنا، لكننا لم نستطع أخذ أي كسرة خبز. لم نجرؤ أن نلمسها لأن العقاب الذي يليها يتبع مزاج الحارس. وضعنا تحت امتحان العطش إلى أن التصقت شفاهنا، وما عادت تنفصل))[245].

بعد ذلك، وفي مخيم اليرموك الفلسطيني عند أبواب دمشق الذي يحاصره منذ أشهر طويلة نظام الأسد، أفادت تقارير عن أوائل الموتى المدنيين من الجوع في شهر كانون الأول/ ديسمبر 2013 . وصار عددهم بعد ذلك بضع عشرات، رفض الدكتاتور أن يخفف القبضة حول هذا المعقل الثائر، وبدا أن التجويع المنهجي لمناطق بأكملها في الواقع أكثر فعالية من القصف، وإن كان بالأسلحة الكيماوية، من أجل كسر إرادة مقاومة السكان.

وأظهرت الأمم المتحدة، على الرغم من القرارات بالإجماع والنداءات الرسمية، أنها عاجزة عن مواجهة اللجوء المتصاعد لسلاح الجوع الذي يمارسه أحد أعضائها. منذ ذاك

---

(245) شهادة جمعتها ونشرتها أمنتستي إنترناسيونال 26 آب/ أغسطس 2016.

الوقت، وقع مئات آلاف المدنيين ضحايا الجوع على امتداد الأراضي السورية، حيث لا تستطيع قوافل المساعدات الإنسانية الدخول إلا بصورة محدودة ومهربة إلى القطاعات المهددة بالموت البطيء. الجوع البربري الأعمى قد عاد إلى سورية. من الذي كتب: لا، بعد الآن؟

10 . خيانة الخلفاء

كان عام 1915 حاسمًا في الشرق الأوسط الغارق أكثر فأكثر في الحرب العالمية الأولى. رأينا كيف تحركت في هذا العام آلة الموت التي أدت إلى مذبحة الأرمن وتصفية الأشوريين. قاد جمال باشا الفرقة الرابعة في الجيش العثماني من دمشق، وأطلق اعتداءًا على مصر، وفشل في اجتياز قناة السويس. وقمع بقسوة كل نوع من التمرد في سوريا، الأمر الذي لم يؤدِ إلا إلى تجذر نشاط التجمعات السرية، وفي مقدمتها (تركيا الفتاة).

مع أن الشريف حسين[246] شغل المنصب العثماني بوصفه حاكم مكة ومنطقة الحجاز، إلا أنه ظهر بعد ذلك بطلًا للآمال العربية. احترمه الإسلاميون بوصفه (هاشميًا)[247] من سلالة النبي محمد، وتخيلوه يحيي الخلافة العربية. وسمّى القوميون ابنه فيصل في مهمة لدمشق وفقًا لأعراف (الفتاة)، وانتدبوا حسين باسمهم من أجل التفاوض مع الحلفاء. وكان الوسيط الذي عينته لندن بالتوافق مع باريس وسان بطرسبورغ هنري مكماهون المفوض السامي البريطاني في مصر.

جرت المراسلات الخطية بين حسين ومكماهون[248] بين شهري تموز/ يوليو 1915 وكانون الثاني/ يناير 1916. والتزم حاكم مكة بإطلاق تمرد[249] ضد العثمانيين مقابل اعتراف لندن (باستقلال العرب في كل المناطق الواقعة بين الحدود المقترحة من شريف

---

(246) مؤسس المملكة الحجازية الهاشمية وأول من نادى باستقلال العرب من حكم الدولة العثمانية. قاد الثورة العربية الكبرى متحالفًا مع البريطانيين ضد الدولة العثمانية لجعل الخلافة في العرب بدل الأتراك في 1916 ولقب بملك العرب. (م).

(247) هاشم هو والد جد محمد. انظر الفصل (إمبراطورية الإسلام الأولى).

(248) الممثل الأعلى لملك بريطانيا في مصر (1862 - 1949)، اشتهر بمراسلاته مع شريف مكة الشريف حسين بن علي بين عامي 1915 و1916 خلال الحرب العالمية الأولى. موضوع الرسائل يدور حول المستقبل السياسي للأراضي العربية في الشرق الأوسط، حيث كانت المملكة المتحدة تسعى إلى قيام ثورة مسلحة ضد الدولة العثمانية، إذ وعد مكماهون الحسين بن علي باعتراف بريطانيا في الجزء العربي من قارة آسيا إذا شارك العرب إلى جانبهم في الحرب ضد الدولة العثمانية. (م).

(249) وصف هذا التمرد باللغة العربية بـ (الثورة)، وترجم إلى الفرنسية والإنكليزية بالانتفاضة، في حين هو ثورة.

مكة[250]. وجرى نقاش حول صفة (العربي) أم لا للساحل السوري، بما أن البريطانيين كانوا متلهفين بضغط من الفرنسيين إلى الاتفاق على وضع خاص للبنان.

رأى حسين أنه ما إن تتحرر (بلاد الشام) من العثمانيين فإنها ستحكم من دمشق من زعيم هاشمي. وعلى هذا الأساس أطلق في حزيران/ يونيو 1916 (الثورة العربية) بقوام بين 30000 إلى 40000 من مؤيديه. وكان يجهل أنه في الشهر السابق أيد السفيران المفوضان مارك سايكس وفرانسوا بيكو سرًا تقاسمهما للولايات العثمانية بين باريس ولندن. أعطى اتفاق (سايكس بيكو) فرنسا سلطة مباشرة على لبنان والساحل السوري وقلقيلية، وكذلك منطقة نفوذ تمتد من دمشق إلى الموصل. وادعت المملكة المتحدة تحرير القسم الجنوبي من الولايات العثمانية.

حرب العرب

استولى الشريف حسين سريعًا على مكة وجدة. ومن ناحية أخرى، بدأ حصار طويل حول الحامية التركية للمدينة. أرسل الفرنسيون والبريطانيون مساعدة من مستشارين وأسلحة للعرب المتمردين. أدار الكولونيل إدوارد بيرمون المهمة الفرنسية في جدة، وكان نظيره البريطاني الكولونيل سيريل ويلسون. ومن ناحية أخرى كانت مهمات ضابط الاستخبارات العسكرية الشاب توماس إدوارد لورنس[251] أكثر ضبابية، الأمر الذي سمح لهذا الكاتب ذي الذهن الثاقب أن يمنح نفسه بعدًا ملحميًا.

بالتأكيد لم يكن مقاتلو حسين بحاجة أبدًا إلى (لورانس العرب) من أجل القيام بغزوات في هذه الصحراء التي لطالما قاموا بالغزوات فيها منذ أكثر من ألف عام. لكنهم طلبوا بالمقابل الأسلحة، إذ لم يكن بحوزتهم إلا عشرات آلاف البنادق، وكانت تنقصهم المتفجرات، ولم يكن لديهم مدفعية (لن ترسل فرنسا مدفعين 65 ميليمتر

(250) Cité in Georges Antonius, The Arab Awakening, Hamilton, Londres, 1961, p.170.

(251) ضابط بريطاني اشتهر بدوره في مساعدة القوات العربية خلال الثورة العربية عام 1916 ضد الدولة العثمانية عن طريق انخراطه في حياة العرب الثوار وعرف وقتها بلورنس العرب، وقد صُور عن حياته فيلم شهير حمل اسم لورنس العرب عام 1962. لاحقًا كتب لورنس سيرته الذاتية في كتاب حمل اسم أعمدة الحكمة السبعة، قال عنه ونستون تشرشل: (لن يظهر له مثيل مهما كانت الحاجة ماسه إليه)، لقي مصرعه نتيجة سقوطه من على دراجته النارية في 19 أيار/ مايو 1935م. (م).

إلا في كانون الثاني/ يناير 1918). وعلى الرغم من هذا النقص في المعدات، بدأ الثوار تحت قيادة فيصل[252] بالتقدم بصورة منهجية على طريق سكة الحديد التي تربط مكة بدمشق البعيدة.

حين كانت الشام في مرمى البصر، أعلن حسين في تشرين الثاني/ نوفمبر 1916 نفسه (ملكًا على البلاد العربية). لم تتنازل باريس ولندن له إلا للقب (ملك الحجاز)، بالتطابق مع ترتيباتهما السرية. وحرص سايكس وفرانسوا بيكو على كشف فحوى اتفاقهما للحسين: في أثناء زيارتهما المشتركة له في جدة في شهر أيار/ مايو عام 1917، وطمأنوا مضيفهم في ما يخص سلطته المستقبلية على (سوريا المسلمة). في الواقع، ما كان مسموحًا لشيء أن يزعج (الثورة العربية) التي توصل مقاتلوها إلى تحييد عشرات الآلاف من الجنود الأتراك. وكان استيلاء المتمردين على العقبة في تموز/ يوليو قد فتح الطريق إلى عمان، في حين إن الحملة العسكرية البريطانية كانت تتلكأ في غزة.

في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1917، استطاعت فرق التحالف أخيرًا أن تنجز اختراقًا في فلسطين. وفي هذا الشهر، غدا علنيًا في الوقت نفسه (اتفاق سايكس بيكو)[253] و(وعد بلفور) باسم رئيس الدبلوماسية البريطانية الذي تعهّد بمساندة حكومته لـ (إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين). كانت هذه الصدمة المزدوجة رهيبة على حسين الذي اكتشف في الوقت نفسه طموح فرنسا في سوريا، والأهداف الصهيونية في فلسطين. بذلك لم يكن أمام الثوار العرب إلا خيار القتال العنيد المتجدد من أجل وضع يدهم على (بلاد الشام).

---

(252) الملك فيصل الأول بن حسين بن علي الهاشمي (20 أيار/ مايو 1883 - 8 أيلول/ سبتمبر 1933) ثالث أبناء شريف مكة حسين بن علي الهاشمي وأول ملوك المملكة العراقية (1921-1933) وملك سوريا (آذار/ مارس -1920 تموز/ يوليو 1920). دخلت قوات الجيش العربي إلى مدينة دمشق بصحبة الأمير فيصل بن حسين الذي تولى قيادة الجيش الشمالي في مطلع تشرين الأول/ أكتوبر عام 1918، فانسحب منها ومن مدن سوريا جميعها الجيش العثماني، وقوبل دخول فيصل إلى دمشق باستقبال شعبي وعسكري عظيم، وأيدت جموع الشعب الثورة، واستجابت إلى أوامر القيادة العربية. أعلن الأمير فيصل تأسيس حكومة عربية في دمشق، وكلف الفريق علي رضا الركابي بتشكيل أول حكومة عربية لسوريا ولقب بالحاكم العسكري. وعين اللواء شكري الأيوبي حاكمًا عسكريًا لبيروت وعين جميل المدفعي حاكمًا على عمّان وعبد الحميد الشالجي قائدًا لموقع الشام وعلي جودت الأيوبي حاكمًا على حلب. في 8 آذار/ مارس 1920 أعلن المؤتمر السوري العام استقلال سوريا العربية تحت اسم المملكة السورية العربية وتتويج الأمير فيصل بن حسين ملكًا عليها بعد سلسلة من المباحثات المكثفة التي أجراها المؤتمر مع أنصاره. (م).

(253) كان البلاشفة الروس في السلطة مع ثورة تشرين الأول/ أكتوبر، هم الذين كسروا تابو الدبلوماسية السرية.

في نهاية صيف 1918، خيّم فيصل في الواحة الأردنية في منطقة الأزرق، قاطعًا بذلك الطريق بين عمان ودمشق، وأرسل كذلك مبعوثيه إلى جنوب سوريا. تسارع هذا العمل التخريبي مع انسحاب جمال باشا الذي نقل سلطاته في دمشق إلى الأمير الجزائري سعيد؛ حفيد عبد القادر. تم مسح هذا الانتقال الخطر للسلطة، في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر بدخول مؤيدي (الثورة العربية) إلى دمشق. اتُهم الأمير سعيد بالتعاون مع العثمانيين، وسجن مدة وجيزة، وأطلق النار على أخيه عبد القادر. إنها لنهاية حزينة بالنسبة لسلالة منقذ مسيحيي دمشق.

مملكة سريعة الزوال

في الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر 1918 سار فيصل في دمشق بموكب على رأس 1500 فارس عربي، وكان الابتهاج الشعبي يستحق تجمعًا حاشدًا لاستقلال سوريا الموحدة التي أعلن عنها الملك حسين. وبعد مدة قصيرة لعب القوميون العرب دورًا كبيرًا في طرد العثمانيين خارج حلب، حيث استعرض فيصل رسميًا بأبهة أمام مؤيديه. لكن القائد البريطاني فرض سلطته بأمر الواقع على ممثلي فيصل كما على الممثلين الفرنسيين.

عُلّق تطبيق اتفاقات سايكس بيكو بقرارات مؤتمر السلام الذي افتتح في باريس في شهر شباط/ فبراير 1919، حيث لم يستقبل فيصل إلا بصفة رئيس وفد الحجاز. ترك البريطانيون الفرنسيين ينشرون فرقهم العسكرية في المشرق وفي لبنان وفي الساحل السوري. وبدأ عملاء باريس باللعب على وتر الأقليات؛ مسيحيي لبنان وعلويي سوريا، ضد (عرب) الداخل، المتماثلين مع الظلامية الإسلامية كما مع المناورات البريطانية.

استطاع فيصل تنظيم انتخابات للـ (المؤتمر السوري العام)[254] الذي كان عدد أعضائه أربع وثمانون، اجتمعوا في دمشق في حزيران/ يونيو 1919، ودعوا إلى شمول فلسطين ولبنان في سوريا فيديرالية. كان ذلك رأي الغالبية الذي عبّر عنه الأعيان الذين استشارتهم لجنة دولية، كانت مهمتها أن تقدم تقريرًا لعصبة الأمم المستقبلية. لكن رفض السناتور الأميركي التصديق على المعاهدة المؤسِسة لعصبة الأمم، حرم العرب من

(254) كان المندوبون معينين أكثر مما كانوا منتخبين، وكانوا كذلك من الأقليات القادمين من المناطق المسيطر عليها عسكريًا من بريطانيا العظمى في فلسطين وفرنسا في لبنان.

الدعم الأميركي في حق الشعوب بتقرير مصيرها.

صار الفرنسيون والبريطانيون بعدها أحرارًا في توازع الشرق الأوسط ضمن (انتدابات) عصبة الأمم، فأعطى مؤتمر سان ريمو في شهر نيسان/ أبريل 1920، للأوائل سوريا لبنان، وللآخرين فلسطين والعراق. وتصاعدت في باريس في غرفة (الأفق الأزرق)[255] الموسومة جدًا بكاثوليكية اليمين نداءات لمساندة الكنيسة المارونية ومشروعها عن لبنان الكبير. أما فيصل الذي كان مستعدًا للقبول بالحضور الفرنسي في لبنان، فقد أخذه على حين غرة المؤتمر السوري العام: فها إنه معين زعيمًا دستوريًا على سوريا المستقلة (في حدودها الطبيعية).

اختار الجنرال هنري غورو[256] المفوض السامي لفرنسا في بيروت، تاريخ الرابع عشر من تموز/ يوليو عام 1920 ليأمر فيصل بقبول انتداب فرنسا على سورية ولبنان. نوى (ملك سورية) نزع سلاح فرقه العسكرية، لكن المؤتمر السوري العام كان قد تنصّل منه أيضًا. سحقت الفرق العسكرية الفرنسية المتفوقة بثلاث مرات بالعدد والمجهزة بمدرعات ومدفعية ثقيلة القوى العربية في ميسلون على بعد ثلاثين كيلومترًا غربي دمشق. لجأ فيصل إلى بريطانيا العظمى قبل أن يشغل عرش العراق تحت الانتداب.

فرّق تسد

الهتاف المنسوب إلى الجنرال غورو في شهر آب/ أغسطس 1920 : (استيقظ يا صلاح الدين، ها قد عدنا من جديد) هو من دون شك منحول. ومن المرجح أن ضابطًا آخر من الصف الأول قد قال بهذا الخصوص شيئًا مستفزًا كهذا أمام قبر صلاح الدين الذي موّل غيوم الثاني ترميمه في نهاية القرن الماضي. كان الفرنسيون متعطشين إلى الانتقام من

(255) يطلق تعبير غرفة (الأفق الأزرق) مجازًا على مجلس النواب، والأزرق هو لون الزي الرسمي الفرنسي وكذلك لون اليمين. (م).

(256) انتسب إلى المدرسة العسكرية في سان سيروتخرج فيها برتبة ضابط عام 1888م، خدم بسلاح القناصة، وظهرت موهبته عسكريًا وإستراتيجيًا في أثناء خدمته العسكرية في مالي، وكان من أنصار النظرية العسكرية الفرنسية القائمة على (الهجوم حتى الإبادة). وهو القائد العسكري الفرنسي الذي قاد الجيش الفرنسي في نهاية الحرب العالمية الأولى في الحرب التركية الفرنسية (1919 - 1923). اشتهر الجنرال غورو بكونه المندوب السامي للانتداب الفرنسي على لبنان وسوريا، وبكونه من تولى إعلان دولة لبنان الكبير عام 1920 بعد فصله عن سورية بموجب إتفاقية سايكس-بيكو بين فرنسا وبريطانيا. (م).

فيصل الذي أصبح قصره الدمشقي مقرّ إقامة غورو، ولكن كذلك للانتقام من ظلال تاريخ متخيل.

أهدى الأخوان تارو كتابهما (طريق دمشق) لغورو، وفيه أكدا أنه (تحت لباس موحد جديد، تنشأ المملكة الفرنسية في سوريا أمام أعيننا. إنها حرب صليبية جديدة تلك التي نبدأها هنا، ذلك لأنه بالنسبة للمسلم، أيًا يكن، فإننا قبل أي شيء آخر الكفّار)[257]. ويخلط موريس باريس الحريم مع الحروب الصليبية في كتابه (حديقة على العاصي)، حكاية رمزية من القرون الوسطى، حيث تتحول فتاة سورية إلى الدين المسيحي بسبب حبها فارسًا شجاعًا. باريس نفسه وتحت صفته نائب، كتب تقريرًا بعد مدة قصيرة لصالح دعم حكومي لـ (القوة التي يمثلها الرهبان في المدارس المسيحية في الخارج)[258].

رعى غورو الإعلان الرسمي في أيلول/ سبتمبر 1920 لدولة لبنان الكبير الذي كان محل عناية مفرطة للقوة الانتدابية. من ناحية أخرى، خضعت سوريا إلى إعادة تقسيم كبير، حيث فصلت دمشق عن حلب، وآلتا (دولتين) مختلفتين، وفي قلب الثانية؛ استقلالٌ ذاتي واسع لسنجق إسكندرون. ونزعت التسمية العثمانية عن ولاية أنطاكية. (هذا الوضع الخاص للسنجق اعترفت به السلطات التركية الجديدة، مقابل التوقف عن دعم العصابات المسلحة الوطنية في شمال سوريا).

الكل مشتعل نتيجة التقسيم، وقد منحت فرنسا جبل الدروز وضع (دولة)، عاصمتها السويداء. بالإضافة إلى ذلك، فقد اختلقت من لا شيء (دولة العلويين) التي صارت اللاذقية عاصمتها. تجاهل الإداريون الاستعماريون الماضي المعقّد، مماثلين بين هذه الأقلية الجبلية المنشقة عن الإسلام بموارنة لبنان، وحلموا بحشدها ضد النخبة المدنية في سوريا الداخلية. وبدءًا من حزيران/ يونيو 1922 أدارت فرنسا من بيروت (فيديراليةً سوريةً) مؤلفة من ثلاث دول.

في شهر كانون الثاني/ يناير 1925، سمى اتحاد الاشتراكيين الجنرال موريس ساراي الماسوني الملتزم مفوضًا ساميًا في بيروت. فأعطى تقسيمٌ جديد استقلالًا ذاتيًا لـ (دولة العلويين)، في حين دُمجت دمشق وحلب في (دولة سورية) واحدة. ستنقلب هذه التلاعبات

(257) Jérome et Jean Tharaud, Le Chemin de Damas, Plon, Paris, 1923, p.54.

(258) Mauris Barres, Faut-il autoriser les congrégations?, Plon, Paris, 1924, p.59.

الطائفية بعد ذلك ضد فرنسا، فالإقطاعيون الدروز الذين مدحتْ خصوصيتهم ثاروا في شهر تموز/ يوليو 1925 . ووصل التمرد بعد ذلك إلى دمشق ثم حماة، وطالب (المجلس الوطني للثورة) باستقلال سوريا والمساواة في الحقوق لمواطنيها كلهم من دون تمييز طائفي.

رفض ساراي رؤية البعد القومي للتمرد الذي عزاه إلى (قطاع طرق) متعصبين. فقصف مدينة دمشق القديمة بالمدفعية، وأيضًا بالطيران من 18 إلى 20 تشرين الأول/ أكتوبر 1925 . وقضى على الأقل ألف شخص خلال هذين اليومين الرهيبين. وكان التدمير كبيرًا بسبب واقع الحريق والنهب. عاشت المؤرخة البورغونية أليس بولو هذه المأساة في دمشق، وندبت أمام هذه (الأطلال الحديثة): ((كل شيء ينضح بدخان الغبار، والجمر؛ (أصيبت) المآذن والقباب بدفقات قذائف تشبه الجرائم البربرية))[259].

احتجّ القناصل الأجانب في دمشق رسميًا ضد هذا (القصف الطويل والموسع جدًا الذي عادة ما تخضع له الأماكن المحصنة)، وأضافوا أن (السكان المسلمين بدمشق، بصورة عامة، حموا المسيحيين واليهود بما فيهم الغرباء منهم، بعطف كبير، حين لم يكن لديهم أي حماية يرجونها، بعد انسحاب الفرق الفرنسية)[260].

عُلّقت مشنقة في مركز العاصمة تستعرض جثث (اللصوص) القتلى في المعركة، أو الذين أدانتهم المحاكم العسكرية. ونفذت إعدامات أخرى رميًا بالرصاص في محيط قلعة دمشق. وفرضت غرامات جماعية على المدينيين بعد كل خسارة فرنسية. روّع هذا القمع سكان دمشق جدًا إلى درجة أن الثوار انسحبوا إلى الغوطة، شبكة البساتين والواحة التي تحيط بالعاصمة. وصفت أليس بولو بطريقة بارعة تداعي القمع الذي يغذي التمرد بالمقابل: ((القرى المعاقبة كلها، غدت (لصوصًا) ومن الممكن أن يستمر الأمر على هذا النحو لمدة طويلة، لأن الفلاحين ليس لديهم الخيار، أو بالأحرى لديهم خيار ضيق من الوسائل لينجوا بجلدهم: فإن رفضوا استضافة (اللصوص) جيرانهم وأصدقاء الأمس، فسيعاقبون بوصفهم خونة وسيحرقون ويذبحون؛ وإن زودوهم بما يحتاجون إليه، فإن الفرنسيين سيعقابونهم بوصفهم مجرمين وسيذبحونهم ويحرقوهم))[261].

(259) Alice Poulleau, â Damas sous les bombes, Bretteville, Yvetot, 1926, p.105.

(260) المصدر نفسه، ص 243-246.

(261) المصدر نفسه، ص 75 76-.

أجبر الاحتجاج الدولي الذي أثاره سحق دمشق باريس على استدعاء ساراي. وقامت فرنسا باللجوء إلى الخداع من خلال تنظيم انتخابات في الأراضي السورية في الشمال والشرق، أيضًا تحت سلطتها، في كانون الثاني/ يناير 1926. وطال عهد مناورة اللعب بورقة حلب (الخاضعة) ضد دمشق (المتمردة). واستُبعد من الآن فصاعدًا كل خيار إلا الخيار العسكري. وتوسّعت فرق المشرق بتعزيزات من المغرب، حيث تم توًا سحق تمرد عبد الكريم. وحشدت باريس ضد المتمردين الدروز، الشركس تحت إمرة النقيب فيليبر كوليه.

بدءًا من نيسان/ أبريل 1926، حشد الفرنسيون أربعين ألف جندي وجنّدوا أكثر من أي وقت مضى (فرقًا خاصة) في صفوف الأقليات المختلفة. وفصلتْ الأسلاك الشائكة بين دمشق والغوطة التي استعيدت قرية بعد قرية. بل في داخل العاصمة، تعرّض حي الميدان جنوبي المدينة التاريخية إلى قصف جديد. وكانت الثورة المضادة منهجية أيضًا في بلاد الدروز، حيث كان سقوط بصرى أقل أهمية من الاستيلاء مجددًا على السويداء، مهد الثورة.

استقل جوزيف كيسيل، مراسل تغطية الصراع في صحيفة لو جورنال، طائرة عسكرية بين دمشق ودرعا. وخلال هذا الطيران، لم يكن لديه أي وخز ضمير لأن يطلق هو بنفسه، قذائف على السويداء: ((كي ينجح القصف، فإنها مسألة ثوان. تحت قدمي أرى البيوت الأولى، الحدائق الصغيرة. يرفع الطيار ذراعه، أسحبُ المقبض. ريحٌ من الدخان، ثم أخرى، ثم ثالثة))[262]. عبر هذه الضربات التي لم تكن تميز شيئًا، استطاعت فرنسا وضع نهاية للثورة في نهاية صيف 1926.

لئن كانت القومية السورية قد صُعقت عسكريًا، فقد بقيت مع ذلك صلبة. إذ فاز مؤيدوها في نيسان/ أبريل 1928 بانتخابات الجمعية التأسيسية، الأمر الذي دفع المفوض السامي إلى تعليق أعمالها. كانت باريس تفضل الاعتماد على المطيع جدًا شيخ

(262) Joseph Kessel, En Syrie, Folio, Paris, 2014, p.30.

تاج الدين[263] هذه (الصورة الرخوة المصبوبة في الرصاص)[264]، على رأس المجلس التنفيذي السوري من عام 1928 إلى 1931. وأكدت الانتخابات الجديدة في شهري كانون الثاني/ يناير ونيسان/ أبريل 1932، غلبة (الوطنيين)[265]. ظهرت ثلاث نجمات خضراء على علمهم، واحدة ترمز إلى دمشق والأخرى حلب والثالثة كل مدينة أخرى في سورية التي بدت بلدًا موحدًا وكذلك راسخًا.

سراب المعاهدة

عاد الشيخ تاج الدين إلى وظيفته رجل مخلصًا لفرنسا في سوريا من شهر آذار/ مارس 1934 إلى شهر شباط/ فبراير 1936. لكنه دُفع إلى الاستقالة نتيجة تصاعد الاهتياج القومي. كان على المدرعات المصفحة لفرق جيش الشرق في دمشق وحمص وحلب، أن تنتشر في الأسواق الخالية بسبب الإضراب العام. قبلت فرنسا أخيرًا في آذار/ مارس 1936 أن تفتتح المفاوضات للنظر في معاهدة تنهي الانتداب. كان الوفد السوري الذي ذهب إلى باريس يرأسه الوطني جدًا هاشم الأتاسي[266].

(263) تاج الدين الحسني (1885 - 1943) هو ثالث رئيس للدولة السورية بين 15 شباط/ فبراير 1928 و9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1931 ورئيس وزراء سورية بعد إعلان النظام الجمهوري بين 16 آذار/ مارس 1934 و22 شباط/ فبراير 1936، ورئيس الجمهورية السورية الأولى بالتعيين بين 16 أيلول/ سبتمبر 1941 و17 كانون الثاني/ يناير 1943، وسابع حاكم سوريا بعد سقوط سوريا العثمانية؛ كما أنه رجل الدين الوحيد الذي شغل مناصب رفيعة في الدولة السوريّة، إذ كان والده الشيخ بدر الدين الحسني مفتيًا وعالمًا مرموقًا في دمشق أواخر القرن التاسع عشر، وكان الحسني نفسه قاضيًا شرعيًا في دمشق، عندما تمّ تكليفه رئاسة الدولة. عُرف بقربه من فرنسا وبصداقته مع مفوضيها في سوريا، وبنوع خاص مع شارل ديغول خلال الأربعينيات وخلال رئاسته الثانية أعلن في حزيران/ يونيو 1941 الاستقلال الثاني، وجاء تعيينه رئيسًا للجمهورية، لكونه (قادرًا على خدمة المصالح الفرنسية من ناحية، واستقطاب قسم من الرأي العام المعتدل إلى جانبه من ناحية ثانية) ويشار إلى أنّه وصف (عدو الله) في التظاهرات التي جابت سوريا مطالبة بالاستقلال وزوال الانتداب الفرنسي. (م).

(264) بتعبير بيير راندو الذي كان ضابطًا شابًا في الاستخبارات الفرنسية بدمشق.

(265) المقصود الكتلة الوطنية. (م).

(266) الملقب أبو الجمهورية. هو ثاني رئيس للجمهورية السورية لولايتين الأولى بين 21 كانون الأول/ ديسمبر 1936 و7 تموز/ يوليو 1939 والثانية من كانون الأول/ ديسمبر 1949 وقطعها انقلاب أديب الشيشكلي في 24 كانون الأول/ ديسمبر 1951، غير أنه تابعها من 1 آذار/ مارس 1954 وحتى 6 أيلول/ سبتمبر 1955، ليكون تاسع حاكم في تاريخ سورية الحديث. كما أنه شغل مناصب بارزة في الجمهورية السورية فشكّل الوزارة مرتين، ورأس المؤتمر السوري العام، والجمعية التأسيسية، وكذلك لجنتي وضع الدستور، وانتخب للنيابة عن حمص مرات عدة. نشط خلال الانتداب الفرنسي على البلاد بوصفه ناشطًا سياسيًا بارزًا مطالبًا بالاستقلال، ولا سيما في إثر

عائلة الأتاسي واحدة من أبرز عائلات حمص، وقد شغلوا مدة طويلة منصب المفتي. رأس هاشم المؤتمر الوطني السوري في أثناء إعلان فيصل حاكمًا دستوريًا على سوريا في آذار/ مارس 1920 . ثم رأس الجمعية التأسيسية الدستورية التي ولدت ميتة عام 1928 . وكلفته معركته العنيدة من أجل استقلال سوريا السجن في جزيرة أرواد مقابل طرطوس. ورافقه إلى باريس «محاربون قدماء» أخر ووطنيون مثل جميل مردم بك[267] (كان مستشارًا لدى فيصل في باريس 1919) وفارس الخوري[268] (أحد مؤسسي جامعة دمشق).

لم تصبح المحادثات ضرورية إلا بعد انتصار الجبهة الشعبية في الانتخابات الفرنسية في أيار/ مايو 1936 . وحصل بيير فينو سكرتير الدولة للشؤون الخارجية في حكومة بلوم على مبدأ سوريا الموحدة. لكن الضباط الاستعماريين حشدوا من يقع تحت حمايتهم من الأقليات المختلفة ضمن الفرق الخاصة. ونجمت عن ذلك، موجة من العرائض المعادية

تأسيسه وزعامته لحزب الكتلة الوطنية التي لعبت دورًا بارزًا في الحياة السياسية السورية قبل 1963. (م).

(267) سياسي ووطني ومناضل سوري ولد في دمشق عام 1893، ناضل ضد الاستعمار الفرنسي ومن الذين صنعوا استقلال سورية، ناضل بالدم والمال من أجل سورية. في عام 1911 أسس في باريس تجمعًا سماه الجمعية العربية الفتاة وتهدف الجمعية إلى تحرير سوريا والأرض العربية من الهيمنة الأجنبية، انضم جميل مردم بك في دمشق إلى حزب الشعب عام 1925 وأسهم وشارك في المعارك ضد الاستعمار الفرنسي وقدم كثيرًا للمقاومة السورية ولاحقته السلطات الفرنسية وفي عام 1928 انتخب نائبًاعن مدينة دمشق وبقي ينتخب حتى عام 1948 وتسلم منصب وزير عام 1932 وانسحب واستقال بسبب الخلافات. شكل حكومته الأولى عام 1936 وحتى عام 1938 وأصبح وزيرًا للخارجية السورية عام 1943 حتى عام 1944 ثم وزيرًا للدفاع والاقتصاد عام 1945 حتى عام 1946 شكل بعدها حكومته الثانية حتى 1948 حتى قيام حسني الزعيم بانقلابه العسكري حيث هرب إلى القاهرة وفيها قام بأعماله التجارية والخاصة حتى وفاته في مصر ونقل جثمانه إلى دمشق ودفن فيها. (م).

(268) سياسي ومفكر ووطني سوري. انتخب فارس الخوري سنة 1914 نائبًا عن دمشق في مجلس المبعوثان العثماني. وفي سنة 1916 سجنه جمال باشا بتهمة التآمر على الدولة العثمانية، لكنه بُرئ ونفي إلى إسطنبول، حيث مارس التجارة هناك. عاد فارس الخوري إلى دمشق بعد انفصال سوريا عن الحكم العثماني. وفي عام 1919 عُين عضوًا في مجلس الشورى الذي اقترح على الشريف فيصل تأسيسه، كما سعى فارس مع عدد من رفاقه إلى تأسيس معهد الحقوق العربي، وكان هو أحد أساتذته، كما اشترك في تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق. تولى فارس الخوري وزارة المالية في الوزارات الثلاث التي تألفت خلال العهد الفيصلي في سوريا. وفي إثر احتلال الفرنسيين لسوريا عام 1920 انصرف الخوري إلى العمل الحر بصفة محامي. أسس فارس الخوري وعبد الرحمن الشهبندر وعدد من الوطنيين في سوريا حزب الشعب ردًا على استبداد السلطة الفرنسية ولما قامت الثورة السورية الكبرى عام 1925 اعتقل فارس الخوري وآخرون ونفوا إلى معتقل أرواد. في عام 1926 نفى الفرنسيون فارس الخوري إلى خارج سوريا بسبب استقالته من منصب وزير المعارف في حكومة الداماد أحمد نامي بك احتجاجًا على سوء نوايا الفرنسيين. شارك فارس الخوري وعدد من الوطنيين في تأسيس الكتلة الوطنية، وكان نائبًا لرئيسها يضع القرارات ويكتب منشوراتها، وهذه الكتلة قادت حركة المعارضة والمقاومة ضد الفرنسيين، وكانت من أكثر الهيئات السياسة توفيقًا وفوزًا مدة تقارب عشرين عامًا. في أثر الإضراب الستيني الذي عم سوريا عام 1936 للمطالبة بإلغاء الانتداب الفرنسي تم الاتفاق على عقد معاهدة بين سوريا وفرنسا، ويقوم وفد بالمفاوضة لأجلها في باريس، فكان فارس الخوري أحد أعضاء هذا الوفد ونائباً لرئيسه. انتخب فارس الخوري رئيسًا للمجلس النيابي السوري عام 1936 ومرة أخرى عام 1943، كما تولى رئاسة مجلس الوزراء السوري ووزيراً للمعارف والداخلية في تشرين أول/ أكتوبر عام 1944. (م).

لفرنسا والانفصالية في الوقت نفسه، الموجهة إلى ليون بلومLeon Blum[269] . إحدى هذه الرسائل المفتوحة كانت باسم «الأمة العلوية» وتحمل من بين التواقيع توقيع والد حافظ الأسد وجد بشار الأسد[270].

لم تؤدِ هذه المناورات الساذجة إلى تخريب المفاوضات. ووقعت «معاهدة صداقة وتحالف» بين بلوم والأتاسي في 9 أيلول/ سبتمبر عام 1936 . وفيها تكريس وحدة سوريا التي تضم «الدولة العلوية» وجبل الدروز. وتم التوصل إلى تحالف لخمس وعشرين عامًا اعتبارًا من تاريخ قبول سوريا في عصبة الأمم. وتحتفظ فرنسا بقواعدها العسكرية في البلاد مدة خمس سنوات. أثار الإعلان عن هذا التوقيع تظاهرات فرح هائلة في دمشق وحمص وحماة وحلب، حيث زيّنت الطرق بالألوان الوطنية (النجمات الثلاث لسوريا الموحدة) والفرنسية.

في كانون الأول/ ديسمبر 1936، صادق البرلمان السوري على المعاهدة مع فرنسا، وأوصل الأتاسي إلى رئاسة الجمهورية. كُلّف مردم بك بإصلاح الحكومة. وللأسف ترك بلوم ماتينيون[271] في حزيران/ يونيو 1937 قبل أن يتسنى له تصديق برلمانه على المعاهدة الفرنسية السورية. قاد اللوبي الاستعماري حملة خبيثة ضد النص. بالإضافة إلى أن السلطات التركية تنبهت إلى نتائج معاهدة كهذه على لواء الإسكندرون الذي لم تعد تخفي أطماعها فيه.

وفي سياق صعود الأخطار في أوروبا عقدت فرنسا مع تركيا في تموز/ يوليو 1938 معاهدة صداقة وُضعت فورًا موضع التنفيذ. حيث تلتزم باريس تجاه أنقرة بتعزيز بروز أغلب تركيا في لواء إسكندرون، و«وجّهتْ» القوة الانتدابية أعمال المفوضين المنتخبين من عصبة الأمم في هذا الاتجاه. سمحت فرنسا بتوقف الفرق التركية في الأراضي خلال الاقتراع الذي أعطى في شهر آب/ أغسطس الأغلبية لمؤيدي الارتباط بتركيا.

---

(269) سياسي فرنسي (9 نيسان/ أبريل 1872- 30 آذار/ مارس 1950) تولى رئاسة الوزارة في الجمهورية الفرنسية الثالثة مرتين. أصبح بعد الحرب العالمية الثانية آخر رئيس للحكومة الفرنسية المؤقتة من 16 كانون الأول/ ديسمبر 1946 إلى 16 كانون الثاني/ يناير 1947. وهو أول اشتراكي وأول يهودي يتولى رئاسة الوزارة في فرنسا. (م).

(270) Patrick Seal, Asad,)University of California Press, Berkeley, 1989(, p.20.

(271) يقع عند الرقم 57 في شارع دي فارين في الدائرة السابعة بباريس، هو المقر الرسمي ومقر عمل رئيس الحكومة الفرنسية منذ عام 1935. (م).

وضع هذا التصرف الشرس على خلفية عدم المصادقة على المعاهدة الفرنسية السورية الوطنيين من السلطة في دمشق في موقف مستحيل، فاستقال مردم بك في شباط/ فبراير 1939، ولم يصمد أي ممّن أتى بعده أكثر من بضعة أسابيع. وفي شهر حزيران/ يونيو 1939، ألحقت تركيا رسميًا لواء إسكندرون تحت اسم هاتاي. هجر عشرات الآلاف عرب والأرمن الإقليم وذهبوا إلى ما تبقى من سوريا.

وكان من بين هؤلاء اللاجئين الذين هربوا من الإسكندرون إلى دمشق مدرس علوي هو زكي الأرسوزي[272] الذي امتاز بحميته الضد - فرنسية. تعلم في السوربون، ثم حاجج الانتداب بقيم الجمهورية الفرنسية نفسها. جاء مدرّسان آخران كذلك، ومتخرجان بشهادة من السوربون بخطاب مماثل في الحلقات العسكرية المناضلة في دمشق. أحدهما ميشيل عفلق[273] من الروم الأرثوذكس والثاني صلاح الدين البيطار[274] سني، وهو أمرٌ

(272) مفكر وعربي سوري ومن أهم مؤسسي الفكر القومي العربي. كان لاقتطاع لواء إسكندرون من سوريا من قبل الاستعمار الفرنسي كبير الأثر على زكي الأرسوزي وهو يرى جزءًا من بلاده ينتزع ويسلخ من دون وجه حق من قبل مستعمر لا هم له سوى مصالحه، أدت هذه الحادثة إلى ثورة الأرسوزي على فرنسا وتركيا وقاد حملة لمقاومة التتريك في لواء الإسكندرونة، لاقت أفكار الأرسوزي ودعوته صدى وتأييدًا من المثقفين والطلاب في دمشق، وبذلك طرح نفسه بوصفه زعيمًا قوميًا استلهم البعث أفكاره منه. وتلك الأفكار التي تبناها حزب البعث فيما بعد والدفاع عن العروبة وحق العرب، وقد عرف عن الأرسوزي ارتياده إحدى مقاهي دمشق حيث كان يلتقي المثقفين والكتاب والأدباء والطلبة، وكذلك إحدى مقاهي حلب التي يرتادها المفكرون والأدباء. (م).

(273) مفكر قومي عربي كان له الدور الأكبر في تأسيس حزب البعث الذي أصبح فيما بعد حزب البعث العربي الاشتراكي. ولد في دمشق وأكمل دراسته الجامعية في باريس. بعدها عاد إلى دمشق وتنقل بينها وبيروت والقاهرة وبغداد. توفي في مشفى في باريس. (م).

(274) سياسي وأحد رؤساء وزراء سوريا ومن مؤسسي حزب البعث مع ميشيل عفلق. أسهم في سنة 1939 في تأسيس منظمة الإحياء العربي التي تحولت في ما بعد إلى حزب البعث العربي. استقال البيطار وعفلق سنة 1942 من عملهما بصفتهما مدرسين ليتفرغا للعمل السياسي، وفي سنة 1945 تم انتخاب أول مكتب سياسي لحزب البعث. وفي سنة 1947، عقد البعث أول مؤتمراته حيث انتخب البيطار فيه أمينًا عامًا. اندمج الحزب سنة 1953 مع الحزب العربي الاشتراكي ليصبح اسمه حزب البعث العربي الاشتراكي. وفي عام 1948 سجن صلاح البيطار خارج مدينة دمشق، بسبب معارضته تجديد رئاسة شكري القوتلي للجمهورية السورية. وفي عام 1949 اعتقله الرئيس حسني الزعيم مع باقي أعضاء القيادة القومية للحزب بسبب معارضتهم لبعض سياساته، وفي عام 1952 أصدر أديب الشيشكلي أمرًا باعتقال صلاح البيطار مع رفيقه عفلق وأكرم الحوراني بسبب تحريضهم الطلاب الجامعيين على مناهضة حكمه، لكنهم استطاعوا مغادرة دمشق سرًا إلى بيروت ثم توجهوا منها إلى روما. أسهم سنة 1954، بالإطاحة بحكم أديب الشيشكلي في 14 حزيران/ يونيو 1956 في عهد شكري القوتلي وعُيّن صلاح البيطار وزيرًا للخارجية في حكومتي صبري العسلي الثالثة والرابعة، وبعد قيام الوحدة في 22 شباط/ فبراير 1958م بين سورية ومصر عُيّن البيطار وزيرًا للثقافة والإرشاد القومي في تشرين الأول/ أكتوبر 1958. ولقد استقال من منصبه في كانون الأول/ ديسمبر 1959 وكان من الموقعين على وثيقة الانفصال عام 1961 مشاركة منه في الحكم السوري الجديد، لكنه ما لبث أن تراجع عنها لأنها ضد وحدة النضال في الوطن العربي. بعد وصول حزب البعث إلى الحكم في 8 آذار/ مارس 1963، تولى صلاح البيطار رئاسة الوزراء أربع مرات، وفي إثر قيام حركة 23 شباط/ فبراير 1966 التي قام بها صلاح جديد اعتقل البيطار لكنه استطاع الفرار إلى لبنان، فصدر حكم غيابي بإعدامه عام 1969. في كانون الثاني/ يناير 1978 استدعاه حافظ الأسد الذي كان يأمل في أن يستقر البيطار في دمشق بوصفه ثقلًا مضادًا لعفلق المؤسس الأول لحزب البعث الذي استقر في بغداد، لكن خمس ساعات من المحادثات فشلت في رأب الصدع بينهما، فعاد البيطار إلى باريس وأنشأ مجلة دورية أطلق عليها اسم (الإحياء العربي)،

نافلٌ لأن علمانيتيهما متصلبتان كما علمانية الأرسوزي الذي قاطعاه، لكنهما أغويا مريده اللامع وهيب الغانم[275] العلوي هو أيضًا. وسينتهي عفلق وبيطار والغانم إلى تأسيس حزب مكرس لـ «البعث»، بمعنى الإعادة إلى الحياة باللغة العربية باسم «الرسالة الخالدة» التي ستحملها «الأمة العربية الواحدة».

كان الأتاسي في ذلك الوقت، أي في تموز/ يوليو 1939، قد أصبح عاجزًا تمامًا عن فعل أي شيء، وكان عليه أن يتخلّى عن الرئاسة. وعلّق المفوض السامي الفرنسي الدستور وحلّ مجلس النواب وأعاد الاستقلال الذاتي لمنطقة العلويين وجبل الدروز. وبعد شهرين، أدى دخول فرنسا في الحرب العالمية الثانية إلى فرض حالة حصار في المشرق. الحلم بسورية موحدة وذات سيادة حليفة لفرنسا وعلى قدم المساواة لم يتسن له أبدًا أو لم يعرف أبدًا بداية لتحقيقه.

في ذاك الصيف عام 1939، صُوّر فيلم في سورية ولبنان، يخبر كثيرًا عن الأفكار المسبّقة العنيدة والرائجة في باريس. فيلم «ياميليه تحت الأرزات» مستوحى من رواية لهنري بوردو عضو الأكاديمية الفرنسية. يروي فيها قصة الحب التعيس بين شقراء مارونية ومسلم داكن البشرة، مثّل دوريهما ممثلان فرنسيان[276]. خلال مشهدين ريفيين في منتهى الروعة يتطرق فيهما الحديث إلى «الإيمان» و«العرق»، العائدين لطرف لا يقبل المساومة مع الطرف الآخر. «البلد المسيحي» و«البلد المسلم» منفصلان بحدود، حيث يلعبان دور الحرب والسلام. إذ بعد عقدين في المشرق، استمرت النخبة الفرنسية بتسخيف الديناميات السائدة في المنطقة.

وهو الاسم القديم الذي بدأ به، شن في أعمدتها حملات للمطالبة بالحريات العامة والديمقراطية وحقوق الإنسان في سورية. (م).

(275) مفكر قومي عربي ومن مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي في سورية والعراق. كان قبلة أنظار عرب اللواء في الثلاثينيات، لأنه خطيبهم اللامع ومندوبهم للمفاوضات عن عرب اللواء. كان أحد أعضاء وفد اللواء إلى قرنايل (لبنان) عام 1933 لإعلان قيام عصبة العمل القومي، وأقام مع زكي الأرسوزي فرعًا لها في اللواء. كان العضو المؤسس مع زكي الأرسوزي لحزب البعث العربي في دمشق عام 1940، وكان بيته في السبكي مقرًا أول لهذا الحزب. كان أول طبيب عربي في اللواء تخرج من الجامعة السورية. قاد معركة الريجي في اللاذقية وتحقق للحزب بعد ألوف البرقيات ومئات ألوف التواقيع وعشرات التظاهرات، وبعد التظاهرة الكبيرة في حلب التي قدمت عشرات الجرحى، تحقق تأميم الريجي والترام والكهرباء، وهي جميعًا امتيازات فرنسية في سوريا، وتعد عملية التأميم هذه أول عملية تأميم ليس في سوريا فحسب، وإنما في الوطن العربي. سمي وزيرًا للصحة عن الحزب عام 1955. قاد فريق حزب البعث العربي في الحوار مع الحزب العربي الاشتراكي من أجل عملية الدمج بين الحزبين عام 1952. (م).

(276) مثّل شارل فانيل دور والد ياميليه التي يعاقبها بذنب حبها.

فكيف لا نجد في هذا الشريط البائس الانتدابي صدى الحريق الحالي؟ يوجد أولًا الدليل في العَلم نفسه الذي يلوّح به الوطنيون ضد فرنسا والثوار ضد الأسد: تدل النجمتان في علم البعث على «الجمهورية العربية المتحدة» حيث تخلّت سورية من عام 1958 إلى عام 1961 عن استقلالها لصالح مصر؛ من ناحية أخرى، فإن النجمات الثلاث العزيزة على قلوب الثوار ترمز في عام 1932 كما في عام 2011 إلى دمشق وحلب، وترمز النجمة الثالثة إلى كل مدينة في سورية المتنوعة والمتكافلة في آن معًا.

باتخاذ هذا العَلَم المعادي للاستعمار ينخرط المقاومون اليوم باتساق في النضال من أجل التحرر منذ القرن المنصرم.

أما الخطاب حول «الأقليات» فلم يتغير منذ دعاة الانتداب وصولًا إلى متملقي الأسد. وهو خطاب مفيد من أجل التهرب من القضايا المرتبطة بالمواطنة والديمقراطية. من غير المهم، من ثمّ، أن يكون المرء ما زال «أقلويًا» في وضع من التجزئة المتعمدة: أصبح العرب «ذوي الغالبية» أقلية خاضعة للتمييز؛ في عام 1939 في هاتاي المتركة، وفي عام 2013 في المناطق التي شكلها الانفصاليون الأكراد في «روج آفا».

يمكن المقارنة بين الحالتين: ضحّت فرنسا بالسنجق لصالح علاقات جيدة مع تركيا، وشجّع نظام الأسد الانشقاق الكردي كي يقسّم بصورة أفضل معسكر الثوار. هكذا وجدت «الأغلبية» نفسها في وضع «أقلوي» حيث غالبًا ما تُجبر على الرحيل إلى المنفى. وفي ما يخص «الأقليات» فإنها تجد نفسها أكثر «أقلوية» مما هي عليه، حين تجرؤ أن تنقلب على حماتها المفترضين: شهد دروز السويداء أنفسهم كيف صعد الشركس المقربين من الفرنسيين عام 1926، والشيعة المقربين من النظام اليوم.

نظّمت السلطة الانتدابية عام 1926، كما نظام الأسد في عام 2014 وعام 2016، حفلة تنكرية انتخابية في جزء من الأراضي السورية الواقعة تحت سيطرتها العسكرية. يتعلّق الأمر هنا أيضًا بفرّق تسد، وفي الوقت نفسه بالظهور بصورة جيدة أمام عصبة الأمم الأمس والأمم المتحدة اليوم. وبعيدًا عن هذه الاقتراعات الوهمية، فإن الرهان يبقى هو نفسه منذ انهيار عام 1920 المملكة العربية الزائلة في دمشق. ويتعلق الأمر بحق الشعب السوري في تقرير مصيره: المحروم منه بثبات تحت الانتداب الذي تم حرفه عند الاستقلال عبر انقلابات متتالية قبل أن يفرّغه الأسد الأب والابن، من جوهره.

تستمر الثورة السورية تحت الألوان ذاتها، بالمعركة من أجل التحرير التي أُطلقت

تحت الانتداب الفرنسي. وتتصرف الفرق الموالية للأسد بقسوة جيش الاحتلال نفسها. مشط الفرنسيون ضواحي دمشق المسماة تحت المصطلح الجامع «الغوطة» من دون رحمة عام 1926 . وأخضعها الأسد للقصف المستمر والحصارات عديمة الرحمة، بل في شهر آب/ أغسطس 2013 إلى القصف بالكيماوي. نستطيع زيادة الأمثلة، وعند كل مرة، ثمة تصاعد في الهول من قرن إلى آخر. ويوجد كذلك من مثل «كيسيل»[277] جدد، مستعدون للتقليل من وقع جرائم كهذه، في حال تعذر مد يد العون للجلادين.

(277) المقصود الكاتب جوزيف كيسيل الذي مرّ ذكره سابقًا.

11 . ثلاثة رؤساء فرنسيين في سورية

عرف شارل ديغول سورية جيدًا، فقد عُيّن مدة عامين 1929 – 1931 في مجلس قيادة جيش المشرق. وإذ كان مقرّه في بيروت، فقد قاد مهمات عدة في المدن السورية في دمشق وحماة وحمص وحلب وتدمر. شارك أيضًا في حزيران/ يونيو 1930 بحملة سلام في منطقة «فم البطة» في أقصى شمال شرق سورية، ذات الأغلبية الكردية من السكان. كتب قائد كتيبة ديغول لأبيه عن تأثره لأنه كان من أوائل الفرنسيين العسكريين الذين وصلوا إلى دجلة.

في نيسان/ أبريل 1941، ذهب حاكم فرنسا الحرّة إلى القاهرة حيث عيّن جورج كاترو «مندوبًا عامًا» للشرق الأوسط. وكان الجنرال كاترو قد خدم مرتين في المشرق في 1920 – 1922 وفي 1926 – 1927، وعقد في مصر علاقات ثقة مع السلطات البريطانية. فتح ديغول بهذا القسم فصل «الشرق» من الجزء الأول من كتابه «مذكرات الحرب». وبقيت جملة المقدمة شهيرة: «أطير نحو الشرق المعقد، بأفكار بسيطة».

نادرًا ما اقتُبس من الجنرال، بهذا القدر من سوء الفهم لسياقه. فلنقرأ في الواقع التتمة: «كنت أعرف أنه من بين العوامل المتشابكة، ثمة لعبة جوهرية تدور هناك. يجب إذًا أن نشارك بها». إنها هذه «اللعبة الجوهرية» الحاصلة في المشرق التي أجبرت على تقديم «الأفكار البسيطة» من أجل محاربة فيشي بصورة أفضل. انتصار فرنسا الحرة في المشرق أمرٌ لا غنى عنه من أجل ربطه بمعركة البحر الأبيض المتوسط، ومن ثمّ تحرير الأراضي الوطنية. واختتم ديغول فقرته بهذا الإعلان النابض بالحياة: «كان الواجب هو التصرف، هنا كما هناك، في مكان هؤلاء الذين لم يقوموا بذلك ومحلهم»(278).

«الشرق المعقد» بالنسبة إلى ديغول ليس إذًا خلافًا لما يدعوه مقلدون كسالى شرقَ الشرقيين. إنه شرق الدسائس الغربية والنزاعات الفرنسية – الفرنسية، فاللامبالاة المضطربة التي جاهر بها رجل 18 حزيران/ يونيو تجاه مصير شعوب الشرق الأوسط ستقوده إلى الإضرار بصدقية فرنسا في سورية.

(278) Charles De Gaulle, Mémoires de guerre, tome 1, L Appel, Plon, Paris, 1954, p.145.

فرنسيون ضد فرنسيين في الشرق

على الرغم من هيبة كاترو أكثر من ديغول نفسه، فقد بقيت أغلبية جيش فرنسا المشرق مخلصة لفيشي. هتف مروجو المارشال بيتان[279] «الشرف لجنودنا الشجعان في سورية»، لأنه «لا يوجد مكان في هذا البلد للخونة الذين يروجون البروباغاندا الإنكليزية»[280]. ولم يولِ الديغوليون الاصطفاف المنظم إلا اهتمامًا أكبر، كما حال الكولونيل فيليبير كوليه وفرسانه المئة الشركس الذين اشتهروا عام 1926 في قمع تمرد الدروز.

وقد عجل توفير فيشي لألمانيا المطارات السورية المواجهة. في منتصف أيار/ مايو 1941، قصفت القوى الملكية الجوية مطارات دمشق وتدمر. وفي 8 حزيران/ يونيو دخلت الفرق العسكرية البريطانية وقوى فرنسا الحرة إلى سورية، مفتتحة بذلك شهرًا من الصراع العنيف جدًا. تدخّل الطيران الألماني مرات عدة انطلاقًا من العراق الجار. وحشدت لندن حلفاءها ومعاونيهم في «الحملة على سورية» هذه. هكذا التحق موشيه دايان بطل إسرائيل المستقبلي القادم بالفرقة السابعة الأسترالية: وضحيةً لطلقة من حكومة فيشي فقد عينه اليسرى.

دخل ديغول الى دمشق «المحررة» في 24 حزيران/ يونيو 1941، واكتفى بمباحثات عامة في أثناء لقاءاته مع الوطنيين المحليين. وتم التوصل إلى وقف إطلاق النار بين السفراء المفوضين البريطانيين وأتباع بيتان في 14 تموز/ يوليو في مدينة عكا الفلسطينية. حصل ديغول الغاضب من استبعاده من هذه المحادثات على ميثاق لتأويل معاهدة الاتفاق يعترف بسلطة فرنسا الحرة. لكنه لم يستطع منع أكثر من 37000 عسكري فرنسي من الانسحاب عبر البحر إلى مرسيليا، في حين تخلى 5000 جنديًا فحسب من جيش المشرق عن فيشي للانخراط في قوى فرنسا الحرة.

عاد ديغول إلى سورية في الأيام الأخيرة من شهر تموز/ يوليو 1941. وألهب بخطبته المؤيدين الديغوليين في العاصمة: «على الطريق الصعب والمجيد الذي يؤدي إلى تحرير

---

(279) عسكري ورجل دولة فرنسي أكرم بلقب المارشال في 1918. رئيس الدولة الفرنسية (1940-1944) ورئيس الوزراء (1940) ووزير الحربية (1934). (م).

(280) Non daté, reproduit in Pierre Fournié et Jean Louis Riccioli, La France et le Proche-Orient 19161946-, Casterman, Paris, 1996, p.202.

فرنسا، فإن هذا الاجتماع هنا في دمشق للفرنسيين الطيبين والفرنسيات الطيبات الذين هم أنتم، هو برهان حاسم على حقيقة أن روح فرنسا لا يمكن تقسيمها»[281]. وجدّد في جامعة دمشق الالتزام باستقلال البلد الذي أخذه كاترو منذ بدء «الحملة على سورية».

اختلف ديغول على الرغم من ذلك مع «نائبه العام» حول قيمة التزام مماثل. وكان من غير الوارد بالنسبة لزعيم فرنسا الحرة تعديل سلطة الانتداب، ما دام النزاع جاريًا. مهووسًا بالتدخل البريطاني، غالبًا ما ربط ديغول بين القومية العربية ومناورات حلفائه الخبيثة. بالمقابل كان كاترو الذي استقر في السراي الكبير في بيروت، مقتنعًا بالطبيعة الحتمية لاستقلال حقيقي لسورية ولبنان. وسمحت له موهبته وموهبة معاونيه بالتعهد بشرعية ضبابية تناسب الأطراف كلها.

هكذا أخذت جولة شهر قام بها ديغول في آب/ أغسطس وأيلول/ سبتمبر 1942، سمات انتصار في سورية وفي لبنان. فقد اجتاز دمشق، جنبًا إلى جنب مع الشيخ تاج الدين «رئيس الجمهورية» صاحب السلطة الشكلية، والمعاون المخلص لفرنسا منذ بداية الانتداب. تغدى في فندق بارون في حلب مع محافظ المدينة. وزار أيضًا اللاذقية وحماة. وفي السويداء، لم تفته تحية الخيالة الدروز، العنصر الأساس لفرقه الخاصة التي اعتمد عليها الديغوليون من أجل الإمساك بالبلد.

فتح موت تاج الدين في كانون الثاني/ يناير 1943 الباب أمام انتخابات عامة أجلها الوطنيون السوريون إلى شهر تموز/ يوليو. كانت إدارة دمشق الجديدة تطالب بسلطات فعلية، لكن، بدلًا من التعامل مع البارع كاترو الذي استدعي إلى الجزائر، فقد اصطدمت مع جان إيلو الدبلوماسي في المهنة لا في الطبع. نجح هذا «النائب العام» بتحقيق إجماع الوطنيين ضده سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين لبنانيين أم سوريين.

مع بدء العد التنازلي لإعلان لبنان الكبير المفروض عام 1920 على سورية المهزومة، صار استقلال لبنان واستقلال سورية موضع مفاوضات حقيقية. أقالت فرنسا الحرة إيلو من منصبه، وأعادت إرسال كاترو من أجل تهدئة الأزمة. ووقّع الجنرال الديغولي في كانون الأول/ ديسمبر 1943 على معاهدة نقل السلطات المخولة باسميهما إلى السلطات السورية واللبنانية، في إطار الانتداب.

---

(281) Discours aux francais, de Charles de Gaulle, Damas, 29 juillet 1941.

التناقض الديغولي

صار كل من سورية ولبنان بدءًا من ذلك، دولة لها سيادة، وشاركتا بهذه الصفة في تأسيس الجامعة العربية التي أطلقت في تشرين الأول/ أكتوبر 1944 في الإسكندرية، قبل أن تصبح رسمية في آذار/ مارس 1954 في القاهرة. كانت سورية ولبنان وحدهما جمهوريتين في هذه الجامعة، إلى جانب خمسة أعضاء مؤسسين بنظام ملكي؛ مصر والعراق والضفة الشرقية للأردن والعربية السعودية واليمن.

واصل ديغول المحاط بهالة تحرير الأراضي الفرنسية رؤيته أن الجامعة العربية ليست إلا مؤامرة أنكلوساكسونية. ورفض القبول بنتائج استقلال سورية كلها، في حين ترافع رئيس الوزراء فارس الخوري ببلاغة عن قضية الجمهورية الشابة في المؤتمر المؤسس للأمم المتحدة في نيسان/ أبريل 1945 في سان فرانسيسكو.

تبلورت الدعوى حول رفض باريس نقلَ السلطة على الفرق الخاصة إلى دمشق. في الواقع فإن هذه المجموعات الرديفة التي توظف بالدرجة الأولى الأقليات الإثنية والطائفية قد أثارت خشية رئيس الحكومة من الأسوأ؛ المسيحي هو نفسه. وصوّت البرلمان السوري في 13 أيار/ مايو 1945 بالإجماع على قانون «يدعو إلى عقوبات قاسية ضد كل من يستثير المشاعر الدينية، الطائفية أو المناطقية بهدف تهديد الوحدة الوطنية»[282].

أبحر تعزيز من الرماة السنغاليين بعد مدة قصيرة إلى بيروت من أجل الانتشار في سورية، حيث اندلع شغب خطر في حمص وحماة. وفي 29 أيار/ مايو 1945 أراد أحد هؤلاء الرماة إجبار الشرطة العاملة أمام البرلمان السوري على تحية العلم ذي الألوان الثلاثة. وأطلق الرفض الذي كان متوقعًا تمامًا اعتداءا فرنسيًا على البرلمان، ثم قصفًا بسلاح المدفعية بل بالطيران على مبانٍ رسمية عدة. استمر هذا القصف مدة يومين وخلّف مئات القتلى في دمشق.

أجبر رئيس الحكومة البريطانية المدعوم بقوة من الرئيس روزفلت فرنسا على الكف عن الأعمال العدائية. واتهم ديغول علنيًا تشرشل بأنه عزم القيام بـ «تصادم بين الفرق العسكرية الفرنسية والفرق البريطانية على الأرض». واعترف على مضض أنه «استعمل

---

(282) Salma Mardam Bey,)Paris: La Syrie et la France, l Harmattan, 1994), p.208.

المدفع بل الطائرة» في دمشق[283]. وبدلًا من رحيل متفاوض عليه عن سورية، أجبرت الفرق العسكرية الفرنسية على انسحاب غير مشروط، توصل إليه في 17 نيسان/ أبريل 1946 . وأصبح هذا التاريخ منذ ذلك الوقت محتفلًا به في دمشق بوصفه «عيد الجلاء».

خرج الوطنيون السوريون في هذه الأثناء منهكين من امتحان القوة الأخير هذا مع فرنسا. وغدت شرعيتهم البرلمانية مستنكرة بشدة بوصفها خيانة للحزب؛ اتهمهم بها جيلٌ جديد من الضباط الذين سيحاولون قريبًا القيام بانقلاب. واصطدمت ليبراليتهم العقائدية مع بزوغ أحزاب ذات طبيعة سلطوية؛ الإخوان المسلمون أو الشيوعيون، بانتظار «الاشتراكي العربي» لحزب البعث.

أما في ما يخص ديغول، فقد ترك السلطة في كانون الثاني/ يناير 1946، من دون أن يكون واعيًا بأنه قوّض هيمنة فرنسا على سورية. ومذ ذاك، ستلقي الولايات المتحدة الأميركية والاتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى بثقلها في صراعات التأثير في دمشق. وأثارت الحملة على السويس التي تحالفت فيها فرنسا عام 1956 مع إسرائيل والمملكة المتحدة ضد مصر عبد الناصر، احتجاجات معادية لفرنسا في سورية كلها. وانقطعت العلاقات الدبلوماسية بين باريس ودمشق بهذه المناسبة، ولن تستعاد إلا بعد استقلال الجزائر عام 1962.

إنه ديغول جديد ذاك الذي سيبزغ في عيون حكام العرب والآراء العربية. وشعبيته المتصاعدة مستحقةٌ نظرًا إلى ما يمثّله فعليًا، كما لما يظهر عليه أنه معارض له: الأخطاء الفرنسية في السويس واصطفاف الولايات المتحدة مع إسرائيل. حرب حزيران/ يونيو 1967 التي ربحتها إسرائيل ضد جيرانها مجتمعين بالسلاح الفرنسي، ولن نذكر إلا الطلب الذي عبّر عنه ديغول بالانسحاب من الأراضي المحتلة في أثناء النزاع. هذا ينطبق كذلك على هضبة الجولان المماثلة للألزاس ولورين، بالنسبة إلى الرأي السوري. محا تمجيد ديغول بوصفه «صديق العرب» إذًا، ذكرى قصف عام 1945 على دمشق.

---

(283) Charles de Gaulle, Mémoires de guerre, tome 3, (Paris : Le Salut, Plon), p.525.

«حرب الظلال» بين ميتران والأسد

يعرف قليل من الفرنسيين أن بلادهم انخرطت في حرب غير معلنة مع سورية من عام 1981 إلى عام 1984. كان حافظ الأسد هو الذي بادر بالعدائية التي يمكن مقارنتها بحرب بالوكالة قادها في الشرق الأوسط وما وراءه عبر وسطاء إرهابيين. كانت أكثرها أهميةً من بينهم المجموعة[284] التي يقودها من دمشق الفلسطيني أبو نضال المعارض العنيد لياسر عرفات، رئيس حركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية.

كان مأخذ الأسد على ميتران المنتخب في أيار/ مايو 1981، دعمه سيادة لبنان واستقلال منظمة التحرير الفلسطينية، في حين إن المستبد السوري يرغب باحتكار «الأوراق» اللبنانية والفلسطينية. ولا سيما أن الانخراط العسكري المتصاعد لباريس إلى جانب بغداد وصدام حسين، قد رآه نظام الأسد بمثابة شراكة عسكرية، وأكثر من هذا، فقد رأته كذلك الجمهورية الإسلامية الإيرانية التي كان العراق قد اجتاح أراضيها في أيلول/ سبتمبر عام 1980.

وأخيرا فقد انخرط الدكتاتور السوري في صراع حتى الموت، على أرضه مع تمرد إسلامي تدعمه بغداد ومنظمة التحرير الفلسطينية. وليست «حرب الظلال» التي قادها الأسد ضد ميتران إلا امتدادًا لتلك الحرب التي أطلقها أصلاً للانتقام من صدام وعرفات. وقد مكّن استقرار المعارضين الرئيسين[285] لآية الله الخميني في تموز/ يوليو 1981 في فرنسا؛ الأسد أن يعتمد هو أيضًا على مساعدة الأجهزة الإيرانية وحلفائها في لبنان.

أطلقت الطلقة الأولى لهذه الحرب الخفية في بيروت في 4 أيلول/ سبتمبر 1981، مع مقتل السفير لويس ديلامار الذي قد كان نظّم لقاءً بين عرفات ورئيس الدبلوماسية الفرنسية. ربما كان لدى الكوماندوس الإرهابي نية خطف ديلامار من أجل مبادلته لاحقًا مع معارضين إيرانيين لاجئين في فرنسا. في الأحوال جميعها فقد أصابت طلقات متواترة قاتلة السفير غير بعيد من حاجز للجيش السوري.

---

(284) الاسم الرسمي لمجموعة أبي نضال «فتح المجلس الثوري».

(285) يتعلق الأمر بالرئيس المخلوع بني صدر ورئيس مجاهدي الشعب مسعود رجوي اللذين أجبرا السلطات الفرنسية على الهبوط في إيفرو على متن بوينغ إيرانية 29 تموز/ يوليو 1981.

وفي 15 نيسان/ أيار 1982، قتل دبلوماسي فرنسي وزوجته في منزلهما البيروتي. وبعد أسبوع فجرت سيارة مفخخة أمام المقر الباريسي لجريدة مقرّبة من العراق في شارع ماربوف على بعد خطوتين من جادة الشانزيليزيه وقتلت مارة. أعلنت فرنسا طرد دبلوماسيين سوريين بعد ساعات من هذا الهجوم الذي نسب إلى نظام الأسد. وفي 24 أيار/ مايو فجرت سيارة مفخخة أخرى، لكن هذه المرة في محيط سفارة فرنسا في بيروت، وقتلت 11 شخصًا.

من المرجح أن يكون الأسد قد انتشى بقدرته بعدما سحق في آذار/ مارس 1982 المعقل الإسلامي الأخير في حماة (حصيلة حمام الدم هذا تتراوح بين 7000 إلى 25000 قتلى وفقًا للمصادر). وإذ تقوّى على الجبهة الداخلية، فقد رأى سيد دمشق من دون استياء عدوه القديم عرفات محاصرًا في بيروت الغربية من قبل إسرائيل، ومعه آلاف الفدائيين الفلسطينيين. ما جعله أكثر عداء تجاه جهد فرنسا الرامي إلى إنقاذ رئيس منظمة التحرير ومؤيديه.

وحدثت المفاجأة الكبرى في 9 آب/ أغسطس 1982 في شارع «ليه روزييه» في قلب الحي التاريخي ليهود باريس، حيث هلك 6 أشخاص بإطلاق نار برعاية «أبو نضال» الذي نظّم تلك العملية من دمشق، هو الذي لا يستطيع رفض شيء لحماته السوريين. كانت الأزمة التي أثارها هذا الهجوم المعادي للسامية عميقة، لكنها لم تمنع انسحاب عرفات ومخلصيه عن طريق البحر تحت إشراف فرنسا.

وجنّد ميتران حوالي 2000 مقاتلًا عسكريًا في بيروت إلى جانب الفرقة الأميركية وفي إطار القوة المتعددة الجنسيات. وقد جعل دعم هذه القوة لاتفاق سلام إسرائيلي – لبناني في أيار/ مايو 1983، المواجهة المباشرة مع سورية أمرًا لا مفر منه. وأخذت شكل تراشق بالمدفعية مزدوج بين المواقع السورية والغربية في لبنان. بل إن باريس قررت في 22 أيلول/ سبتمبر قصفًا جويًا على البطاريات السورية تحت اسم «الدفاع الشرعي عن النفس».

كان الأسد في هذه الأثناء يمسك بورقة أساسية في هذا النزاع غير المتكافئ: حزب الله الذي تأسس في لبنان خلال صيف عام 1983، تحت درع الاستخبارات الإيرانية والسورية. احتمت هذه الميليشيا المنظمة بصورة صارمة جدًا، خلال ثلاث سنوات تحت مسمى «الجهاد الإسلامي» لئلا تسهّل الردود الانتقامية على العمليات الاستشهادية التي كانت تقوم بها أولًا ضد الجيش الإسرائيلي في جنوب لبنان، ثم ضد القوة متعددة الجنسيات في بيروت.

وفي 23 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1983، هلك 58 مظليًا فرنسيًا من المستقرين في مبنى دراكار، و241 أميركيًا من المارينز في ثكنة قريبة، ضمن هجوم مزدوج تبنّاه الجهاد الإسلامي. تجاهل ميتران تحذيرات استخباراته الأمنية، وذهب إلى بيروت في اليوم اللاحق من أجل زيارة لذكرى الضحايا. وفي 16 تشرين الثاني/ نوفمبر، قصف ثكنة لحزب الله في غرب لبنان، تحت عنوان «عقوبات ضد الإرهاب». وكان يجب القيام بأكثر من ذلك من أجل ثني الأسد الذي كان حلفاؤه اللبنانيون يطلقون الاعتداء في بيروت في شباط/ فبراير 1984، ما أدّى بذلك إلى رحيل القوة متعددة الجنسيات ثم إلغاء المعاهدة الإسرائيلية اللبنانية.

كان لدى ميتران إدراكٌ كبير بالتاريخ، لئلا يفهم أنه خسر «حرب الظلال» المكلفة جدًا بالأرواح. في نهاية شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1984، ذهب إذًا إلى دمشق من أجل طي هذه الصفحة القاتمة. كان ميتران مهتمًا بإنقاذ ماء وجهه، فبالغ بكياسته مع الأسد الحاضر وقتئذ في المؤتمر الصحافي الاعتيادي: «ما كان ممكنًا التقدير بأن سورية كانت وراء مقتل السفير ديلامار، أو التفجيرات المأسوية المتتابعة في بيروت، وكما أكد الرئيس الأسد دائمًا بأن ليس هذا ما عليه الأمر، فإنني لا أرى لماذا يمكن التشكيك بكلامه»[286]. لا بدّ أن الطاغية السوري قد استمتع بانتصاره وهو يستمع إلى أنه ما زال بالإمكان تصديق «كلامه».

مشروع شيراك الكبير

بذل جاك شيراك المنتخب في أيار/ مايو 1995 جهدًا كبيرًا لإطلاق «سياسة عربية» طموحة، يكون رفيق الحريري رئيس الحكومة اللبنانية منذ 1992، مفتاحها الرئيس. ودفعت الروابط القديمة والوثيقة بين الرجلين شيراك إلى تبني جزء كبير من الرؤية الإقليمية للذي ناداه في نهاية المطاف بـ «أخي»[287]. قلبت فرنسا موقفها التقليدي بالدفاع عن السيادة اللبنانية في مواجهة تدخلات دمشق من أجل الدعوة لعلاقات مميزة مع سورية، يكون لبنان المستفيد المباشر منها.

(286) Conférence de presse de Francois Mitterrand a Damas, 28 novembre 1984.

(287) Jacques Chirac, Le Temps Présidentiel (Mémoires tome II),) Paris: Nil, , 2011(, p.518.

لم يكن للأسد من بدّ إلا الاستمتاع بهذا الانقلاب في الموقف الفرنسي، فاستقبل شيراك الذي افتتح في دمشق جولة شرق أوسطية في تشرين الأول/ أكتوبر 1996، بكل أبهة. بل إن الرئيس الفرنسي قاد مضيفه السوري في حشد جماهيري مرتجل ممن تجمعوا «تلقائيًا» في المطار. أكد مستشارو الأسد المزهويين أنهم لم يروا ابتهاجًا مماثلًا منذ «زمن عبد الناصر». وأكّد الرئيسان تقارب وجهتي نظريهما في اجتماعات وراء الأبواب المغلقة وخلال مؤتمر صحافي.

رد شيراك بأدب أكثر مع الأسد الأب، إذ دعاه إلى زيارة دولة إلى باريس في تموز/ يوليو 1998. لم يكن ثمة ما هو أجمل لإرضاء سيد دمشق الذي يعتمد عليه مصير رئيس الوزراء الحريري. بذلك قبل الإليزيه أجوبة الأسد المسوفة في ما يتعلق بألوا برونير، المسؤول النازي السابق لمعتقل معسكر درانسي الذي صار مساعدًا لأودولف إيخمان، واللاجئ في سورية منذ ثلاثة عقود[288].

ولم تكفِ هذه التسويات كلها لمنع سقوط حكومة الحريري في كانون الأول/ ديسمبر 1998. فقرر شيراك الذي جرحت مشاعره «تجميد» العلاقات مع دمشق انتقامًا. لكن فورة الغضب هذه دامت وقتًا قصيرًا، لأن الحريري أقنع شريكه «الإليزي» بالمراهنة على بشار الأسد الوريث المعين، من أجل تعزيز عودته بسلام إلى بيروت. هكذا دعا شيراك بشار إلى باريس في تشرين الثاني/ نوفمبر 1999، مؤيدًا بذلك التوريث ضمن السلالة المبرمج في سورية. وبدا أن المناورة قد نجحت بصورة كبيرة: فالرئيس الفرنسي هو الزعيم الغربي الوحيد الذي حضر مراسم مأتم حافظ الأسد في حزيران/ يونيو 2000، وهنأ بحرارة الوريث بشار عند تنصيبه؛ فاستعاد الحريري بعد مدة قصيرة رئاسة الحكومة اللبنانية، وقام الرئيس السوري الجديد بزيارة دولة إلى فرنسا في حزيران/ يونيو 2001.

أثنى شيراك في كل مكان على خصال «الإصلاحي» بشار الأسد، بل إنه أطلق في دمشق مشروع مدرسية وطنية للإدارة على غرار الـ «إينا» الفرنسية. في حين لم يرَ أي من الاصلاحات المعلنة النور، لأن الدكتاتور السوري لم يغير أسلوبه إلا ليعزز سطوته. وقد دفع الغزو الأميركي للعراق عام 2003، بشار الأسد إلى الانقباض صوب حلفه مع إيران وحزب الله اللبناني، الأمر الذي أضعف موقف الحريري.

(288) لن يؤكد موت برونير في سورية عام 2010 إلا عام 2014، بعد نصف قرن إذًا من عدم العقاب الذي ضمنه نظام البعث تحت حكم الأسد الأب والابن.

ووفقًا للرئيس الفرنسي، فقد استدعى الأسد رئيسَ الوزراء اللبناني في آب/ أغسطس 2004 إلى دمشق وهدده بهذا الكلام: «إن أراد شيراك إخراجي من لبنان، فسأكسر لبنان»[289]. وبعد مدة قصيرة دعت فرنسا مجلس الأمن في الأمم المتحدة للتصويت على قرار يطلب نزع سلاح حزب الله وانسحاب سورية من لبنان من دون أن يسميهما.

لم يستسلم بشار الأسد في وجه شيراك، مثل أبيه الذي لم يتراجع في وجه ميتران: هلك الحريري الذي خُلع من على رأس الحكومة اللبنانية، في تفجير كبير في قلب بيروت في شباط/ فبراير 2005. حضر شيراك مراسم الدفن بصفة شخصية، لئلا يضطر إلى السلام على نظيره اللبناني المقرب جدًا من دمشق. واتهم بصورة شخصية الأسد بالجريمة، ونشط كي تنشأ الأمم المتحدة «محكمة خاصة» لهذه القضية.

كان شيراك خلال عاميه الأخيرين في الإليزيه مسكونًا حرفيًا بتعطشه إلى العدالة، وقال بعضهم بل بالانتقام من الرئيس السوري. ولم يرضَ بانسحاب الجيش السوري من لبنان في ربيع 2005 الذي وضع مع ذلك حدًا لاحتلال طويل مدة 29 عامًا. وفي خضم هوسه ضد بشار، فقد صدق رئيس الدولة الفرنسية وهم «الهلال الشيعي» الذي ستكون فيه «سورية الأسدين» القطعة المركزية مع إيران والعراق في الشرق، وحزب الله في الغرب.

من الشرعي التساؤل حول العلاقات بين الرئيس شيراك ورفيق الحريري، ومن ثم ابنه سعد الذي ورث إمبراطورية سياسية مالية من أبيه، مثلما «ورث» بشار الأسد سورية من أبيه. دعونا نتذكر تسخيف الإليزيه للكليشيهات الطائفية من أسوأ العيارات: نظام الأسد ليس دكتاتوريًا بل طائفي[290]، ودمشق وطهران وحزب الله لم يتحالفوا من أجل مصالح مشتركة، بل بسبب «تعاضد شيعي». والمعارضة السورية ليست ديمقراطية وإنما «سنية». وقد أسهمت هذه الاختصارات المجحفة لهذا الحد، منذ أكثر من عقد في تشكيل الخطاب العام عن سورية.

زار ديغول دمشق بوصفه منتصرًا في ثلاث مناسبات في 1941–1942، قبل أن يأمر من باريس عام 1945 بقصف العاصمة السورية. وذهب ميتران مرة واحدة إلى دمشق عام 1984، معترفًا أمام الأسد الأب بانتصار مضيفه في «حرب الظلال» التي دامت ثلاث

(289) Jacques Chirac, Le Temps Présidentiel, p.515.

(290) تمكن كاتب هذه السطور في كانون الأول/ ديسمبر 2003 ملاحظة أن مؤيدي الأسد كلهم كانوا علويين بعيون شيراك، حتى وإن كانوا في الواقع من السنة.

سنوات. ظنّ شيراك في دمشق عام 1996 أنه يفتح حقبة جديدة لـ «السياسة العربية»، قبل أن يعود إليها عام 2000 ليضفي شرعية على تنصيب الأسد الابن.

أما حافظ الأسد فقد انتظر بدوره، وهذه هي القوة الخارقة لطاغية دمشق في مواجهة نظرائه الذين يأتون ويذهبون وفقًا للانتخابات. فقد وصل إلى السلطة المطلقة حين كان جورج بومبيدو يصيغ المؤسسات الديغولية ضمن عقائد في الشرق الأوسط. وكان حذرًا من فاليري جيسكار ديستان وشغفه نحو لبنان. ورأينا كيف قضى بصبر على نزوات التدخل لرئيسين لاحقين، مجبرًا إياهما على الاعتراف بالتأثير الإقليمي لسورية، بالنسبة لميتران على مضض وبالنسبة لشيراك عن قناعة.

ليس بشار الأسد إلا استمرارية لحرب الاستنزاف الدبلوماسية – العسكرية هذه، حيث مرّ فيها الرؤساء الفرنسيون، وكذلك أيضًا قاطنو البيت الأبيض ورؤساء الحكومة الإسرائيليين. لكن الهجوم ضد الحريري عام 2005 تجاوز بكثير انتهاك حرمة مقتل ديلامار عام 1981، وكان المهم بالنسبة للأسد الابن الصمود حتى مجيء من يخلف شيراك. تصالح نيكولا ساركوزي في الواقع مع المستبد، بل ذهب إلى حدّ دعوته إلى مراسم الاحتفال بـ 14 تموز/ يوليو عام 2008. وكان ساركوزي لمرة أخرى أكثر «شيراكية» مما يعترف هو بنفسه، إذ يتبع بسلاسة أكثر المسار السابق، مارًا من شهر العسل مع دمشق إلى العداء المفتوح.

هكذا توصل الأسدان إلى توريط نظيريهما الفرنسيين في علاقة خاصة تمزج بين الافتتان والاشمئزاز. وكان لا يمكن مسامحة ديغول على الإخفاق حول الحقيقية السورية. وما هو أكثر بعثًا على الاضطراب أن قاطني الإليزيه الجدد لا يرون البلد إلا عبر موشور الأسدين، ناسين قوة الموارد والتأثير الذي يبطنه المجتمع السوري للسلطة الانتدابية القديمة. هذا «التأسيد» لسورية ليس خاصًا بفرنسا وحدها، لكنه أصبح عيب مجمل الدبلوماسية العالمية.

12 . دوارات السياسة وإخفاقاتها

يعترف الجميع بفضل حافظ الأسد في استعادة المنزلة الدولية لسورية: فالبلد الذي انسحبت منه الفرق العسكرية الفرنسية عام 1946، هو في الواقع رهان منافسة متوحشة بين مصر والعراق والعربية السعودية والأردن، على غرار تمزّقه بين الخلفاء المتنافسين وبيزنطة في القرن الحادي عشر؛ وقد أعاد البعث وضع سورية في مركز لعبة شرق أوسطية، حيث سورية لاعب رئيس، إلى درجة أنها كانت زناد الانزلاق نحو حرب حزيران/ يونيو عام 1967؛ لقد كرس الأسد استعادة سورية بوصفها قوة مستقلة يجب مراعاتها أو مغازلتها. ورأينا كيف أنه علّم فرنسا أنها لا تستطيع أن تتحداه إلا بثمن مرتفع.

مع ذلك، فهل سورية هي التي فرضت نفسها باعتبار أنه لا يمكن تجنبها، أم أنه نظام الأسد الذي استأثر بذلك بمصادرها الرمزية والإستراتيجية؟ ليس السؤال بريئًا في الوقت الذي يراقب فيه الدبلوماسيون مواقف دمشق بقياس «المصلحة العليا»، وهذا في الحقيقة ليس مقنعًا. إن ما يفيد الأسد ليس بالضرورة «جيدًا» بالنسبة إلى سورية وشعبها. «مصلحة النظام» هي ديناميكية مناورات دكتاتورية، ليس الإرهاب بالنسبة إليها إلا أداة من بين أدوات في العلاقات الدولية.

تبعية لبنان المسيطر عليه عسكريًا من 1976 إلى 2005، هو أمر ذو شعبية من دون شك في سورية نفسها، على الأقل لجهة إعادة توزيع منتجات النهب الذي تقوم به قوات الاحتلال. من ناحية أخرى، فإن تعاضدًا حقيقيًا يمكن لمسه مع العراق، ولا سيما في حوض الفرات، على الرغم من التحالف المعقود بين الأسد وإيران ضد صدام في 1979 – 1980، ثم في المشاركة السورية في التحالف لتحرير الكويت عام 1990 – 1991. يتناقض الإنكار نفسه بصورة صارخة مع الحملات التي قامت بها دمشق ضد منظمة التحرير الفلسطينية في عام 1976 و1983.

غير مهم إذًا بالنسبة إلى المستبد أن تحظى سياسته بموافقة رعاياه أم لا. وقد أثارت هذه القدرة في التراجع عن رأيه، انطباع زواره الأجانب المهتمين بإدراج تفاهماتهم في مدة

محدودة للديمقراطية. حقق الأسد بذلك عمله الباهر عبر تماهي نظامه مع استمراريته من جهة، ومع سورية واستقرارها من جهة أخرى. هذا التطابق في نظر الآخر، سواء أكان عربيًا أم غربيًا أم شرقيًا، يفترض أن يقنع السوريات والسوريين بعبثية أي بديل سياسي.

بسمارك وصلاح الدين

حين شغل ريتشارد نيكسون البيت الأبيض في كانون الثاني/ يناير 1969، عيّن هنري كيسنجر مستشارًا للأمن القومي، وكرّس «العزيز هنري» نفسه أكثر من أربع سنوات للسياسة الكبرى التي هي في نظره «الحرب الباردة» مع الاتحاد السوفياتي ومن خلالها النزاع في فيتنام. وترك طوعًا الملف الإسرائيلي العربي لوليام روجرز رئيس الدبلوماسية الأميركية (سكرتير دولة وفقًا للتسمية الواشنطونية).

في أيلول/ سبتمبر 1973 حل كيسنجر محل روجرز على رأس وزارة الخارجية وفي الشهر اللاحق، اجتاز جيشا مصر وسورية الخطوط الإسرائيلية في قناة السويس وعلى هضبة الجولان. تمتعت حرب تشرين الأول/ أكتوبر هذه، المسماة «كيبور» (يوم الغفران) في إسرائيل، و»رمضان» في البلاد العربية، بجسرٍ جوي ضخم من الولايات المتحدة إلى إسرائيل. فقررت العربية السعودية بدافع الانتقام تعليق تزويد الأميركيين بالنفط، من هنا عُرف ارتفاع بالأسعار باسم «الصدمة النفطية الأولى». أقرت الأمم المتحدة وقف إطلاق النار بعد مضي 18 يومًا من المعارك الضارية.

ومن أجل تهدئة العربية السعودية وإعادة هيمنة الولايات المتحدة في آن معًا، ذهب كيسنجر للتوصل إلى اتفاق فك الاشتباك بين إسرائيل وعدويْها العربيين. كانت الجولة سهلة نسبيًا مع مصر أنور السادات الذي كان منذ تاريخ بعيد قد أعلم واشنطن بأولوية استعادة سيناء على التعاضد العربي. كانت المفاوضات التي أعلنت مع سورية الأسد أكثر صعوبة، سورية الحليف الرئيس للاتحاد السوفياتي في المنطقة.

لم تدم جلسة المقابلة الأولى التي أعطاها الأسد لكيسنجر في 15 كانون الأول/ ديسمبر 1973، أقل من ست ساعات. تعلّم الوزير الأميركي أن يسيطر على أعصابه وألا يفقد صبره خلال درس التاريخ المفصل الذي فرضه عليه مضيفه السوري، لكن الأمر لم يكن يعدو جولة تحمية.

بين 29 نيسان/ أبريل و29 أيار/ مايو، قادت جولة المحادثات التي قام بها كيسنجر مع إسرائيل، 13 مرة إلى دمشق، وكانت مجموعها 130 ساعة من المحادثات مع الأسد. فكان اتفاق فك الاشتباك المتعلق بالجولان بإشراف قوة من الأمم المتحدة[291]، ومنحت الولايات المتحدة نفسها دور صانع السلام من أجل أن تفوض لآخرين المتابعة بصورة فضلى.

في 16 حزيران/ يونيو 1974 ذهب نيكسون الى دمشق من أجل تعزيز هذه العلاقة الخاصة جدًا مع الأسد الذي تدعمه موسكو دائمًا من دون أمل باسترداد الجميل، لكن أيضًا الشريك في اتفاق حاسم بالنسبة لأمن إسرائيل. بقيت هضبة الجولان لمدة أرضًا سورية محتلة، وأصبحت أكثر حدود الدولة العبرية أمنًا. وبعد هذا الإنجاز، لم يتردد كيسنجر المعجب الصادق بأبي التوحيد الألماني[292] بوصف الأسد أنه «بسمارك العرب».

هذه المماثلة «البروسية» تعلمنا أقل عن الأسد مما تلفظه. إذ إنها تترجم الموافقة بالمبدأ على سيطرة دمشق الفعلية على لبنان (وعلى منظمة التحرير) خلال الاجتياح السوري عام 1976. وتكشف عن افتتان بـ «رجل قوي» نستطيع معه التحدث «بالواقعية السياسة» من دون الحرج للاعتبارات الإنسانية. ويستطيع بذلك قادة العالم كله الذين تتابعوا في صالون الأسد أن ينتشوا نتيجة الجلوس في كرسي كيسنجر، وأن ينكبّوا على دبلوماسية عالية المستوى.

حتى جيمي كارتر الذي أصبح رئيسًا للولايات المتحدة في كانون الثاني/ يناير 1977 وقع في هذا الوضع الشاق، إذ التقى نظيره السوري في جنيف 9 أيار/ مايو خلال سبع ساعات متواصلة صوّر بعدها الأسد تحت ملامح «صلاح الدين»[293]. كنا قد رأينا كيف أنها بالتحديد الصورة التي أراد الأسد نسبها إلى سورية وأكثر من ذلك. المقارنة مع بسمارك أو صلاح الدين هي أصلًا رفيعة القيمة بحد ذاتها، وفيها تنضوي ميزة هائلة لنظام الأسد، في عدّه لاعبًا عالميًا «قحًا» وتحجب شعبه وحقيقته.

---

(291) يتعلق الأمر بقوة ترسلها الأمم المتحدة وهي المكلفة بمراقبة فك الاشتباك وهي موجودة دائمًا على رأس عملها مدة أربعة عقود لاحقًا في هضبة الجولان الذي ألحق رسميا بإسرائيل عام 1981.

(292) أوتو فون بسمارك رجل دولة وسياسي بروسي - ألماني شغل منصب رئيس وزراء مملكة بروسيا بين عامي 1862 و1890، وأشرف على توحيد الولايات الألمانية وتأسيس الإمبراطورية الألمانية أو ما يسمى بـ «الرايخ الألماني الثاني»، وأصبح أول مستشار لها بعد قيامها في عام 1871، حتى عزله فيلهلم الثاني عام 1890، ولدوره المهم خلال مستشاريته للرايخ الألماني أثرت أفكاره على السياسة الداخلية والخارجية لألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر، لذا عرف بسمارك بلقب «المستشار الحديدي». (م).

(293) Jimmy Crter, Le Sang d Abraham, Londreys, Paris, 1986, p.119.

كان المدعوون العرب لدى طاغية دمشق أقلّ تأثرًا بسحره المفترض أو باستطراداته التاريخية. ولوليد جنبلاط زعيم اليسار اللبناني الحق كله في أن ينسب مقتل أبيه كمال في آذار/ مارس 1977 إلى الأسد. ونستطيع تخيل دهشته وهو يستمع إلى الرئيس السوري يستقبله بعد مدة قصيرة بـ «غير معقول كم أنك تشبه والدك»[294]. توسل عرفات عبثًا لدى الأسد في حزيران/ يونيو 1983 لكي يوقف الدعم السوري لـ «الانشقاق» الفلسطيني الذي يشكل عملية إخضاع حقيقية لمنظمة التحرير. ونجا عند خروجه من القصر الجمهوري من هجوم مميت. على الأقل إذًا، فإن جنبلاط وعرفات لن يرتكبا بعد ذلك الوقت خطأ تصديق أن الأسد يحترم كلمته.

عملية السلام

أتاح صدام حسين للأسد، باجتياحه الكويت آب/ أغسطس عام 1990، أن يبيع بثمن مرتفع للولايات المتحدة مشاركته في التحالف ضد العراق. وحصل في الشهر اللاحق على «توقيع على بياض» لتصفية المقاومة المعادية لسورية في لبنان (كانت فرنسا الوحيدة التي اعترضت على الدعم الأميركي المتسق مع السياسة المتبعة منذ عهد كيسنجر). وكان 23 تشرين الثاني/ نوفمبر 1990 تاريخ تكريس لقاء الأسد في القمة في جنيف مع الرئيس جورج بوش.

لم يكن تحرير الكويت في شباط/ فبراير عام 1991 بالنسبة إلى الأب بوش الطموح، إلا تمهيدًا لإنشاء «نظام عالمي جديد»، راسخ في إعادة تشكيل الشرق الأوسط. فكلّف وزير الخارجية جيمس بيكر بوضع «عملية السلام» على السكة؛ العملية التي ترمي إلى تعزيز الوضعية المهيمنة للولايات المتحدة. كان الرهان ذا خطورة إلى درجة أن الليكودي إسحاق شامير على رأس سلطة إسرائيل، رفض أدنى تنازل عن الأراضي، ومن بينها الجولان.

---

(294) Patrick Seal, Asad, p.289.

.في الواقع، لم يتمتع الأسد بأسلوب بيكر الذي لم يكن مترجمه يجرؤ ترجمة بعض التعابير المجازية (من نوع: لو كان للضفادع أجنحة، ما كانت لتجرّ قفاها على الأرض[295])، وفي الحقيقة فقد أخضع الأسد بدوره بيكر إلى جلسات مضنية من «دبلوماسية المثانة» كما كان المبعوثون الأميركيون يسمون بسخرية تلك اللقاءات الممتدة التي تطول (10 ساعات يوم 23 نيسان/ أبريل 1991 في دمشق).

أثمرت هذه الجولات المكوكية المنهكة في 14 تموز/ يوليو 1991، فقد أيّد الأسد الموقف الأميركي لمؤتمر سلام حول الشرق الأوسط. وسمحت موافقة دمشق لبوش أن يضغط على شامير ويصحبه في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر إلى مدريد. بالمقابل رضي الأسد بإرسال وزير خارجيته إلى المؤتمر الذي أفسد جو هذا الاجتماع التاريخي ملوحًا بيده بمذكرة اعتقال بتهمة «الإرهاب» التي أصدرها البريطانيون ضد شامير عام 1946.

بالنسبة إلى الدكتاتور السوري فإن المهم لا يدور في الواقع في مدريد، بل في المفاوضات الثنائية تحت درع الولايات المتحدة وما يترتب عنها. بيد أن هذه المفاوضات تعثرت حتى الانتخابات الإسرائيلية في حزيران/ يونيو 1992 التي فاز بها عن حزب العمال إسحاق رابين. وفتح قناة سرية للمفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية، وأفضت بعد عام إلى «اتفاق أوسلو» الشهير. وكذلك حاول نهجًا مباشرًا مع الأسد، لكن هذا الأخير رفض أي نقاش خارج الوساطة الأميركية.

أخذ رابين علمًا بذلك، وانتظر تنصيب بيل كلينتون في البيت الأبيض. وفي شهر آب/ أغسطس 1993 كلّف سكرتير الدولة وارن كريستوفر أن يقترح على الأسد تطبيعًا كاملًا للعلاقات مع إسرائيل مقابل انسحاب من الجولان خلال مدة تمتد على 5 سنوات. طلب الدكتاتور السوري من كريستوفر أن يتأكد بدوره عن جدية الزعيم الإسرائيلي حول الانسحاب إلى خطوط الرابع من حزيران/ يونيو 1967 كما كانت الحال في اتفاق السلام مع مصر عام 1979.

تصرف كريستوفر كمحام –وهذا هو تأهيله بالفعل– أكثر منه دبلوماسيًا. وأعلن أنه من السهل الحصول على تعهد كهذا وفق التسويات بين الطرفين. لم يلتقط الأسد الخدعة القانونية، أو تظاهر أنه لم يلتقطها؛ فأوضح من وقتها طلبه بتنفيذ التزام لم يكن

(295) Aaron Miller, The Much Too Promised Land, Bantam, New York, 2008, p.197.

إلا مشروطًا بصورة واضحة. ونتج عن مقتل رابين في تشرين الثاني/ نوفمبر 1995 والفوز الانتخابي لبنيامين نتنياهو في أيار/ مايو 1996 تعليق الشقّ السوري من «مفاوضات السلام».

بيد أن الأسد سيجتر انتقامه تجاه إدارة كلينتون التي لطالما رآها مسؤولة عن تجميد ملف الجولان. وجاءته المناسبة في كانون الأول/ ديسمبر 1998، عندما قصفت الولايات المتحدة العراق لمدة ثلاثة أيام رسميًا من أجل معاقبة رفض بغداد التعاون مع الأمم المتحدة، لكن واقعًا من أجل تحويل الرأي العام عن إجراءات العزل المقامة ضد كلينتون[296]، فقامت تظاهرات «عفوية» بالاعتداء على سفارة الولايات المتحدة في دمشق في 19 كانون الأول/ ديسمبر 1998. انتزع العلم ذو النجوم من الحرم الدبلوماسي، ومزّق بالأسنان، في حين كانت الجموع تهتف «الله أكبر». ونهب مثيرو الشغب المدرسة الأميركية ومقر السفير الذي تدين زوجته بنجاتها لاختبائها في غرفة مسلحة[297]. استتب النظام في المساء، في حين وصل التحذير بوضوح إلى واشنطن.

سرّعت عودة حزب العمال على رأس الحكومة الإسرائيلية مع يهود باراك في تموز/ يوليو عام 1999، في إعادة إطلاق «الخيار السوري». وجرت محادثات إسرائيلية سورية سرية منذ الشهر اللاحق في السفارة الأميركية في سويسرا. وتتابعت كذلك بسرية في الولايات المتحدة على قاعدة إعادة الجولان إلى سورية. في هذه الأثناء أصرّ الإسرائيليون على الحدود المقامة عام 1923 بين الانتدابين على سورية وفلسطين: هي التي تسمح لهم بالتحكم بالضفة الشرقية لبحيرة طبرية، حتى وإن لم يكن ذلك إلا على عمق بضع مئات من الأمتار. وأصر مندوبو الأسد على طلبهم بانسحاب إسرائيلي إلى خط 4 حزيران/ يونيو 1967 الذي سيعيد لسورية منفذًا إلى بحيرة طبرية.

قد يبدو غريبًا أن سلامًا محتملًا ومفيدًا للطرفين كليهما لم يمكن التوصل إليه بسبب واقع هذه الاختلافات الصغيرة جدًا في النهاية. وقد أدّى غياب الإدارة الأميركية الفعالة عن هذه «العملية» إذًا إلى «كارثة صادمة»[298] في قمة كلينتون الأسد في جنيف 26 آذار/ مارس 2000. انتظر الرئيس الأميركي حتى الدقيقة الأخيرة اتصالاً هاتفيًا من باراك

(296) مونيكا غيت، اسم المتدربة في البيت الابيض التي بسببها اتهم بيل كلينتون أنه كذب تحت القسم.

(297) كان كاتب هذه السطور شاهدًا مباشًرا على هذا العنف.

(298) بتعبير جون بوديستا رئيس حكومة بيل كلينتون في البيت الأبيض.

يؤكد صحة رسم حدود عام 1923 . وما إن أثار كلينتون مع الأسد «حدودًا متفقًا عليها بصورة مشتركة مع إسرائيل»، حتى رفض الدكتاتور السوري سماع المزيد. كانت تلك آخر مبارزة دبلوماسية له. فقد توفي في 10 حزيران/ يونيو 2000 .

بشار سوبر ستار

لم يدخر شيراك جهده عند موت الأسد الأب من أجل إضفاء شرعية على بشار أمام أقرانه الغربيين. واستؤنفت حركة قدوم الشخصيات الغربية إلى دمشق، ولا سيما أنه من المفترض أن يكون قد حان الوقت لسياسة (اللبرلة). لن تكون هذه (اللبرلة) في نظام الأسد إلا اقتصادية ومخادعة للبصر، أي «خصخصة» لصالح المقربين من رئيس النظام وفي صفوفهم الأولى ابن خاله رامي مخلوف. لكن اللجنة الأوروبية والبنك الدولي قبلا المشاركة باللعبة، ما أغنى سجل المحادثات في القصر الرئاسي.

لم يحظَ تحول شيراك ضد الأسد بعد مقتل الحريري في شباط/ فبريار 2005 بإجماع الأوروبيين المنزعجيبن من الطابع الشخصي جدًا للعقاب الفرنسي. ووضعت حرب امتدت «33 يومًا» في صيف 2006 في المواجهة حزب الله وإسرائيل. وقادت إلى بشار الأسد الطراز نفسه من المبعوثين الدوليين الذين كانوا يذهبون إلى أبيه في أثناء أزمات مشابهة لعام 1993 و1996 . لاحظ بعض الدبلوماسيين المحنكين أن بشار أقلّ إسهابًا في الكلام وأكثر اضطرابًا بصورة واضحة من أبيه حافظ في الوقت نفسه. ومن هنا الشعور المختلط بعد الماراثونات الدبلوماسية، القصيرة بالتأكيد، لكن قليلة الأهمية.

امتاز الرئيس السوري من أبيه، ولا سيما باللجوء إلى الهجوم الانفعالي، بل إلى التهديد المباشر. هو ينكر كل عقلانية لخصومه، ناسبًا إلى نفسه وحده احتكار «المنطق». وفي حين أن حافظ الأسد لم يكن صاحب أوهام مبالغ فيها، ظهر بشار معتقدًا بصدق الدعم الشعبي له الذي تمثّل في الاستفتاء الرئاسي الذي فاز فيه بنسبة 97 في المئة عام 2000 و2007، وبكونه وحده المرشح الوحيد. منذ ذاك وضع كل معارضة في فئة «الإرهاب» المتحكَم به بالضرورة من الخارج.

هذا هو الخطاب الذي لا يفتأ المستبد السوري يردده منذ بداية التمرد الشعبي في سورية آذار/ مارس 2011. إذ شجب –مؤيدًا من موسكو وطهران وأتباعهما– مؤامرة «إرهابية» حاكها تحالف مظلم للإمبرياليين والصهيونيين والمتطرفين. إعطاء قيمة عالية لنظام الأسد هذا بوصفه البديل الوحيد للفوضى، لن تنطلي أكثر مما قام به هذا النظام نفسه، بتشجيعه التسلل الجهادي والانشقاق الكردي، حيث يتبع سياسة ما هو أسوأ من أجل أن يبقى ملاذًا وحيدًا.

كان حافظ الأسد سيدًا في فن المحافظة، ولا سيما في لبنان، على الحرائق التي سرعان ما يعرض خدماته لإطفائها. مارس بشار لعبة التخريب نفسها لـ «الإطفائي المهووس بالحرائق»، لكن هذه المرة داخل بلده. وهو يتمتع بمزية كبيرة في عملية التهديم هذه، بسبب واقع أنه يجسّد سورية في عيون الأمم المتحدة، في حين بقيت المعارضة بصورها المختلفة حبيسة في الغوامض الدبلوماسية.

وقع الشعب السوري في الفخ حين سمّي كوفي أنان في شباط/ فبراير 2012 مبعوثًا خاصًا للأمم المتحدة وجامعة الدول العربية. كان بإمكاننا التأمّل من السكرتير السابق العام للمنظمة وحامل جائزة نوبل للسلام 2001، قليلًا من الخيال في غياب الشجاعة. لكن أنان افتتح مهمته في 10 آذار/ مارس عبر لقاء مع الأسد، حيث محا المستبد كل منظور لـ «انتقال سياسي». لا تذكر «خطة أنان» المكونة من 6 نقاط، والمقدمة إلى مجلس الأمن، 6 أيام لاحقًا، إلا «عملية سياسية مفتوحة يقودها السوريون». لم تكن تلك إلا المرة الأولى لتراجعات أنان، فقد قبل أن يكون وقف إطلاق النار المعلن في 12 نيسان/ أبريل، محترمًا بصورة غير متكافئة، وأن ينتهك الجيش السوري التزاماته في الانسحاب من المدن. ومنع مراقبي الأمم المتحدة من حضور الاحتجاجات الشعبية، في حين إن «خطة أنان» تضمن حرية التظاهر. وترك أمن المندوبين الدوليين ليصبح مشكلة ذات أولوية بدلًا من إنهاء العمليات العدائية في سورية.

إضافة إلى أن أنان علّق قراره، بالموافقة المسبقة للأسد، في ما يخص مراقبي الأمم المتحدة، وانتظر المراقبون في حمص الضوء الأخضر من الحاكم كي يذهبوا في 26 أيار/ مايو 2012 إلى مسرح مذبحةٍ ارتكبت في ليلة سابقة. أحصيت أجساد ليس أقل من 108 مدنيًا من قرية الحولة. ورفضت الأمم المتحدة التعليق على مسؤولية المذبحة التي ارتكبت بالسلاح الأبيض، على الرغم من أنها وضعت النظام موضع شك في ما يخص القصف الذي سبق المذبحة. أعلن أنان الذي اجتمع في 29 أيار/ مايو مع الأسد «أن

الوقت يقترب بسرعة، حيث على الأسرة الدولية تقييم الوضع». لقد عرفنا إنذارات جبرية أكثر تشددًا. تابعت سورية بصورة طبيعية انحدارها نحو الجحيم. وبالعودة إلى دمشق 9 تموز/ مايو، ادّعى أنان أنه توصل مع الأسد إلى «اتفاق على مقاربة» لإيقاف العنف. وفي 2 آب/ أغسطس أعلن عن استقالته من منصب المبعوث الخاص وفقًا لحقيقة الفشل الذريع.

لم يلتق السكرتير العام السابق للأمم المتحدة خلال خمسة أشهر من مهمته بالأسد الابن إلا ثلاث مرات. ونتذكر أن كيسنجر التقى خلال شهر واحد بالأسد الأب 13 مرة. وأن هذه المحادثات الماراثونية تناوبت مع نقاشات أحيانًا متشنجة مع إسرائيل، في حين أن أنان لم يعقد حوارًا مع المعارضة السورية إلا على هامش اتصالاته مع السلطات التركية. الأسوأ أن حامل جائزة نوبل للسلام عام 2001، جعل «الجرائم ضد الإنسانية « في سورية أمرًا عاديًا من دون مجرمين محددين.

في ربيع 2011 أغلق الأميركيون والأوروبيون سفاراتهم في دمشق، وطردوا الممثلين المعتمدين لديهم من نظام الأسد. لكنهم امتنعوا عن قطع العلاقات الدبلوماسية من أجل المحافظة على حصانة مصالحهم في سورية ولمراعاة المستقبل. دافعت روسيا والصين بصورة ثابتة عن الأسد في مجلس الأمن الدولي التابع إلى منظمة الأمم المتحدة؛ الطريق مسدود بالكامل. أما النظام المنسجم مع نفسه، فقد تم تمثيله عبر دبلوماسين في المحادثات التي نظّمت تحت سقف الأمم المتحدة في سويسرا، كما لو أن المعارضة السورية ليست إلا وفدًا أجنبيًا.

فرض حافظ الأسد نفسه في قلب المقايضات الدبلوماسية في الشرق الأوسط. وصار من الضروري أخذ ابنه في الحسبان من أجل مستقبل سورية، لا لأنّ الحديث مع بشار يفتح أفقًا ما، على غرار تجربة أنان المريرة معه، ولكن بسبب واقع هيكلية الأمم المتحدة المرتكزة على العلاقات بين الدول. إن شيئًا لا يمكن عمله في سورية من دون الأسد؛ كما إن شيئًا أيضًا لا يمكن تحقيقه من دونه، لا شيء يحصل. دبلوماسية مضللة، بذلك فضلت أخذ سورية رهينة لدى الأسد، وفقًا للشعار المعلن من مؤيديه منذ ربيع 2011: «الأسد أو نحرق البلد».

دخل صراع القوة في ربيع 1974 بين كيسنجر وحافظ الأسد في المدونات الدبلوماسية. ونستطيع في هذا المضمار التساؤل حول مواهب «المفاوض» المنسوبة إلى حافظ الذي لم

يتنازل عن أي شيء أبدًا: كان قد خسر الجولان، وتم تحييده تحت حكم سيطرة الأمم المتحدة. حمى دمشق من اعتداء إسرائيلي جديد؛ من ناحية أخرى، تلقت طموحات الأسد في الهيمنة في الشرق الأوسط، دعمًا من واشنطن، وتجددت مناورة عام 1990 من أجل سحق آخر معقل مقاومة في لبنان. وعلى غرار «عملية السلام» فإن طاغية دمشق لم يطلب أبدًا إلا «كل شيء أو لا شيء»، مساومًا على اتفاق في جنيف من أجل مكاسب على الأرض قابلة للمناقشة حول بحيرة طبرية.

يزداد غياب القدرة على التنازل –ومن ثم على التفاوض– خطرًا لدى بشار الأسد، ففي حين كان أبوه يعامل مضيفيه بوصفهم لا يملكون أي ثقافة، ويفرض عليهم روايته الخاصة جدًا عن تاريخ المنطقة، فإن وريث العرش كان يعظهم وكأنهم متخلفون عقليًا، ويريد إقناعهم بـ «منطقه» الخاص. وصولًا إلى تاريخ 14 تشرين الثاني/ نوفمبر 2015، حيث كشف المستبد عن قناعه أمام كاميرا قناة (ت ف 1) الفرنسية: اتهم «السياسة الفرنسية» بـ «دعم الارهاب»، ومن ثم فإنها هي المسؤولة عن المذبحة التي أدمت باريس عشية المساء السابق.

الخاتمة

عند ساعة كتابة هذه السطور، قرأت أن حلب قد عرفت في 23 أيلول/ مايو 2016 «أسوأ» يوم من بداية الصراع السوري. تجمّدتُ من الرعب لأن جريدة اللوموند لم تخشَ قبل أربعة أعوام من الإشارة إلى لوحة غيرنيكا في وصف حلب الشهيدة[299]. وبدا مستوى العنف الذي شهدته بنفسي في حلب في تموز/ يوليو 2013، لا يمكن احتماله. إذًا، كيف يمكن إدراك سنوات من الانحدار في الهول، حين تصب إحدى أكبر قوتي طيران في العالم، أي روسيا الفدرالية، جام غضبها على المدينة الألفية؟

يتضاعف الدوّار حين تضيف الصحافة العالمية بجرة قلم 200 ألف قتيل في المحصلة، في حين إن العدد يفوق 300 ألف قتيل. لا يفاجئني هذا مطلقًا، لأنني عاينت بنفسي على الأرض خسائر أكثر فداحة من تلك المنشورة في الخارج. لكن إضفاء الطابع الرسمي بهذا المستوى المهول على نصف مليون قتيل يستدعي على الأقل تعليقًا، وليس تعديلاً حسابيًا فحسب. فلنتذكر أن عدد السكان السوريين يقدر بـ 22 مليون شخص، وأن مليونين منهم أصيبوا بجروح خلال النزاع. وأن نصف السوريات والسوريين أجبر على هجر مسكنه، وأن حوالى 5 ملايين منهم لجؤوا إلى الخارج.

استسلم بان كي مون الأمين العام للأمم المتحدة إلى عواطفه في وجه «مأساة تلقي العار علينا، فشل جماعي يجب أن يخيّم على أعضاء هذا المجلس كلهم»[300]. وعلى الرغم من أن مجلس الأمن الذي افتتح اجتماعه، انعقد على مستوى الاستثنائي لوزراء الخارجية الأجانب، فقد تبادل الجميع اتهامات المسؤولية عن المأساة الجارية؛ المأزق كامل والمذبحة تستمر بشراسة.

هل نسينا في نيويورك أن سورية كانت الأرض المفضلة للدبلوماسية مع إنشاء أوائل القنصليات الدائمة في القرن السادس عشر، والمفاوضات اللانهائية حول المسألة

(299) Jean-Philippe Rémy et Laurent Van der Stockt, A quoi servent les mots face au massacre d Alep?, Le Monde, 13 septembre 2012.

(300) تصريح بان كي مون عند افتتاح اجتماع مجلس الأمن في نيويورك 21 أيلول/ سبتمبر 2016.

الشرقية في القرن التاسع عشر و«عملية السلام» في القرن العشرين؟ يبدو أن هذا الإرث الدبلوماسي كله، قد تم محوه عبر التدنيس الذي يخرّب سورية. ها نحن قد عدنا إلى تيمورلنك: الأرقام ها هي مروّعة بازدياد عدد الجرائم القاسية، لكن الأسوأ من هذه الأرقام المرعبة، ذلك الافتتان المنحرف الذي شعر به ابن خلدون في زمنه حيال جلاد السهوب و«ذكائه الفائق».

الدناءة ليست في أصلها إلا نذالة، وتزيينها بميزات أسطورية هو استسلام لها. لا علاقة للأسد الأب والابن بصلاح الدين بل بأبي بكر البغدادي، خليفة داعش الذي نصبّ نفسه، ولا قرابة بينه وبين هارون الرشيد. تلك القصص المختلقة كلها المبنية على أنساب متخيلة لا تؤدي إلا إلى تغذية بروباغاندا القتلة اليوم، بل حتى وصولًا إلى فرنسا. ومن جهة أخرى، من الجوهري الإشارة إلى الزاوية غير المرئية، حيث أنشأت سلالة نفسها في دمشق تحت غطاء «الاشتراكية العربية» مثل ما دعمت سلالات أخرى نفسها قبل 13 قرنًا على الرغم من أنف عائلة النبي.

طوال تاريخ سورية هذا الذي اجتزناه معًا، تظهر «الدول القوية» مستبدةً بصورة طبيعية بالنسبة إلى رعاياها أغلبهم. لكنها ليست أكثر محاباة لـ «الأقليات»، هذا المصطلح المضلل في الغرب، إذ هو لا يشمل غالبًا إلا مسيحيي الشرق، في حين إن الانشقاقات عن الإسلام أكثر هشاشة كذلك. لم يستطع استبداد القسطنطينية المتنور منع مذابح المسيحيين في حلب عام 1850 ولا في دمشق بعد ذلك بعشرة أعوام. أما في ما يخص الحداثيين المعاصرين جدًا «تركيا الفتاة»، فقد عملوا بمنهجية على إبادة الشعب الأرمني.

مرآة دمشق تعكس بوضوح صورتنا عن أنفسنا، تمامًا كما الخطاب الحالي حول سورية كاشف عمّن يقول به. سدّ لامارتين أذنيه في مواجهة سوق الكليشيهات هذا، حيث تتصادم فيما بينها؛ الحنين إلى الحروب الصليبية والأبوية الاستعمارية، إلخ. فلنعترف، ثمة عنصرية مبطنة أقل فأقلّ. إن كان ثمة درس واحد يمكن استخلاصه من التجربة الفرنسية في سورية، فهو لحسن الحظ حامل للأمل: واحدة من أكبر إمبراطوريتين في ذلك الحين، على الرغم من استبداد «انتدابها» بين 1920 و1943، قد فشلت في تقسيم دائم لسورية المتعطشة إلى الحرية.

كان الثوار الذين انتفضوا عام 2011 مقتنعين بالسقوط الموشك لنظام الأسد، ولا شك بأن هذا كان خطأهم الفادح. وما زال يحركهم القرار ذاته، لكنهم الآن، يتأملون لأن يكون أولادهم مواطنين في سورية وقد تخلّصت من المستبد. لقد أرغمهم ظهور داعش على القتال على جبهتين. ومع ذلك بقوا مقتنعين أن الوحش الجهادي وُلد في تربة الدكتاتور الخصبة، وأنه يجب محاربة هذا من أجل قتل ذاك.

سورية المدن والأراضي هذه، الموحدة والمتنوعة في آن معًا، لم نقم سوى بالكشف عن ثرائها الهائل. أتمنى أن أكون قد أثرتُ الرغبة بالمعرفة أكثر عن هذا الشعب الاستثنائي وعن الإرث الذي يعتزّ به. سيكون ما بعد الحرب، أليمًا ومضطربًا. بل إننا نستطيع أن نتوق -من دون أن نصدق بالضرورة- إلى ملاحقة المجرمين وإرساء العدالة. ولكن سواء أحُكم على الجلادين أم لا، فإن بلاد الشام ستنهض من ركامها الحالي. وبانتظار الخاتمة علينا ألا ننسى أن قليلًا من قدرنا نحن هنا أيضًا، فقصتنا تدور هناك في سورية.

فهرس الأعلام والجماعات والأمكنة

ا

أ

إ

أ

ا

أ

ا

أ

ا

ت

ج

خ

د

ر

ز

س

ش

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

المصادر والمراجع

مراجع مختارة باللغة الفرنسية

Adam Baczko, Gilles Dorronsoro et Arthur Quesnay, Syrie, anatomie d'une guerre civile, CNRS éditions, Paris, 2016.

Thierry Bianquis, Damas et la Syrie sous la domination fatimide, Presses de l'IFPO, Damas, 1986 (tome 1) et 1989 (tome 2).

Vincent Cloarec, La France et la question de Syrie, CNRS éditions, Paris, 1998.

Paolo Dall'Oglio, La Rage et la Lumière, L'Atelier, Paris, 2013.

Ignace Dalle et Wladimir Glasman, Le Cauchemar syrien, Fayard, Paris, 2016.

Gérard Degeorge, Damas. Des Ottomans à nos jours, L'Harmattan, Paris, 1994.

Anne-Marie Eddé, Saladin, Flammarion, Paris, 2008.

Jean-Pierre Filiu, Je vous écris d'Alep, Denoël, Paris,2013 .

Eric Geoffroy, Djihad et contemplation, Dervy, Paris, 1997.

Abd al-Rahman al-Kawakibi, Du despotisme, Actes Sud, Paris, 2016.

Joseph Kessel, En Syrie, Plon, Paris, 2014.

Garance Le Caisne, Opération César, Stock, Paris,2015 .

Salma Mardam Bey, La Syrie et la France. Bilan d’une équivoque (1939-1945), L’Harmattan, Paris, 1994.

André Miquel, Ousâma, un prince syrien face aux croisés, Fayard, Paris, 1986.

André Raymond, La Ville arabe, Alep, à l’époque ottomane, Presses de l’IFPO, Damas, 1998.

Cyril Roussel, Les Druzes de Syrie, Presses de l’IFPO, Beyrouth, 2011.

Annie et Maurice Sartre, Palmyre, vérités et légendes, Perrin, Paris, 2016.

Jean Sauvaget, Les Monuments historiques de Damas, Presses de l’IFPO, Damas, 1932.

Michel Seurat, L’État de barbarie, PUF, Paris,2012 .

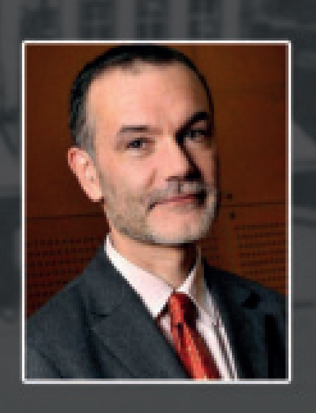
Saadallah Wannous, Miniatures, Actes Sud, Paris,1996 .

Samar Yazbek, Les Portes du néant, Stock, Paris,2015 .

هذا الكتاب

نخلى عالمنا عن سورية وعن شعبها لرعب لا يمكن تخيّله، ويبدو أن رعبًا مماثلًا لا يمسنا إلا حين تحتشد موجات اللاجئين على أبواب أوروبا أو حين تضرب الاعتداءات قارتنا. ولكي تصير لا مبالاة كهذه ممكنة وجب إخفاء كل ما في تاريخ سورية مدويًا في ذاكرتنا، وتصديق أن كارثة كهذه يمكن أن تستمر فوق أرض قريبة منّا إلى هذا الحد، يعني أننا عاجزون عن استباق مآسي أخرى على أرضنا. لهذا السبب، من الملحّ إعادة الرابط مع جزء من التاريخ العالمي الذي حدث هناك: على الضفة الأخرى من المتوسط.

فلو شئنا أم لم نشأ، تقدم دمشق لنا اليوم مرآتها.



جان بيير فيليو

جان بيير فيليو أكاديمي فرنسي ودبلوماسي ومؤرخ وباحث في الشؤون العربية، متخصص في الأسلام المعاصر ولد في باريس 1961، ودرس في معهد العلوم السياسية في باريس، ثم حصل على دبلوم المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية باللغتين العربية والصينية، وصار ممثلًا للأتحاد الدولي لحقوق الأنسان في لبنان خلال فترة الحرب الأهلية. كان رئيسًا للبعثة الفرنسية في سورية (1996 - 1999) وفي تونس (2002 - 2006)، وكان مستشارًا دبلوماسيًا لوزير الداخلية الفرنسي (1990 - 1991)، ووزير الدفاع (1991 - 1993)، ورئيس الوزراء(2000 - 2002) وكان أحد الخبراء العشرة المستقلين الذين عينهم الرئيس فرانسوا هولاند للأسهام في الكتاب الأبيض عام 2013 للدفاع الوطني والأمن الوطني، وهو أستاذ في "معهد باريس للدراسات السياسية"، وأستاذ زائر في جامعة "جورج تاون" في الولايات المتحدة. كتب حوالي عشرة كتب، بما في ذلك "الثورة العربية"، و "عشرة دروس من الانتفاضة الديموقراطية"، و"أكتب لكم من حلب في قلب سورية الثورة". ووصف الجدل المتعارض بين الجهاد المحلي والعالمي، وأبرز كيف تحاول الحركات المتطرفة "تحديث" المفاهيم التقليدية، وترجمت أعماله ونشرت في اثنتي عشرة لغة.



